بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القـــرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

<u>إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات</u>

الاسم (رباعي) : عبدالله بن محمد بن ريبان الرميان كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه في تخصص : عقيدة

عنوان الأطروحة : ((مسائل العقيدة في كتابي المعلم للمازري والمفهم للقرطبي في شرحيهما لصحيح مسلم دراسة وتخريج ...))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٦/ ٢ / ١٤٢١هـ _ بقبولها بعد التعديلات المطلوبة ،وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

<u>أعضاء اللجنة</u>

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : أ.د. علي بن نفيع العلياني	الاسم : أ.د. أحمد بن عبدالرحيم السايح	الاسم : د. سعود بن محمد الصقري
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع : ....

يعتمد

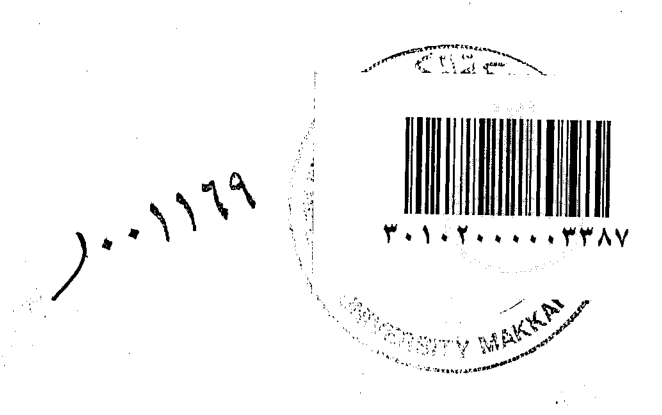
رئيس قسم العقيدة

الاسم : د. عبدالله بن محمد القرني

التوقيع : ....

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة
قسم الدراسات العليا



مسائل العقيدة في كتابي
«المُعلم» للمازري (ت ٥٣٦هـ) و«المفهم» للقرطبي (ت ٦٥٦هـ)
في شرحيهما لصحيح مسلم

دراسةٌ وترجيحٌ

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة

إعداد الطالب
عبدالله بن محمد بن رميان الرميان

إشراف
فضيلة الدكتور/ علي بن نفيع العلياني

١٤٢٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبـــعـــد :

فقد اشتملت هذه الرسالة العلمية التي بعنوان (مسائل العقيدة في كتابي المعلم للمازري و المفهم للقرطبي في شرحيهما لصحيح مسلم ، دراسة وترجيح) على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة . فأما المقدمة فقد ذكرت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره والمنهج الذي سرت عليه في البحث .

وأما الباب الأول فقسم إلى فصلين : الفصل الأول دراسة لعصر المازري وحياته والفصل الثاني دراسة لعصر القرطبي وحياته . وأما الباب الثاني فعن الإيمان والتوحيد وذلك في أربعة فصول الفصل الأول عن الإيمان وما يتعلق به من مسائل والفصل الثاني عن توحيد الربوبية والفصل الثالث عن توحيد الألوهية والفصل الرابع عن توحيد الأسماء والصفات . أما الباب الثالث فعن النبوة والإمامة والصحابة في ثلاثة فصول الفصل الأول النبوة والفصل الثاني الإمامة والفصل الثالث الصحابة .

أما الباب الرابع فهو عن اليوم الآخر في أربعة فصول الفصل الأول عن أشراط الساعة والفصل الثاني عن فتنة القبر وعذابه ونعيمه والفصل الثالث عن البعث والحشر والفصل الرابع عن الجنة والنار . وأما الخاتمة فقد وضعت فيها نتائج البحث .

وقد تبين لي من خلال هذه الرسالة موافق المازري للأشاعرة في كل ما ذهبوا إليه في مسائل الاعتقاد والذب عنهم ومخالفة مذهب السلف في كثير من المسائل خصوصاً في باب الأسماء والصفات .

وأما القرطبي فهو وإن وافق الأشاعرة في مسائل الإيمان والصفات فقد خالفهم في بعض المسائل الأخرى أو خالف المشهور من مذهب الأشاعرة حيث رد على من قال بأن أول واجب هو النظر ولم يجعل المعجزات هي الطريق الوحيد لبيان صدق الأنبياء وكان رحمه الله شديداً في توحيد العبادة .

كما تبين لي من خلال الرسالة صدق التدين وطلب الحق من كليهما وإن لم يوفقا لذلك في المسائل التي ذكرت فيها مخالفتهما لمذهب السلف والرد عليهم لا يعني اتهام النيات لكن لبيان الزلات والانحرافات حتى لا يتابعون على ذلك .

وقد كانت طريقتي في العرض والنقد مبنية على جمع آرائهما في المسألة الواحدة من خلال كتابيهما ثم عرض ذلك على مذهب أهل السنة والجماعة ثم أبين صحة ما ذهبا إليه حال الموافقة والرد عليهما عند المخالفة بالأدلة من الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة على وذلك حسب المنهج العلمي عزواً وتخريجاً وتوثيقاً وتعليقاً .

وقد ختمت الرسالة بفهارس علمية متنوعة والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الطالـــب	المـــشرف	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
عبد الله بن محمد الرميان	أ.د.علي بن نفيع العلياني	د.محمد طاهر بن عبد الرحمن نور ولي

المقدمة

إنَّ الحمدلله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لاإله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ [سورة النساء]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة الأحزاب]

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتابُ الله، وخيرُ الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

وبعد:

فإنَّ الله تعالى بعثَ رسولَه محمدًا ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم بإذنه إلى صراط مستقيم، فبلَّغ الرسالة، وأدّى الأمانةَ ونصحَ الأمةَ وجاهدَ في الله حقَّ جهاده حتى أتاه اليقين.

ثم سار على دربِه الصحابة والتابعون، فهم بنبيِّهم يقتدون وعلى منهجه سائرون.

ثم خلفت من بعدهم خلوف ظهرت فيهم البدعُ واستحكمت فيهم الأهواءُ فنشأت الفرقُ والأحزاب: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [سورة هود]

ولكن لاتزالُ في هذه الأمة طائفةٌ منصورة، وفرقةٌ ناجية، لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفَهم حتى يأتي أمرُ الله، فيهم أهلُ السنة والجماعة، الذين يعتقدون ما عليه الرسولُ ﷺ ومن معه، فمنهجُهم في العقيدة هو الذي يجب الأخذُ به والسيرُ عليه والجزمُ بصحتِه ونقائه وكمالِه وأنَّ ما خالفه من العقائد

مذموم مردود.

والمصدران الوحيدانِ لتَلقِّي هذه العقيدة الصحيحة النقية هما الكتاب والسنة ومن المعلوم أنَّ أصحَّ الكتب بعد كتاب الله هما صحيحا البخاري ومسلم، حيث أجمعت الأمةُ على تقديمهما وقبولهما.

ولهذا كثرت عنايةُ العلماءِ بهما دراسةً وشرحًا وتعليقًا وتوضيحًا، وقد لقي صحيح مسلم من العناية والاهتمام خصوصاً من علماء المغرب والأندلس ما فاق به غيره، وممن قام باختصاره وشرحه الحافظ الفقيه أبوالعباس أحمد بن عمر القرطبيُّ الأندلسي المتوفى في الإسكندرية سنة (٦٥٦هـ). وقد سماه «المفهم في حل ما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» وهو كتابٌ ضخمٌ وشرح واسع يدل على سعة علم مؤلفه وتمكنه. ومع اعتماد العلماء السابقين عليه وكثرة نقلهم منه كالحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري، إذ نقل عنه في أكثر من مائة موضع، وقد ينقل له كلامًا في صفحة كاملة، وكالعراقي وابنه في «طرح التثريب» إذ نقلا عنه في أكثر من ثلاثمائة وثمانين موضعًا، وغيرهم كثير، مما هو مبين في الرسالة عند التعريف بالكتاب وبيان أهميته، هذا سوى تلميذه القرطبي المفسر الذي حوى تفسيره الكثير من آراء شيخه بل وكلماته وعباراته وإن لم ينسبها إليه وما صرح بنقله عن شيخه في تفسيره لا يحصى كثرة.

أقول مع معرفة العلماء بقدره واستفادتهم منه بحيث إذا أطلق القرطبي عند العلماء المتقدمين قصد به صاحبُ «المفهم» إلاَّ أنَّ هذا الكتاب بقي رهين الحبس دون إخراج قرونًا متطاولة، حتى يسَّر الله إخراجه بصورة جيدة وبتحقيق طيب على يد مجموعة من الباحثين، علمًا أنَّ هناك عشر رسائل علمية بعضها قد أجيزت في جامعة الإمام لتحقيق هذا الكتاب. ولما خرج هذا الشرح في سبع مجلدات ضخمة بأكثر من أربعة آلاف صفحة تسارع طلاب العلم لاقتنائه وأكبوا على مطالعته والاستفادة منه فوجدت هذه فرصة سانحةً ليكون هذا الشرح الكبير موضوعًا لرسالتي في مرحلة الدكتوراه في قسم العقيدة خصوصًا أنَّ القرطبي رحمه الله قد تأثر بمنهج المتكلمين وسار على طريقة الأشاعرة المأولين، بحيث أنَّ دراسة منهجه في ذلك وبيان مخالفته لمنهج السلف في هذا الجانب وتقويم ما أخطأ فيه يكون وسيلةً نافعةً للاستفادة من هذا الشرح دون

حرج أو حذر فاستشرت من مشايخي من أثق بعلمه واستنير برأيه، فوجدت التأييد التام، فاستعنت بالله تعالى وقدمت مخططه لقسم العقيدة، ولكن أعضاء القسم حفظهم الله، رأوا إضافة شرح آخر إليه فوقع اختيارهم على أول شروح صحيح مسلم وأقدمها وصولاً إلينا وهو «المعلم بفوائد مسلم»، لمحمد بن علي المازري المتوفي سنة (٥٣٦هـ)، وهو الكتاب الذي أصبح أساساً لما بعده حيث أكمله القاضي عياض بكتابه «إكمال المعلم» ثم أكمله عدد من العلماء بـ«إكمال إكمال المعلم»، و«مكمل إكمال المعلم» وغيرها فزادت الكتب المصنفة على «المعلم» على خمسة مؤلفات فرضخت للأمر، رغم علمي بصعوبته، إلاَّ أنه مما سهل الأمر بعد الإستعانة بالله أنهما على مذهب واحد في العقيدة وهي عقيدة الأشاعرة وإن لم يلتزم القرطبي التزاماً كاملاً بها.

ولا ريب أنَّ الفتن والبدع التي ظهرت عصفت في مسارها بخلق كثير وإنَّ ممن نالهم عصف هذه الفتن القرطبي والمازري ـ رحمهما الله تعالى ـ إذ سيتبين من خلال الرسالة مخالفتهما لمذهب أهل السنة والجماعة في كثير من مسائل الاعتقاد.

ولكن ومع هذه المخالفة التي جاءت لأسباب عديدة تتعلق ببيئاتهم وأزمانهم لكننا لا نشك في صدقهم وحسن نواياهم ولا نغض الطرف عن جهودهم في خدمة السنة والدفاع عنها فليس حالهم كالذين عقدوا ألوية البدعة وأجمعوا على مفارقة الكتاب والسنة.

لكن لاينبغي مع هذا السكوت على أخطائهم ولا التغاضي عن زلاتهم التي هي في أصول الدين، حتى لايغتر بها من يجهل الحال ويخفى عليه الأمر.

وهذا هو هدف هذه الدراسة خصوصًا أنَّ الدراسة تتعلق بكتابين هما من أهم شروح صحيح مسلم الذي هو من أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى. ولم يكن هذا الموضوع مما كتب فيه رسالة علمية إضافة إلى استفادة الباحث الشخصية وذلك بالبحث في جل أبواب العقيدة مما يساعد على الإلمام بمسائلها والاطلاع على كلام أهل العلم فيها وهو ما كنت أتطلع إليه واسعى للحصول عليه خصوصًا أنَّ جميع دراساتي السابقة في المرحلة الجامعية والماجستير لم تكن في هذا التخصص فـ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ

﴿لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ .

خطة البحث :

قسمت البحث إلى مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة .

أما المقدمة: فعن أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطة البحث وبيان المنهج الذي سرت عليه وكلمة الشكر لمن يستحقها .

وأما الباب الأول: فهو دراسة لشخصيتي المازري والقرطبي وعصرهما الذي عاشا فيه، وقسمت هذا الباب إلى فصلين :

الفصل الأول: عن عصر المازري وحياته . وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : عصره وفيه مطلبان .

المبحث الثاني : حياته الشخصية وفيه تمهيد وثلاثة مطالب .

المبحث الثالث : حياته العلمية وفيه سبعة مطالب .

المبحث الرابع : التعريف بكتاب المعلم وأهميته وفيه خمسة مطالب :

الفصل الثاني: عن عصر القرطبي وحياته، وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : عصره، وفيه مطلبان .

المبحث الثاني : حياته الشخصية، وفيه أربعة مطالب .

المبحث الثالث : حياته العلمية، وفيه ستة مطالب .

المبحث الرابع : التعريف بكتاب «المفهم» وبيان أهميته، وفيه ستة مطالب .

الباب الثاني: الإيمان والتوحيد، وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول: الإيمان وما يتعلق به من مسائل وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الإيمان لغة وشرعاً، وحكم الإستثناء فيه، وفيه ثلاثة مطالب .

المبحث الثاني : الإيمان والإسلام .

المبحث الثالث : الكبيرة وحكم مرتكبها وفيه ثلاثة مطالب .

الفصل الثاني: توحيد الربوبية وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

التمهيد : عن علم الكلام وموقف السلف منه .

المبحث الأول: أول واجب على المكلف والرد على المتكلمين.
المبحث الثاني: معنى توحيد الربوبية وأدلته، وفيه ثلاثة مطالب:
المبحث الثالث: الإيمان بالقدر وفيه عشرة مطالب.

الفصل الثالث: توحيدالألوهية، وفيه أربعة مباحث:
المبحث الأول: حقيقة توحيد الألوهية ومكانته.
المبحث الثاني: العبادة وبعض أنواعها، وفيه مطلبان.
المبحث الثالث: نواقض التوحيد وقوادحه وفيه أربعة عشر مطلباً.
المبحث الرابع: البدع والموقف من الفرق المبتدعة وفيه ثلاثة مطالب:

الفصل الرابع: توحيد الأسماء والصفات، وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:
المبحث الأول: منهجهما في أسماء الله تعالى وفيه تسعة مطالب.
المبحث الثاني: منهجهما في صفات الله تعالى: وفيه خمسة مطالب.
المبحث الثالث: منهجهما في رؤية الله تعالى.

الباب الثالث: النبوة والإمامة والصحابة وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: النبوة وفيه خمسة مباحث:
المبحث الأول: تعريف النبوة والرسالة وبيان فضل الأنبياء وفيه خمسة مطالب.
المبحث الثاني: دلائل النبوة وفيه مطلبان:
المبحث الثالث: عصمة الأنبياء.
المبحث الرابع: خصائص نبينا محمد ﷺ.
المبحث الخامس: الإيمان بالملائكة والجن، وفيه مطلبان.

الفصل الثاني: الإمامة وفيه خمسة مباحث:
المبحث الأول: حكم نصب الإمام وبما تنعقد به الإمامة.
المبحث الثاني: البيعة.
المبحث الثالث: شروط الإمام.
المبحث الرابع: واجبات الإمام وحقوقه.
المبحث الخامس: الموقف من الأئمة.

الفصل الثالث: الصحابة وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مكانة الصحابة وفضلهم.

المبحث الثاني: عدالتهم وعظم الطعن فيهم.

المبحث الثالث: الموقف مما وقع بينهم.

الباب الرابع: اليوم الآخر وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: أشراط الساعة وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف أشراط الساعة وأقسامها.

المبحث الثاني: أشراط الساعة الصغرى.

المبحث الثالث: أشراط الساعة الكبرى.

الفصل الثاني: فتنة القبر وعذابه ونعيمه، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الروح.

المبحث الثاني: فتنة القبر.

المبحث الثالث: عذاب القبر ونعيمه.

المبحث الرابع: سماع الموتى.

الفصل الثالث: البعث والحشر وفيه ثمانية مباحث:

المبحث الأول: النفخ في الصور.

المبحث الثاني: البعث والنشور.

المبحث الثالث: الحشر.

المبحث الرابع: الميزان.

المبحث الخامس: الشفاعة.

المبحث السادس: الحوض.

المبحث السابع: الصراط.

المبحث الثامن: ذبح الموت.

الفصل الرابع: الجنة والنار.

الخاتمة: وذكرت فيها أهم نتائج البحث.

منهج البحث :

وقد سرت في اعداد هذا البحث على المنهج التالي :

١ـ قمت بقراءة كتابي «المفهم» و «المعلم» واستخرجت منهما مسائل العقيدة حسب علمي القاصر.

٢ـ قسمت هذه المسائل المحصورة إلى موضوعات علم العقيدة وعنونت لها بحسب الخطة المعدة لذلك حسب ما فهمت من مضامينها.

٣ـ جمعت شتات كلام القرطبي أو المازري في المسألة الواحدة من مواضعها المختلفة وأعتمد على أكمل النصوص وأوضحها في الدلالة على المسألة وقد أذكر أكثر من قول في المسألة الواحدة إن وجد وكان لذكره فائدة وإلاَّ أحلت إلى مواضعها في الهامش.

٤ـ أعرض الأقوال في المسألة وأبين رأي القرطبي والمازري فيها ثم اتبعه ببيان موافقتهما لمنهج السلف من عدمه ثم أردف بعد ذلك بكلام أئمة السلف في هذه المسألة تأييدًا لما ذهبا إليه حال الموافقة، وردًا عليهما عند المخالفة هذا في المسائل التي فيها خلاف بين أهل السنة والجماعة وبين الأشاعرة، وأما في المسائل التي هي محل اتفاق فقد أذكر قوليهما دون حاجة إلى تعليق أو تأييد خصوصاً في البابين الثالث والرابع.

٥ـ أقدم في عرض المسائل قول القرطبي رغم تأخر زمنه عن المازري لأنه أصل هذه الرسالة ولقلة المادة العلمية العقدية في كتاب المعلم لأنه لايعد في الحقيقة شرحاً لصحيح مسلم بل تعليق على بعض أحاديثه ولذلك فالكثير من المسائل لم أجد للمازري قولاً فيها ومنهجي في هذا ذكر قول المازري إن كان له قول في المسألة بعد كلام القرطبي وقد أقدمه أحيانًا لحاجة أو سبب وإن لم يكن له في المسألة قول سكت عنه دون التنبيه لذلك حتى لا يتكرر هذا في كل مسألة.

٦ـ عزوت الآيات القرآنية إلى مواضعها في القرآن وكتبتها وفق رسم المصحف العثماني.

٧ـ خرجت الأحاديث النبوية الواردة في البحث من مصادرها المعتمدة فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بهما في التخريج وأذكر

الكتاب والباب، والجزء والصفحة من فتح الباري بالنسبة للبخاري وشرح صحيح مسلم للنووي بالنسبة لمسلم وإن كان في غيرهما ذكرت من خرَّجه من الأئمة وقد أكتفي بواحد مع بيان الحكم على الحديث ثم أحيل عليه إن ورد مرة أخرى.

٨ـ ترجمت للأعلام المذكورين في صلب البحث عند أول موضع، يرد فيه ما عدا الصحابة والأئمة الأربعة وأصحاب الكتب الستة، وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

٩ـ شرحت ما رأيت الحاجة إلى شرحه من الألفاظ الغريبة.

١٠ـ خرجت الأبيات الشعرية الواردة في صلب البحث من دواوينها.

١١ـ بالنسبة للمرجع، فأذكر اسم الكتاب في الهامش كاملاً وكذلك مؤلفه في أول موضع يرد فيه ثم أذكره مختصرًا للبعد عن الإطالة واثقال الحواشي.

١٢ـ ذيَّلت الرسالة بفهارس لمحتوياتها اشتملت على مايلي:

(١) فهرس الآيات القرآنية.

(٢) فهرس الأحاديث والآثار.

(٣) فهرس الأبيات الشعرية.

(٤) فهرس الأعلام.

(٥) فهرس المصادر والمراجع.

(٦) فهرس موضوعات البحث.

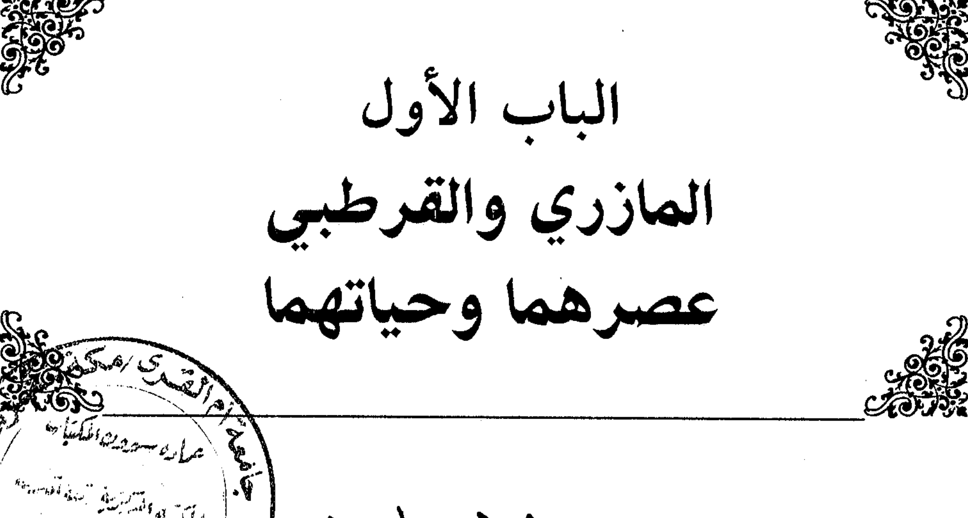
هذا وفي الختام لايسعني إلاَّ أن أتوجه بالشكر الجزيل لله سبحانه وتعالى على إتمام هذا البحث وإخراجه على هذه الصورة التي هي جهد المقل، وعمل الضعيف وحسبي أني قد بذلت فيه وسعي وغاية جهدي فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان واستغفر الله من كل خطأ وزلل.

ثم أتقدم بوافر الشكر وجزيل العرفان لشيخي وأستاذي ومشرفي على هذه الرسالة فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور علي بن نفيع العلياني فقد كان فضل الله عليَّ به عظيمًا، فقد أرشد وسدد وعلَّم وقوَّم وهدى الله به للتي هي أقوم، فقد أفدت من علمه الغزير وتواضعه الجم فله من الشكر أطيبه ومن الدعاء أخلصه

والله يتولى عنّا مكافأته كما أذكر بالذكرى الحسنة فضيلة الدكتور: محمود خفاجي، المشرف على هذه الرسالة في بدايتها فله مني جزيل الشكر وخالص الدعاء، كما أشكر كل من أعانني في هذه الرسالة بقليل أو كثير من أساتذة وزملاء وإخوان هكذا بصفه التعميم والله بأعمال المخلصين عليم.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لهذا الصرح العلمي جامعة أم القرى، بمكة المكرمة ممثلة في كلية الدعوة وأصول الدين وبقسم العقيدة على وجه الخصوص على رعاية طلاب العلم، وتيسير سبل التحصيل لهم.

وأسأل الله تعالى أن يجعل أعمالنا جميعاً خالصة لوجهه الكريم وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الباب الأول

المازري والقرطبي

عصرهما وحياتهما

وفيه فصلان:

الفصل الأول: المازري عصره وحياته

الفصل الثاني: القرطبي عصره وحياته

الفصل الأول
المازري عصره وحياته

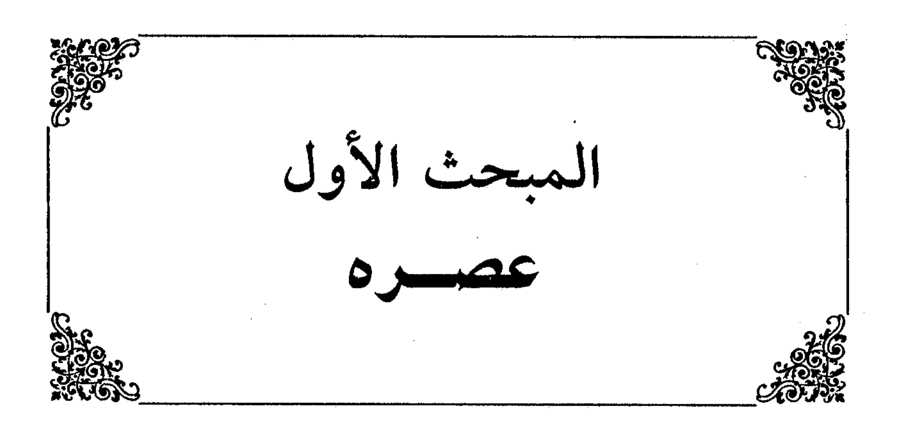
وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: **عصره**

المبحث الثاني: **حياته الشخصية**

المبحث الثالث: **حياته العلمية**

المبحث الرابع: **التعريف بالكتاب وبيان أهميته**



المبحث الأول
عصـــره

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: **عصره من الناحية السياسية**

المطلب الثاني: **عصره من الناحية العلمية**

المطلب الأول : الحالة السياسية :

لقد عاش المازري بين سنة (٤٥٣هـ) وسنة (٥٣٦هـ)، وهي فترة اضطراب وعدم استقرار وحروب وفتن، خصوصًا في بلاد إفريقية التي عاش فيها.

فهذه الفترة لم تكن فيها للخليفة العباسي أيَّة سلطة حقيقة، إنما يُكتفى بذكر اسمه على المنابر، والدعاء له في الدولة التي تدين له بالولاء، وإلاَّ فقد كانت الدولة الفاطمية العبيدية الباطنية تسيطر على مصر والشام وإفريقية. أمَّا بلاد اليمن وبلاد الحجاز فتخضعان لهم تارة فتدينان لهم بالولاء ويُدعى للخليفة الفاطمي في الحرمين، وتخرجان عن سلطتهم تارة أخرى، فيُدعى في الحرمين للخليفة العباسي ومن شايعه.

وفي اليمن كانت الدولة الصليحية الباطنية خاضعةً للدولة الفاطمية وتحت سلطتها.

وكذلك في إفريقية كانت الدولة الصنهاجية تابعة للفاطميين وخاضعة لهم كما سيأتي تفصيله.

وأمَّا خُراسان والعراق وما تبعهما فكانتا خاضعتين للسلطان السلجوقي.

والمغرب والأندلس كانتا تحت حكم دولة المرابطين[١].

وهكذا انقسمت بلاد الإسلام، وأصبحت دولاً متعددةً تحت رايات كثيرة.

أما إذا خصصنا الحديث عن بلاد إفريقية وهي التي عاش فيها المازري، فإنها كانت تحت حكم الدولة الفاطمية التي قامت أصلاً في إفريقية ثم امتد سلطانها إلى مصر والشام، فانتقلت عاصمة الدولة من إفريقية إلى مصر سنة (٣٦٢هـ) في عهد المعز لدين الله الفاطمي، وجعلوا على إفريقية بلكين بن زيزي الصنهاجي، وهي بداية قيام الدولة الصنهاجية

(١) انظر: تاريخ الإسلام السياسي، لحسن إبراهيم حسن (٤/ ١، ١١٥، ١٧٧، ٢١٩).

التي امتدت قرابة القرنين، ولما توفي بلكين سنة (٣٧٣هـ)[١] تولى ابنه المنصور الذي توفي سنة (٣٨٥هـ)[٢] فتولى بعده ابنه باديس حتى توفي سنة (٤٠٧هـ)[٣]، فتولى ابنه المعز بن باديس.

وكان المعز بن باديس يميل إلى السنة ويسعى إلى التخلص من سلطة الدولة الفاطمية الشيعية، خصوصًا أن الشعب يعين على ذلك بتمسكه بالسنة ورفضه للمذهب الرافضي الذي تدين به الدولة.

وقد أعلن المعز بن باديس انفصاله عن الدولة الفاطمية ودعا للخليفة العباسي، ودان له بالولاء، وذلك سنة (٤٤٠هـ)[٤]، فما كان من الخليفة الفاطمي «المستنصر» إلاَّ أن سلَّط عليه الأعراب من هلال ورياح وزغبة، الذين كانوا مع القرامطة فبعثهم إلى إفريقية، وأوكل الأمر فيها إليهم، فساروا إليها، ودخلوا مع الصنهاجيين في حروب طاحنة أدت إلى ضعف الدولة الصنهاجية وتسلَّط الأعراب على كثير من مدنها حتى دخلوا القيروان عاصمة الدولة الصنهاجية سنة (٤٤٩هـ)، وعاثوا فيها فسادًا، حتى رحل المعز إلى المهدية، حيث سبقه ابنه تميم إليها، وانتقلت عاصمة الدولة الصنهاجية إلى المهدية، ولم ينته حكم المعز بن باديس الذي توفي سنة (٤٥٤هـ) ـ أي بعد ولادة المازري بسنة ـ إلاَّ وقد كثُرت الاضطرابات والمحن، واختل الأمن، وضعف أمر صنهاجة وتفككت وحدة الدولة.

قال ابن خلدون[٥]: «وانتزى الثوار في البلاد فغلب حَمُّو بن مليل البرغواطي على مدينة صفاقس، وملكها سنة إحدى وخمسين، وخالفت سوسة وصار أهلها إلى الشورى في أمرهم، وصارت تونس آخرًا إلى ولاية

(١) الدولة الصنهاجية، الهادي روجي إدريس (١/ ٦٩).
(٢) المرجع السابق (١/ ٩٨).
(٣) المرجع السابق (١/ ١٢٠).
(٤) المرجع السابق (١/ ٢١٢).
(٥) عبدالرحمن بن محمد بن محمد المالكي المشهور بابن خلدون العالم المؤرخ نشأ في المغرب، ثم انتقل إلى مصر، له مؤلفات، منها: «تاريخ ابن خلدون» و«مقدمة ابن خلدون» وغيرها، توفي بالقاهرة سنة (٨٠٨هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد (٩/ ١١٤)، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (٢/ ١١٩).

الناصر بن علناس بن حماد صاحب القلعة، وولى عليهم عبدالحق بن خراسان فاستبد بها، واستقرت في ملكه وملك بنيه، وتغلب موسى بن يحيى على قابس وصار عاملها المعز بن محمد الصنهاجي إلى ولايته، وأخوه إبراهيم من بعده، والتاث ملك آل باديس وانقسم في الثوار وهلك المعز سنة أربع وخمسين، ولما هلك المعز قام بأمره ابنه تميم وغلبه العرب على إفريقية فلم يكن له إلاَّ ما ضمه السور»[1].

ولكنَّه استطاع إعادة أغلب مازال من ملكهم فاستعاد صفاقس وسوسة وتونس والقيروان.

غير أنه لم يهدأ الوضع ويستعيد بعض الملك حتى فاجأه النصارى بحملات أدت إلى استيلائهم على المهدية عاصمة الدولة الصنهاجية سنة (٤٨٠هـ)، ولم يخرجوا منها حتى بذل لهم تميم أموالاً طائلة، ومازال تميم في حروب متواصلة، لاستعادة ما ذهب من ملكه، وإخضاع من تحت يده من عمال، يسعون لانتهاز الفرصة للاستقلال بما تحت أيديهم، حتى توفي سنة (٥٠١هـ)[2].

وتولى من بعده ابنه يحيى الذي رجع إلى طاعة الفاطميين ولم يبق في الملك طويلاً إذ توفي سنة (٥٠٩هـ)[3].

فتولى من بعده ابنه علي بن يحيى، ولكن ملكه أيضًا لم يدم طويلاً إذ توفي سنة (٥١٥هـ)[4].

فتولى ابنه الحسن، وهو صغير لم يبلغ الحلم، وفي عهده هاجم رجار النصراني حاكم صقلية المهدية وحاصرها، ولكنه فشل في الاستيلاء عليها، فرجع عنها.

ولكنه عاد مرة أخرى ونشب مع الحسن في قتال استطاع النصارى فيها

(١) تاريخ ابن خلدون (٦/ ١٨٨).
(٢) الدولة الصنهاجية (١/ ٢٩٦).
(٣) المرجع السابق (١/ ٣٦٠).
(٤) المرجع السابق (١/ ٣٧٢).

أن يدخلوا المهدية، ويستولوا عليها، وذلك سنة (٥٤٣هـ) بعد وفاة المازري بسبع سنوات[١].

ودخلت بعد ذلك المهدية وغالب مدن إفريقية تحت الحكم النصراني حتى جاء عبدالمؤمن بن علي زعيم الموحدين واسترجعها من النصارى، وسيطر عليها، ودخلت إفريقية تحت حكم الدولة الموحدية.

هذه مجمل الأحداث السياسية في عهد المازري في إفريقية، وهي ـ ولا شك ـ مرحلة حرجة مليئة بالفتن والاضطرابات وعدم الاستقرار السياسي مما سيكون له الأثر الواضح على حياة المازري الشخصية والعلمية ولا شك.

المطلب الثاني : الحالة العلمية :

لقد عاش المازري في النصف الأخير من القرن الخامس، والثلث الأول من السادس.

وقد رأينا في الحالة السياسية الأحداث المعاصرة لحياته من حروب واضطرابات تعرضت لها بلاده من الأعراب والنصارى، مما يترتب عليه تأثير على الحياة العلمية في تلك البلاد. إضافة إلى أن حياته كانت تحت ظل دولة ترضخ للحكم الفاطمي الشيعي وما يضمره من عداء للسنة والقائمين بها والمنافحين عنها، ولذا أثرت هذه الظروف على الحياة العلمية.

فالغموض الذي صاحب حياة المازري خصوصًا في نشأته الأولى، فلم يُعرف من شيوخه سوى أربعة ـ بعد البحث والتحري ـ رغم كثرتهم، وهو العلم البارز ـ أثر من آثار هذا التأثير.

فغالب تأثير الحياة السياسية في عصره على الحياة العلمية ينصب في

(١) انظر: تاريخ ابن خلدون (١٨٣/٦)، والدولة الصنهاجية (٤٤٨/١)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٣٣٣/٧، ٤١٤، ٤٨٥، ٨/ ٩، ٨٦، ٢٦٥، ٢٩٥، ٣٥٤، ٣٧٦، ٤٢٦، ٩/ ١١٩، ١٦٠، ٢٠٧، ٢٢٢، ٣٥٠). وانظر: مقدمة تحقيق المعلم لمحمد النيفر (٨/١).

ضياع ذلك التراث العلمي الضخم للعلماء في ذلك العصر، وقلة المعلومات عنهم، والمازري ـ وهو العلم البارز ـ مثال لذلك بغموض حياته وضياع معظم مؤلفاته.

ولكن رغم هذه الظروف الصعبة، والحملة الشيعية الظالمة إلاَّ أن العلماء لم يتخلَّو عن واجبهم ولم يغفلوا عمَّا أُنيط بهم من نصرة الدين، ونصيحة الأمة، والقيام بواجب العلم، بل كلما ازدادت المحنة عظمت المهمة، فلم تقتصر على التدريس فقط في حلق العلم ومجالس الذكر، وهو ما حدث من علماء إفريقية في هذا العصر، إذ قاوموا الدعوة الفاطمية الشيعية، رغم دخولهم راغمين تحت سلطانها.

قال الشيخ محمد الشاذلي النيفر: ويرجع تستر الفاطميين إلى شدة شكيمة الأفارقة، فإنهم لم يقبلوا بالسنة بدلاً، كلفهم ذلك ما كلفهم، ومع أنهم لاقوا شدة وبلاءً كبيرًا من الفاطميين لم تلن لهم قناة ولا رجعوا عن السنة»[١].

فهم يقومون بواجبهم من نشرٍ للعلم الصحيح، وإحياءٍ للسنة، والأخذ بعامة الأمة إلى ما فيه صلاحهم وإصلاحهم، ولو قدموا حياتهم ثمنًا لذلك.

قال الشيخ النيفر: فمن المقاومة في ابتدائها حين تأسيس الدعوة ما قام به ابن خيرون[٢] فإنه عُذِّب من أجل أنه سُعى به لدى عبيدالله المهدي[٣] فقُتل رفسًا بأرجل السودان.

ولم يترك فقهاء القيروان أرضهم بل صمدوا عاملين للسنة بكل ما أوتوا من قوة، وقد صرح بصبر أهل القيروان وثباتهم ووقوفهم في وجه

---

(١) مقدمة المعلم (١/ ٩).

(٢) محمد بن محمد بن خيرون، مقرىء مؤرخ، نسَّابة، ولد في الأندلس، ثم رحل إلى إفريقية، من آثاره: كتاب «الأداء»، «الألفات واللامات في رسم المصحف»، توفي سنة (٣٠١هـ). معجم المؤلفين (٣/ ٦٤١)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢١٧).

(٣) عبيدالله بن محمد الفاطمي العلوي، المعروف بالمهدي، مؤسس دولة الفاطميين الشيعية بالمغرب، اختط «المهدية» وجعلها عاصمة لملكه، توفي سنة (٣٢٢هـ). البداية والنهاية لابن كثير (١١/ ١٩١)، الأعلام لخير الدين الزركلي (٤/ ١٩٦).

الدعوة ابن ناجي[(١)] في كتابه «معالم الإيمان»[(٢)]: وجزى الله مشيخة القيروان: هذا يموت، وهذا يضرب، وهذا يسجن، وهم صابرون، لا يفرون، ولو فروا لكفرت العامة دفعة واحدة[(٣)].

فالأحوال السياسية في إفريقية فرضت على العلماء في ذلك الوقت طريقة خاصة في نشر العلم وتبليغه، وهو مقاومة الواقع المفروض من تأثير المذهب الشيعي الذي تدعمه الحكومة، وكذلك مواجهة الأطماع النصرانية التي سيطرت على البلاد القريبة من إفريقية، بل سيطرت أحيانًا على المهدية نفسها.

ولكن لم تكن هذه الظروف لتقضي على العلم، أو تطمس رسمه، قال فرحات الدشراوي: لقد كان المازري في تلك الفترة التي طالت فيها محنة الدولة الصنهاجية مثلاً ساطعًا عن اتصال السند العلمي بإفريقية منذ القرن الأول، بالرغم مما كان ينتاب البلاد من نوائب الفتنة، وشرور الاضطراب السياسي، فلقد استقر فيها الإسلام وترعرعت بربوعها علومه، ونمت به الآداب والمعارف، جيلاً بعد جيل، منذ دخولها في الملة الإسلامية والثقافة العربية، ولم تكن تلك التقلبات السياسية التي ألفتها البلاد قاطعة لأسباب النمو الفكري، والنهضة العلمية، بل إن إفريقية ظلت دارًا خصبة للعلوم الإسلامية، والآداب والمعارف... فقد عاش المازري وهو صقلي الأصل في عهد كاد يتقلص فيه سلطان الإسلام من بلادنا بخطر النصارى الزاحفين من جهة جنوب إيطاليا وصقلية... فكأن المازري ظل طيلة حياته ـ وقد أبى الالتجاء إلى المشرق، وآثر البقاء في بلده والصمود أمام المحنة ـ برهانًا عن صبر إفريقية على المآسي، وعما يكون بالعلوم

---

(١) أبوالفضل قاسم بن عيسى بن ناجي، فقيه، حافظ من القيروان، تولى القضاء في عدة بلدان، له عدة مؤلفات، منها: «شرح المدونة» و«الشافي في الفقه» توفي سنة (٨٣٧هـ). الأعلام (٥/ ١٧٩)، معجم المؤلفين (٢/ ٦٤٦).

(٢) كتاب معالم الإيمان لعبدالرحمن بن محمد الدباغ، المحدث، المؤرخ، المتوفى سنة (٦٨٩هـ)، وكتاب ابن ناجي المذكور هنا هو: «زيادات على معالم الإيمان». معجم المؤلفين (٢/ ١١٧).

(٣) مقدمة المعلم (١/ ١١).

والمعارف من العزاء من شرور السياسة واضطراب الدول[١].

والمهدية وهي بلد المازري، كانت بلد علم وعلماء ساعدها على ذلك موقعها على طريق المارين من المغرب إلى المشرق، والعكس، لذا أصبحت فيها حركة علمية متميزة.

قال محمد الهادي العامري: «انتصب أبوعبدالله محمد المازري للتدريس بالمهدية، فأقبل على مدرسته ما لا يحصى ولا يعد، من الرحالة المستهامين بطلب العرفان، أكان ذلك من الأندلس أو المغرب، أو المشرق الإسلامي، فكان ذلك الملتقى العجيب يجمع بين رجال الفكر والعلم من كل صوب وحدب... وكانت المهدية في تلكم العهود تضج برجال العلم وتزخر بكبار الأدباء وتزدحم بالوافدين عليها»[٢].

وبرز في عصر المازري علماء أعلام سواء بالمغرب أو المشرق، حفلت كتب التراجم بسيرهم، من أشهرهم:

- ابن حزم[٣]: المتوفى سنة (٤٥٦هـ).
- والبيهقي[٤] المتوفي سنة (٤٥٨هـ).
- وابن عبدالبر[٥]: المتوفى سنة (٤٦٣هـ).

---

(١) الصراع العقائدي في الفلسفة الإسلامية، محنة الحضارة الإسلامية في الدولة الصنهاجية، فرحات الدشراوي، دراسات ملتقى الإمام المازري في الفلسفة الإسلامية، المنستير، تونس، ١٩٧٥م، ص(٢٧).

(٢) المرجع السابق، بحث الإمام المازري، حياته وعلمه، محمد الهادي العامري، ص(١١٢).

(٣) الإمام الشهير أحمد بن محمد بن حزم، الأندلسي بلدًا، الظاهري مذهبًا. له الفصل في الملل والنحل، المحلى بالآثار، وغيرهما، توفي سنة (٤٥٦هـ). سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٤)، طبقات الحفاظ للسيوطي ص(٤٥٥) ترجمة (٩٨٣).

(٤) أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الحافظ الفقيه الشافعي، صاحب المصنفات الكثيرة، منها: «السنن الكبرى»، و«شعب الإيمان»، و«دلائل النبوة» وغيرها، توفي سنة (٤٥٨هـ). سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٦٣)، طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح (١/ ٣٣٢).

(٥) أبوعمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر الأندلسي القرطبي المالكي، المحدث الحافظ المؤرخ، تولى قضاء بعض بلدان الأندلس، وصنف مصنفات كثيرة، منها: =

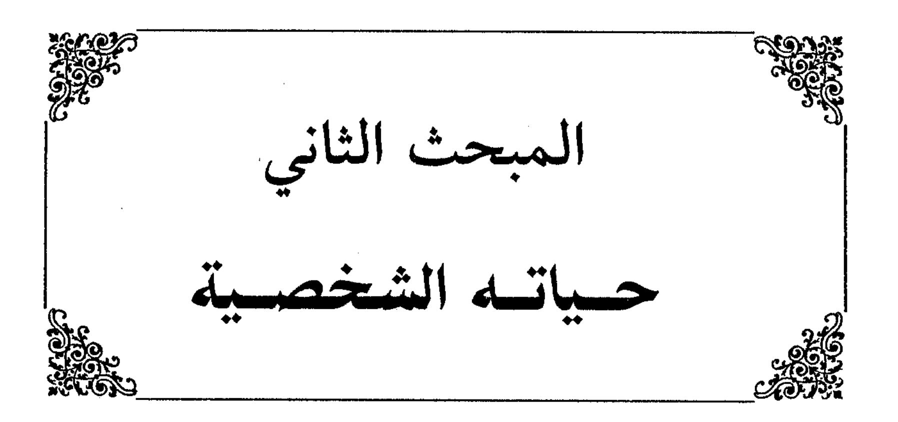
ـ والواحدي المفسر[1]: المتوفي سنة (٤٦٨هـ).
ـ والجويني[2]: المتوفى سنة (٤٧٨هـ).
ـ والبغوي[3]: المتوفي سنة (٥١٦هـ)... وغيرهم.

= «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، وله «الاستذكار»، و«التمهيد» حول موطأ الإمام مالك رحمه الله، و«بيان العلم وفضله» توفي في شاطبة سنة (٤٦٣هـ). سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٥٣)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكي ص(٦٢٦).

(١) علي بن أحمد بن محمد الواحدي، النيسابوري، المفسر، توفي في نيسابور سنة (٣٦٨هـ). طبقات المفسرين لمحمد الداوودي (١/ ٣٩٤)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٩).

(٢) أبوالمعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني، الشافعي، الأشعري، المشهور بإمام الحرمين الأصولي، المتكلم، له: «البرهان» في أصول الفقه»، و«الإرشاد» في أصول الدين، توفي سنة (٤٧٨هـ). طبقات الشافعية لأحمد بن قاضي شهبة (١/ ٢٥٥)، البداية والنهاية (١٢/ ١٣٦).

(٣) الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، البغوي، الشافعي، المحدث، المفسر، له عدة مصنفات، منها: «معالم التنزيل» و«شرح السنة»، توفي في خراسان سنة (٥١٦٦هـ). سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٣٩)، طبقات الحفاظ ص(٤٧٨) ترجمة (١٠٢٩).



المبحث الثاني
حيـاتـه الشخصـية

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

المطلب الأول: **اسمه ونسبه وولادته**

المطلب الثاني: **نشـأتـه**

المطلب الثالث: **وفـاتـه**

تمهيد

إن علمية المازري وشهرته الواسعة لم تشفع لنا في الحصول على ترجمة وافية له، خصوصًا في جانب حياته الشخصية، ذلك أن غالب التراجم التي تحدثت عنه تهتم بالجانب العلمي، وكذلك الدراسات أو الكتابات التي اهتمت بحياته ركزت على حياته العلمية، أي: بعد بروزه وظهوره وشهرته فحفظت لنا تلاميذه ومؤلفاته، وتحدثت عن علمه واجتهاده وما يتعلق بهذه الجوانب. وأمَّا حياته الشخصية من ولادته ونشأته وبداية طلبه للعلم، وشيوخه، فالمعلومات لا تكاد تفي بالغرض في هذا الجانب.

ويكفي أن نعلم أنه لم يذكر أحد ممن ترجم له تاريخ ولادته.

واختلفوا كثيرًا في مكان ولادته ونشأته الأولى، ولم يَذكر غالب من ترتجم له من شيوخه إلاَّ اللخمي وابن الصائغ.

ولعل هذا يعود إلى أسباب، منها:

١ـ أنه لم ترجم له أحد من تلاميذه الملازمين أو ممن عرفه وعاصره، وأقرب من ترجم له القاضي عياض[(١)]، وهو لم يلتق به، ولم يره، وإنما تتلمذ عليه بالإجازة.

٢ـ الأحداث السياسية المضطربة في عصره، خصوصًا في بلده وما جاوره، فالنصارى قد استولوا على صقلية بلاد المازري الأصلية سنة (٤٦٤هـ) وما تبع ذلك من طمعهم في بقية البلاد المجاورة.

وهذا ما حصل إذا احتلوا المهدية عاصمة الدولة الصنهاجية بعد القيروان سنة (٤٨٠هـ)، وخرجوا بعد أن بذل لهم تميم بن المعز أموالاً طائلة، إضافة إلى هجمة الأعراب على بلاد إفريقية واحتلالهم للقيروان سنة

---

(١) عياض بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي المالكي، المحدث، الحافظ، له العديد من المؤلفات، منها: «إكمال المعلم بفوائد مسلم»، و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى» توفي سنة (٥٤٤هـ). الديباج المذهب ص(٢٧٣)، طبقات الحفاظ ترجمة (١٠٥٠) ص(٤٩٢).

(٤٤٩هـ)، مما تسبب في هجرة كثير من العلماء وتفرقهم في البلاد، إذ هذا الخوف والحياة المضطربة لا تساعد على تدوين تراجم لهؤلاء العلماء في ذلك البلد، وما دون من ذلك فهو عرضة للضياع والتلف في هذه الاضطرابات، إضافة إلى تفرق العلماء أو هجرتهم، أو اختفائهم مما أدى إلى غموض حياتهم.

قال الدكتور الحسين شواط عن ذلك الزمن وأثره في شح مصادر ترجمة المازري: «فاتصلت الحروب، وعمَّت الفوضى، وتجرأ العدو على بلاد إفريقية بعد أن افتكَّ صقلية، ووصل الأمر إلى استيلائه على المهدية نفسها عاصمة البلاد، بعد خراب القيروان، وضعفت الحياة العلمية، وتفرَّق أكثر العلماء في الأمصار، ولم تتهيأ أسباب التدوين لتواريخ من بقي بها من أهل العلم، ويسهل على الناظر في كتب طبقات الأفارقة مثل «شجرة النور الزكية» و«معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» أن يلاحظ قلة العلماء في طبقة المازري، وفي الطبقة التي قبله والطبقة التي بعده، ولم تعد الحياة العلمية لتلك الربوع إلاَّ بعد سنة ٥٥٥هـ»[(١)].

المطلب الأول: اسمه ونسبه وولادته:

هو الإمام العلم العلاَّمة أبوعبدالله محمد بن علي بن عمر[(٢)] المازري[(٣)] المالكي.

---

(١) منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض في إكمال المعلم بفوائد مسلم، للدكتور حسين محمد شواط ص(١٠٤).

(٢) اتفقت المصادر على أن جده عمر إلا ما كان من الحميري حيث قال: محمد بن علي بن إبراهيم التميمي المازري، صاحب «المعلم بفوائد مسلم». الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد عبدالمنعم الحميري ص(٥٢١).

(٣) نسبة لمازر بفتح الزاي. معجم البلدان، ياقوت الحموي (٥/ ٤٠).
وهي مدينة في جزيرة صقلية، وصفها الحميري فقال: مدينة بجزيرة صقلية... مدينة مشهورة على الساحل الموازي لإفريقية... وهي مدينة شامخة فاضلة، لا مثال لها في شرف المحل، إليها الانتهاء في جمال الهيئة والبناء، وما اجتمع فيها من المحاسن لم يجتمع في غيرها، وأسوارها حصينة شاهقة، وديارها حسنة، وبها أزقة واسعة، وشوارع وأسواق عامرة بالتجارات... وبساتين وجنات طيبة، يُسافَر إليها من جميع الآفاق... ومن مفاخرها أن منها الفقيه الإمام أباعبدالله محمد بن علي بن إبراهيم =

لم ينص أحدٌ على تاريخ ولادته، لكن اتفقوا على أنه تُوفي سنة (٥٣٦هـ) وحدَّد أكثرهم عمره حين وفاته بثلاث وثمانين سنة، فتكون ولادته بناءً على ذلك سنة (٤٥٣هـ).

وقد ذكر الأستاذ حسن حسني عبدالوهاب[١] أن ولادته سنة (٤٤٣هـ)[٢].

وقد ردَّ ذلك الشيخ النيفر فقال: «ولم أظفر إلى اليوم بمستند يدعم ما جاء به، إذ لم يذكر أحد أنه عاش نيفًا وتسعين سنة حتى إن ما خالف فيه ابن قنفذ[٣] غيره من أنه قارب التسعين ـ أي توفي في حدود سبع أو ثمان وثمانين ـ لا يوافق ما ذكره الأستاذ عبدالوهاب، فالمصادر كلها مطبقة على أنه لم يبلغ التسعين، فضلاً عن تجاوزها، ولهذا لا يصح أنه ولد سنة ٤٤٣هـ»[٤].

وأمَّا مكان ولادته فهو موضع اختلاف بين المترجمين، فذهب البعض إلى أنه ولد في مازر؛ لأنه نسب إليها، ومن ترجموا له قالوا: أصله من مازر[٥]، أو: الساكن بالمهدية[٦]، أو مستوطن المهدية[٧]. مما يدل على

= التميمي المازري. . . نزيل المهدية. الروض المعطار ص(٢٥).
وقد نُسب إليها عدد من العلماء، منهم: صاحب الترجمة، ومحمد بن مسلم المازري، ومحمد بن أبي الفرج المازري المعروف بالذكي الصقلي. انظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف ص(١٢٥).

(١) حسن حسني بن صالح بن عبدالوهاب الصمادحي، بحاثة مؤرخ، أديب، معاصر، ولد في تونس، وبها نشأ، تعلم فيها، وفي باريس، تولى مناصب في تونس كبيرة، منها عاملاً على المهدية وغيرها، ووزيرًا للدولة وعضواً في العديد من المجامع، له عدة مؤلفات، منها: «خلاصة تاريخ تونس»، و«مجمل تاريخ الأدب التونسي»، أكب على المطالعة والبحث آخر عمره حتى توفي سنة (١٣٨٨هـ). الأعلام (٢/ ١٨٧).

(٢) مجلة لواء الإسلام، العدد الثامن، ربيع الثاني (١٣٦٨هـ) ص(٢٣).

(٣) أحمد بن حسن بن علي بن قنفذ القسطنيني، له كتاب «الوفيات» من سنة (١١هـ حتى ٨٠٧هـ) توفي سنة (٨١٠هـ). معجم المؤلفين (١/ ١٢٠).

(٤) مقدمة المعلم (١/ ٢٣).

(٥) الديباج المذهب ص(٣٧٤).

(٦) فهرس ابن عطية ص(١٣٢).

(٧) الغنية فهرس شيوخ القاضي عياض ص(١٣٢).

أنه انتقل إليها ولم يكن من أهلها، وهو مفهوم كلام ابن فرحون[١]، وإليه مال النيفر حيث قال: «ولا يمكن أن يكون من مواليد المهدية لما ذكر عن ابن فرحون وعياض وغيرهما، ثم إنه ليس هناك ما يدل على أنه من مواليد إفريقية، بل الذي يدل عليه كلام ابن فرحون وعياض وغيرهما أنه من مواليد مازر، حيث قال: أصله من مازر، ولو كان أبوه هو المهاجر لقال: أصل أبيه من مازر، وكذلك لم يقل القاضي عياض واستوطن أبوه المهدية، وهو أعرف الناس به للمعاصرة»[٢].

وذهب آخرون إلى أنه وُلد في إفريقية في المهدية أو غيرها، منهم: الذهبي[٣] في سير أعلام النبلاء[٤]، فتكون نسبته لمازر لأن والده نزح منها، فهي بلاد آبائه وأجداده، وهذا الذي رجَّحه حسن حسني حيث قال: «ولا نعلم شيئًا عن ولادة هذا العَلَم الفرد هل كانت بصقلية أو بالقطر الإفريقية، ولم ينص على ذلك أحدٌ من المؤرخين، ولا من مؤلفي التراجم، وأصحاب الطبقات، وبعد البحث الطويل غلب على ظننا أنه ولد بإفريقية سواء أكان ذلك بالمهدية أو بالقيروان، أو بغيرهما من مدن الساحل التونسي. . . ومما يؤيد ولادة المازري بالجهة الساحلية هو مداولته التعليم صغيرًا بها، ولم يرو التاريخ أنه أخذ عن شيوخ بلاد نسبته مع توفرهم حينئذ هناك»[٥].

---

(١) إبراهيم بن نور الدين أبوالحسن علي بن محمد بن فرحون المدني المالكي، تولى قضاء المدينة، رحل إلى مصر والشام، له عدة مؤلفات، توفي بالمدينة سنة (٧٩٩هـ). شذرات الذهب (٦٠٨/٨)، الدرر الكامنة (٤٨/١). ومرجع كلامه في الديباج المذهب ص(٣٧٤).

(٢) مقدمة المعلم (١/ ٢٤).

(٣) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقي الذهبي، الحافظ، المحدث، إمام المؤرخين، صاحب المصنفات الكثيرة المفيدة، منها: «سير أعلام النبلاء»، «تذكرة الحفاظ»، «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»، وغيرها، توفي بدمشق سنة (٧٤٨هـ). طبقات الحفاظ ص(٥٤٧) ترجمة (١١٤٦)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (٣/ ٣٣٦)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٠٥).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٠٥).

(٥) مجلة لواء الإسلام، مرجع سابق.

المطلب الثاني : نشـأتـه :

واكتنف الغموض نشأته كما اكتنف ولادته إذ النشأة مرتبطة بمكان الولادة فذهب البعض إلى أنه نشأ في مازر حيث ولد فيها وترعرع وخرج منها على غلبة الظن حين سقوطها في أيدي النصارى سنة (٤٦٤هـ) حيث خرج منها غالب أهلها.

والذين رجحوا ولادته في المهدية جعلوا نشأته فيها على أن ما وصلنا من معلومات مدونة لا تذكر مازر بشيء بل ما ذكر إلاَّ حياته في المهدية وطلبه للعلم فيها ونبوغه وتصديه للتدريس حتى أصبح علمًا من أعلام إفريقية، وأمَّا أسرته فلم تذكر التراجم شيئًا عن ذلك إلاَّ ما ذكره صاحب شجرة النور من أنه له حفيد وهو عبدالله بن عبدالحق المهدوي الأنصاري الذي تولى القضاء بأشبيلية ثم مراكش وبها توفي سنة (٥٨٩هـ). وكذلك ابنه عبدالحق بن عبدالله بن عبدالحق الذي تولى قضاء غرناطة، ثم إشبيلية، ثم مراكش، وبه توفى أيضًا سنة (٦٣١هـ)[١].

المطلب الثالث : وفـاتـه:

عاش المازري ـ رحمه الله ـ حياة علمية مديدة، جاوزت الثمانين سنة، قضاها في العلم والتعليم، واتفقت المصادر على أنه توفي سنة (٥٣٦هـ) بمدينة المهدية، وحدده بعضهم بيوم السبت الثالث من ربيع الأول من تلك السنة[٢]. وقيل في الثامن عشر من ذلك الشهر[٣].

قال الذهبي: مات في ربيع الأول سنة (٥٣٦هـ) ودفن بالمنستير[٤][٥].

---

(١) شجرة النور ص(١٤٥، ١٦٩).
(٢) الغنية ص(١٣٣).
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/ ٢٨٥).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥).
(٥) وهي مدينة قرب المهدية، يسكنها العباد والزهاد، للعلم والمرابطة. انظر: معجم البلدان (٥/ ٢٠٩).

المبحث الثالث
حيــاته العلمــية

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: طلبه للعلم

المطلب الثاني: شيوخه

المطلب الثالث: جلوسه للتدريس

المطلب الرابع: تلاميذه

المطلب الخامس: مؤلفاته

المطلب السادس: مذهبه الفقهي وعقيدته

المطلب السابع: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

المطلب الأول : طلبه للعلم :

بدأ بطلب العلم مبكرًا على أيدي علماء بلده ـ وإن كان التاريخ لم يحتفظ إلاَّ بأسماء القليلين من شيوخه ـ ومما يفيد حرصه على العلم وملازمته للعلماء منذ الصغر ما ذكره هو عن نفسه حيث قال: «ولقد أذكر أني كنت صبيًّا حين راهقت الحلم بين يدي إمامي في الأصول ـ رحمه الله ـ وكان أول يوم من رمضان، وبات الناس بغير عقد نية في الصيام، فقلت: إن هذا اليوم ما نقضيه على مذهب بعض أصحاب مالك في رواية شاذة، فأخذ بأذني أستاذي وقال لي: إن قرأت العلم على هذا، فلا تقرأه، فإنك إن اتبعت بنيات الطريق جاء منك زنديق»[١].

وهذا النص يفيد طلبه للعلم منذ الصغر، واتخاذه الشيوخ في شتى التخصصات إضافة إلى جرأته على المسائل الفقهية مع صغر سنه.

وأما رحلاته العلمية، فهي لا تتعدى محيط إفريقية، فهو لم يسافر بعيدًا عن بلده، بل حتى الحج لم يذكر أنه سافر إليه، وإن كان قد عزم على ذلك غير مرة، لكن خوف الطريق منعه من ذلك.

لكنه رحل إلى صفاقس، وأخذ عن شيخه اللخمي فيها، ورحل إلى سوسه، والرباط، وأخذ عن شيخه ابن الصائغ[٢].

المطلب الثاني : شيـوخـه :

بالرغم من علمية المازري وشهرته إلاَّ أن مصادر الترجمة شحيحة ـ كما سبق بيانه ـ خصوصًا في ذكر شيوخه، مع أننا لا نشك أنه تلقى العلم على عدد كبير من العلماء في سائر العلوم، ولكننا لم نظفر إلاَّ بأسماء القليل منهم، وهم:

١ـ **أبوبكر عبدالله بن محمد القيرواني المالكي**، فقيه، مؤرخ، محدث، له مؤلفات، منها: «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية»

(١) فتاوى المازري، الطاهر المعموري ص(١٢).
(٢) المرجع السابق ص(١٥).

وغيره، توفي في القيروان[١]. ذكره المازري وأثنى عليه حيث قال: «وعن الشيخ أبي بكر المالكي، وقد شهدنا فضله ودينه وجلالة علمه بالأخبار بما يحصل الثقة في أنفسنا بما يحكيه»[٢].

٢ـ أبوالحسن علي بن محمد الربعي اللخمي القيرواني: كان أحد أئمة المالكية المعتبرين، وأحد أعلام المذهب في زمنه، له تعليق على المدونة أسماه «التبصرة»، توفي بصفاقس سنة (٤٧٨هـ)[٣]. ذكره المازري في «شرح التلقين» وكرر ذكره[٤].

٣ـ أبومحمد عبدالحميد بن محمد الهروي: المعروف بابن الصائغ، فقيه، محدث، من القيروان، نزل المهدية، وتصدى للتدريس والإفتاء فيها، توفي سنة (٤٨٦هـ)[٥].

٤ـ أبومحمد القاسم بن محمد الأندلسي: محدث رحل إلى المشرق، وأخذ عن العلماء هناك[٦].

المطلب الثالث : جلوسه للتدريس :

جلس المازري للتدريس وتصدى له في زمن مبكر بعدما تقدم على أقرانه بما آتاه الله من الذهن الوقَّاد، والذَّكاء الحاد، لذا التفَّ حوله عددٌ

---

(١) الأعلام (٤/ ١٢١)، ومعجم المؤلفين (٢/ ٢٨٥). وذكر تاريخ وفاته سنة (٤٥٣هـ)، وهو خطأ ولا شك، إذ هي سنة ولادة تلميذه المازري، وأما صاحب الأعلام فقال: توفي بعد سنة (٤٥٣هـ).

(٢) الإمام المازري، لحسن حسني ص(٧٩).

(٣) شجرة النور (١/ ١١٧)، الأعلام (٤/ ٣٢٨)، معجم المؤلفين (٢/ ٥٠٣) وجعل تاريخ وفاته (٤٩٨هـ).

(٤) تحقيق كتاب شرح التلقين من أوله إلى باب سجود السهو، لزكي محمد بخاري، رسالة دكتوراه، شعبة الفقه، كلية الشريعة، الجامعة الإسلامية، (١٤١٤هـ)، (١/ ٤٠).

(٥) الديباج المذهب ص(٢٦٠)، شجرة النور ص(١١٧).

(٦) الحديث بإفريقية من القرن السادس إلى القرن الثامن، صنو مسكين، رسالة ماجستير، قسم السنة، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (١٤٠٧هـ)، (١/ ١٥٠). والذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لمحمد بن عبدالملك المراكشي، السفر الخامس (٢/ ٥٧١).

كبيرٌ من طلاَّب العلم من بلده، والبلدان المجاورة، فقد عمَّت شهرته الآفاق، وطار صيته في البلدان، مما جعل الطلاب يتوافدون عليه، ويزدحمون على حلقته، وذلك لتميزه في سائر فنون العلم، لذا يجد كل طالب مبتغاه وحاجته، فهو في الفقه علم لا يبارى، إذ هو أبرز أعلام الفقه المالكي في عصره، قال القاضي عياض: «إمام بلاد إفريقية وما وراءها من المغرب، وآخر المستقلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد، ودقة النظر. . . لم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض في وقته أفقه منه ولا أقوم لمذهبهم»[١].

وكما برز في الفقه برز في أُصوله، ولا أدل على ذلك من شرحه للبرهان في أصول الفقه، قال السبكي[٢]: «هذا الرجل ـ يعني المازري ـ من أذكى المغاربة قريحة، وأحدِّهم ذهنًا، حيث اجترأ على شرح البرهان لإمام الحرمين، وهو لغز الأمة الذي لا يحوم نحو حماه، ولا يدندن حول مغزاه إلاَّ غواص على المعاني ثاقب الذهن، مبرز في العلم»[٣]. وقال القاضي عياض: «ودرس أصول الفقه والدين وتقدم في ذلك فجاء سابقًا»[٤].

وكان مقدمًا في اللغة، عارفًا بالآداب والحساب، والطب، قال القاضي عياض: «وإليه يفزع في الفتوى في الطب في بلده، كما يفزع إليه في الفتوى في الفقه»[٥].

وبالجملة فهو علم مقدم في شتى فنون العلم، قال ابن خلكان[٦]:

---

(١) الغنية ص(١٣٢).

(٢) تاج الدين أبونصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي، فقيه، مؤرخ من أعلام الشافعية، توفي بدمشق سنة (٧٧١هـ). الدرر الكامنة (٢/ ٤٢٥)، معجم المؤلفين (٢/ ٣٤٣).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٦/ ٢٤٣).

(٤) الغنية ص(١٣٢).

(٥) المرجع السابق ص(١٣٢).

(٦) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان البرمكي الشافعي، أبوالعباس، فقيه، أديب، مؤرخ، تولى قضاء دمشق، وبها توفي سنة (٦٨١هـ). البداية والنهاية (١٣/ ٣١٨)، معجم المؤلفين (١/ ٢٣٧).

«أحد الأعلام المشار إليهم في حفظ الحديث والكلام عليه»[١].

ولا أدل على ذلك من كثرة مؤلفاته وشمولها لسائر فنون العلم مما يدل دلالة أكيدة على بروز هذا الإمام في شتى العلوم. ولذا فلا غرابة أن يلتف حوله العدد الكبير من طلبة العلم ويحرصوا على لقائه والاجتماع به والأخذ عنه.

قال الأستاذ حسن حسني: «وتصدر للتدريس بجامعها ـ أي المهدية ـ جامع عبدالله بن المهدي، وبث ما وسعه صدره من العلم الغزير والمادة الواسعة فنشر العلوم الدينية والفنون على اختلاف أجناسها ومراميها، ومن ذلك الحين ذاع صيته، وطبقت شهرته المشرق والمغرب، فكانت حلقة دروسه تشمل المبتدئين من التلاميذ المجتهدين سواء كانوا إفريقيين أو وافدين من أقطار المغرب والأندلس، وصار كعبة أنظار الطلاب يقصده الداني والقاصي[٢].

قال الدكتور حسين شواط: «لقد بلغ المازري درجة الاجتهاد، ووصف بالإمامة في الفقه، والبروز في علوم الحديث، وأصول الفقه وأصول الدين ولم يكن في عصره من يماثله في ذلك في مختلف بلاد المغرب فأقبل عليه طلبة العلم من آفاق تلك الديار للإفادة من علمه وهو يعد بحق حامل لواء العلم بإفريقية في ذلك العصر وقد ساعد على تقوية أثره العلمي أمور منها:

١ـ ضعف الحياة العلمية، وقلة العلماء بسبب الظروف التي عاشتها إفريقية آنذاك مما جعل تلاميذه يكثرون وينشرون مروياتهم عنه ومؤلفاته في مختلف البلدان المغرب.

٢ـ بذله وقته لنشر العلم والجلوس للطلبة أكثر أوقات يومه وعزوفه عن الاتصال بالسلطان ورفضه تولي منصب القضاء والإفتاء.

٣ـ استقراره في مدينة المهدية، وهي ممر الحجيج والتجار من مختلف بلاد

(١) وفيات الأعيان (٤/ ٢٨٥).

(٢) مجلة لواء الإسلام، مرجع سابق ص(٢٤).

المغرب والأندلس في ذهابهم وعودتهم، فكثر بذلك الآخذون عنه.

٤ـ اهتمامه بطلبة العلم وبرهم والإحسان إليهم وبخاصة المهاجرين الفارين من صقلية.

٥ـ أنس مجلسه وملاحته بالإضافة إلى ما فيه من الفوائد العلمية[١].

٦ـ كثرة مؤلفاته وتنوعها بحيث يجد فيها كل طالب مبتغاه[٢].

المطلب الرابع: تلاميذه:

١ـ أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن تومرت مؤسس دولة الموحدين بالمغرب سمع بالأندلس والمغرب لقي المازري وأخذ عنه توفي سنة (٥٢٤هـ)[٣].

٢ـ أبوالعباس أحمد بن طاهر بن عيسى الأنصاري الداني الشارقي: رحل كثيرًا في طلب العلم، له تأليف في علوم الحديث، توفي سنة (٥٣٢هـ)[٤].

٣ـ أبوالحسن محمد بن عبدالرحمن العبدي المعروف بابن عظيمة: مقرىء، محدث، مؤرخ، له تأليف في علم القراءات، توفي سنة (٥٤٣هـ)[٥].

٤ـ أبوبكر محمد بن عبدالله الأشبيلي، المشهور بابن العربي، من أعلام القرن السادس، رحل إلى المشرق لطلب العلم، التقى بالمازري في المهدية، وأخذ عنه، ثم عاد إلى الأندلس، وتوفي بها سنة (٥٤٣هـ)، له عدة مؤلفات منها «العواصم من القواصم» و«عارضة الأحوذي شرح سنن

---

(١) قال النيفر: أخذ المازري في دروسه بالطريقة النبوية بالاستجمام حيث يأتي بحكايات قصد الترفيه على طلبته حتى لا يكلوا من تتابع المسائل مما يؤدي بهم إلى الملل وقد ذكر له طريقة دروسه المتخللة الاستجمام من ترجم له. واعتنى أحد طلبته وهو الحسن طاهر بن علي فجمعها. مقدمة المعلم للنيفر (١/٥٧). وانظر: مجلة لواء الإسلام، مرجع السابق ص(٢٥).

(٢) منهجية فقه الحديث ص(١٠٧).

(٣) شجرة النور ص(١٤٠)، الأعلام (٦/٢٢٨).

(٤) الديباج المذهب ص(١١٢)، معجم المؤلفين (١/١٥٩).

(٥) الأعلام (٦/١٩١)، معرفة القراء الكبار للذهبي (١/٥٠٤).

الترمذي» وغيرها[١].

٥ـ **أبوعبدالرحمن مساعد بن أحمد الأصبحي ابن زعوقة**، أخذ عن علماء الأندلس، ورحل إلى مكة، وأخذ عن علمائها، توفي سنة (٥٤٥هـ)[٢].

٦ـ **أبوالحسن محمد بن خلف بن صاعد الغساني**: مقرىء، محدث، فقيه، سمع بالأندلس وإفريقية والمشرق، ولقي المازري، وأجازه بكل تآليفه، تولى قضاء أشبيلية، توفي سنة (٥٤٧هـ)[٣].

٧ـ **أبوعبدالله محمد بن عيسى الشلبي**، وقيل: أبومحمد عبدالله بن عيسى[٤]، من رجال الحديث وحفَّاظه، رحل إلى المشرق، لازم المازري قرابة الثلاث سنوات، توفي سنة (٥٥١هـ)[٥].

٨ـ **أبوالحسن علي بن محمد بن الضحاك الفزاري**، وقيل: ابن المقري، من أهل غرناطة. له عدة مؤلفات، منها: «مدارك الحقائق» و«السباعيات» وغيرها، توفي سنة (٥٥٧هـ)[٦].

٩ـ **أبوعبدالله محمد بن يوسف بن سعادة**: أخذ عن عدد كبير من علماء المغرب والمشرق، سمع من المازري بعض المعلم، وأجازه بباقيه، تولى قضاء شاطبة وغيرها، له مؤلفات، منها: «شجرة الوهم المرقية إلى ذروة الفهم» وغيرها، توفي سنة (٥٦٥هـ)[٧].

١٠ـ **أبومروان عبيدالله**، وقيل: عبدالله[٨]، وقيل: عبدالملك[٩] بن

---

(١) شجرة النور ص(١٣٦)، الديباج المذهب ص (٣٧٦)، ومجلة لواء الإسلام، مرجع سابق ص(٢٤).

(٢) شجرة النور ص(١٤١)، وبغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس لأحمد الضبي ص(٤١٥).

(٣) شجرة النور (١٤٢)، التكملة لكتاب الصلة لمحمد بن عبدالله بن الآبار (٢/ ٤٧٧).

(٤) منهجية فقه الحديث ص(١٠٨)، وفتاوى المازري ص(٥٣).

(٥) شجرة النور ص(١٤٣)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للتلمساني (٢/ ٦٥٠).

(٦) شجرة النور ص(١٤٥)، الديباج المذهب (٣٠٣).

(٧) شجرة النور ص(١٤٩)، الأعلام (٧/ ١٤٩).

(٨) فتاوى المازري ص(٥٢).

(٩) شجرة النور ص(١٥٢).

عبدالله بن عبدالرحمن المعافري، من أهل بلنسية، أخذ العلم في الأندلس، ورحل في طلب العلم، ولقي المازري بالمهدية، وأخذ عنه، من أثرياء بلده، وله مكتبة جامعة، توفي سنة (٥٧٤هـ)[١].

١١ـ **أبوالحسن صالح بن خلف بن عامر الأنصاري الأوسي**: إمامًا عالمًا مقدمًا في علم الكلام، أخذ المعلم عن المازري سماعًا لبعضه وإجازة لباقيه توفى سنة (٥٨١هـ)[٢].

١٢ـ **أبوحفص عمر بن عبدالمجيد الميانشي القرشي**: نزل مكة ودرس بها وخطب، له مؤلفات، منها: «المجالس المكية» و«ما لا يسع المحدث جهله» توفي سنة (٥٨١هـ) وقيل: سنة (٥٨٣هـ)[٣].

١٣ـ **أبويحيى زكريا بن عبدالرحمن المهدوي الغساني**، المعروف بابن الحداد، من أكبر تلاميذ المازري، وهو الذي خلفه في التدريس والإفتاء بالمهدية، اختلف في تاريخ وفاته، ويرى النيفر أنه بعد سنة (٥٨٠هـ)[٤].

١٤ـ **أبوالحسن طاهر بن علي السوسي**: تولى القضاء بسوسة، ثم انتقل منها إلى المهدية، ولازم المازري، ثم رحل إلى الأندلس وتوفي بها[٥].

١٥ـ**أبوالقاسم محمد بن خلف الله بن مشكان**[٦]، وقيل مجكان[٧]، تولى قضاء قابس وهو من آخر من أخذ عنه[٨].

١٦ـ **أبوالطاهر بن الدمنة التونسي**[٩].

١٧ـ **أبويحيى بن الجواد المهدوي**[١٠].

---

(١) التكملة (٢/ ٩٣٥)، مقدمة المعلم (١/ ٤٠).
(٢) شجرة النور ص(١٥٧)، الذيل والتكملة السفر الرابع (١/ ١٣٢)، وقال: توفي سنة ٥٨٦هـ.
(٣) معجم المؤلفين (٢/ ٥٦٥)، العبر في خبر من غبر للذهبي (٣/ ٨٣).
(٤) شجرة النور ص(١٤٤)، مقدمة المعلم (١/ ٣٩).
(٥) شجرة النور ص(١٤٤)، التكملة (١/ ٣٤٢).
(٦) فتاوى المازري ص(٤٥).
(٧) مقدمة المعلم (١/ ٣١).
(٨) التكملة (٢/ ٦٤٧)، الذيل والتكملة (٦/ ٢٨٩).
(٩) شجرة النور ص(١٢٧)، التكملة (٢/ ٦٢٩).
(١٠) الذيل والتكملة (٦/ ٢٨٩)، مقدمة المعلم (١/ ٣٠).

١٨ـ **أبوالحسن الأوجقي**[(١)].

تلاميذه بالإجازة:

نظرًا لشهرة الإمام المازري، وبروزه في سائر الفنون، رغب طلاَّب العلم في عموم بلاد المغرب والأندلس الالتقاء به، والأخذ عنه، لكن بعضهم لم تتهيأ له الظروف للانتقال إليه فحرصوا على التتلمذ عليه، ولو عن طريق الإجازة، وساعدهم على ذلك حرص المازري على انتشار مؤلفاته، وإشاعة مروياته، فأجاز عددًا من طلاب العلم بجميع مؤلفاته، أو ببعضها، ومن هؤلاء:

١ـ **أبومحمد عبدالحق بن أبي بكر غالب بن عطية المحاربي**: محدث، فقيه، مفسر، من أعلام الأندلس، له عدة مصنفات، منها: تفسيره «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» وغيره، توفي سنة (٥٤١هـ) وقيل (٥٤٢هـ)[(٢)]. وقد كتب إليه المازري يجيزه بكتاب «المُعْلم» وبسائر مؤلفاته[(٣)].

٢ـ **أبوالفضل عياض بن موسى اليحصبي**، الشهير بالقاضي عياض: محدث، فقيه، أصولي، مؤرخ، بارز في سائر العلوم، له العديد من المؤلفات، منها: «إكمال المُعْلم بفوائد مسلم»، و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى» وغيرها. كتب إليه المازري مجيزًا بكتاب «المعلم» وسائر مؤلفاته، فكان أثر ذلك أن أكمل القاضي عياض كتاب «المعلم» بكتابه المذكور سابقًا. توفي سنة (٥٤٤هـ)[(٤)].

٣ـ **محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الحفيد**: الإمام الفقيه، برز في فنون عديدة، خصوصًا بالفقه وأصوله، والفلسفة والطب، فهو إمام في هذه العلوم، مشارك في غيرها، له العديد من المؤلفات، منها: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» و«الكليات» في الطب وغيرها، استجاز المازري في

---

(١) شجرة النور ص(١٢٧).

(٢) شجرة النور ص(١٢٩)، طبقات المفسرين للداوودي (١/ ٢٦٥).

(٣) فهرس ابن عطية ص (١٣٩).

(٤) أزهار الرياض في أخبار عياض لأحمد المقري (٣/ ١٦٥)، الديباج المذهب ص(٢٧٠).

مؤلفاته وهو صغير السن، إذ له من العمر عند وفاة المازري ست عشرة سنة حيث ولد سنة (٥٢٠هـ) وتوفي سنة (٥٩٥هـ)[١].

المطلب الخامس : مؤلفاتـه :

لقد تنوعت مؤلفات المازري وتميَّزت بالجودة والأصالة، والابتكار، وشملت غالب فنون العلم، وأذكرها هنا مرتبة على حروف المعجم حسب أسمائها:

١ـ إملاء على رسائل إخوان الصفا:

قال الأستاذ حسن حسني: «حررها في إيضاح بعض مشكلات وردت ضمن فصول تلك الرسائل الهامة في مسائل من العلوم الرياضية والآراء الفلسفية، وكان إملاؤه لها بطلب من أمير عصره الأمير العالم الأديب تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي صاحب إفريقية، وللأسف الكبير أن هذا التعليق أو الانتقاد على رسائل إخوان الصفا لم يبلغ إلينا فيما نعلم، ولم نقف منه إلاَّ على ذكر من بين مؤلفات المازري»[٢].

٢ـ إيضاح المحصول من برهان الأصول:

وهو شرح لكتاب «البرهان في أصول الفقه» للجويني. قال السبكي: «إن هذا الرجل ـ يعني المازري ـ كان من أذكى المغاربة قريحة، وأحدِّهم ذهنًا، بحيث اجترأ على شرح «البرهان» لإمام الحرمين، وهو لغز الأمة الذي لا يحوم نحو حماه ولا يدندن حول مغزاه إلاَّ غواص على المعاني، ثاقب الذهن، مبرز في العلم»[٣].

وقد اعتمد عليه الزركشي[٤] في «البحر المحيط»، ونقل منه كثيرًا[٥].

---

(١) شجرة النور ص(١٤٦)، الأعلام (٥/ ٣١٨).

(٢) مجلة لواء الإسلام، مرجع سابق ص(٢٧).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ٢٤١).

(٤) محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي، الشافعي، الأصولي، المحدث، من آثاره: «شرح علوم الحديث لابن الصلاح»، «البرهان في علوم القرآن»، ومصنفات أخرى في الفقه الشافعي، توفي بالقاهرة سنة (٧٩٤هـ). شذرات الذهب (٨/ ٥٧٢)، الدرر الكامنة (٣/ ٣٩٧).

(٥) تحقيق شرح التلقين (١/ ٥٣).

قال الشيخ النيفر: «وشرح المازري لم أقف إلى الآن على وجود نسخة منه، فلذلك يعد مفقودًا»[١].

لكن الأستاذ حسن حسني أثبت وجود الكتاب، حيث قال: «وهو شرح ممتع في أجزاء عديدة على برهان إمام الحرمين أبي المعالي عبدالملك الجويني الشافعي، المتوفى سنة (٣٤٨هـ) في أصول الديانة، وهو من أهم ما صنف في علم الأصول، وأقدم ما شرح به هو تأليف المازري هذا، ومنه أجزاء متفرقة في مكتبات تونس وغيرها»[٢].

٣ـ تعليق على أحاديث الجوزقي:

وهو عبارة عن شرح مختصر للأحاديث التي اختارها الجوزقي[٣] من صحيح مسلم. ولم يكتب ذلك بقلمه بل علَّقها بعض تلاميذه.

قال النيفر: ولم نقف على ما يفيد الكتاب الذي علَّق عليه المازري من كتب الجوزقي ما هو؛ لأن للجوزقي كتبًا متعددة، ومن الأقرب حسبما يبدو أنه الجمع بين الصحيحين[٤].

٤ـ التعليق على المدونة:

وهو تعليق على «المدونة»[٥] في الفقه المالكي لابن القاسم المالكي[٦]، ويوجد قطع منه في الخزانة العامة بالرباط (ق/ ١٥٠).

---

(١) مقدمة المعلم (١/ ٦٥).

(٢) مجلة الهداية الإسلامية عدد (٧،٨) سنة (١٣٦٩هـ)، ص(١٠٤).

(٣) أبوبكر محمد بن عبدالله بن محمد الجوزقي النيسابوري، المحدث، الحافظ، له عدة مؤلفات في علم الحديث، منها: «الصحيح المخرج على صحيح مسلم»، و«الجمع بين الصحيحين» وغيرها، توفي سنة (٣٨٨هـ). طبقات الحفاظ ص(٤١٨) ترجمة (٩١٢)، معجم المؤلفين (٣/ ٤٥٥).

(٤) مقدمة المعلم (١/ ٦١).

(٥) كشف الظنون (٢/ ١٦٤٤).

(٦) أبوعبدالله عبدالرحمن بن القاسم العتقي المصري، المشهور بابن القاسم، من فقهاء المالكية، ولد بمصر، وتوفي فيها سنة (١٩١هـ)، له: «المدونة» وهي من أجل كتب المالكية. الديباج المذهب ص(٢٣٩)، طبقات الحفاظ ص (١٦٦) ترجمة (٣٢٤)، معجم المؤلفين (٢/ ١٠٦).

٥ـ شرح التلقين:

وهو أيضًا في الفقه المالكي، ألَّفه القاضي عبدالوهاب البغدادي[(١)]، قام المازري بشرحه ولم يتمه، قال الشيخ النيفر: الذي في الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب أنه لم يتمه حيث يقول: لم يبلغنا أنه أكمله، وما قاله ابن فرحون صحيح... بالرجوع إلى متن التلقين نجد أن هناك الشيء الكثير مما لم يشرحه المازري أي ما يقارب ثلث الكتاب[(٢)].

ثم رأيت هذا الشرح مطبوعًا بثلاث مجلدات إلى آخر كتاب الجنائز بتحقيق مفتى الجمهورية التونسية الشيخ محمد المختار السلامي.

٦ـ شرح صحيح البخاري:

قال الدكتور زكي بخاري في تحقيقه لجزء من كتاب شرح التلقين للمازري: «ذكر المازري في ص(١٢٨٢) من شرح التلقين ما يدل على أنه شرح صحيح البخاري وأحال إلى كتابه ذلك[(٣)].

٧ـ كشف الغطا عن لمس الخطا:

وقد ذكر الشيخ النيفر سبب تأليف المازري لهذا الكتاب فقال: «وقضية ابن التبان[(٤)] أنه وقعت يده على ساق ابنته وهو يظنها زوجته ففارق

---

(١) أبومحمد عبدالوهاب بن علي البغدادي المالكي، يعرف بابن نصر، شيخ المالكية في عصره، له عدة مؤلفات، منها: «التلقين» و«الملخص في أصول الفقه»، وغيرها، تولى القضاء في مصر وغيرها، توفي سنة (٤٢٢هـ). الديباج المذهب ص(٢٦١)، البداية والنهاية (١٢/ ٣٤).

(٢) مقدمة المعلم (١/ ٥٩).

(٣) تحقيق شرح التلقين (١/ ٥٧)، والإحالة هذه وقفت عليها في المطبوع من شرح التلقين، وذلك عند حديثه عن تقدير طول القراءة في الصلاة. حيث قال بعد ذكره لاختلاف الفقهاء في ذلك: وعن النبي ﷺ أحاديث أُخر تقتضي التخفيف، وقد أوعبنا الكلام على جميعها وذكرنا صفة البناء فيها، وما تؤولت عليه فيما أملينا على البخاري، فمن أحب الوقوف عليه فليلتمسه هناك. شرح التلقين (٢/ ٥٧٨).

(٤) محمد بن عبدالله التبان المعتزلي، أبوعبدالله، له مؤلفات، منها: «كتاب في المعدوم»، «كتاب في تكليف من علم الله أنه يكفر» توفي سنة (٤١٩هـ). معجم المؤلفين (٣/ ٤٦٥)، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون لإسماعيل البغدادي (٦/ ٦٣).

الزوجة أم البنت، ورأى أنها حرمت عليه بهذا، وكان يفتي بذلك... وهنا حرر المازري المسألة، وبيَّن أن هذا لا يصح مجريًا لها على الأصول... وألَّف في ذلك كتابًا وسماه «كشف الغطا عن لمس الخطا»»[١].

قال الأستاذ حسن حسني عن هذا الكتاب: «هي رسالة في مسألة فقهية دقيقة استفتي فيها فأجاب عنها بإيضاح وعلم وتحقيق، وقد وقفت عليها ومنها نسخة بالزيتونة»[٢].

٨ـ الكشف والإنباء عن المترجم بالإحياء:

وهو جواب لسؤال ورده عن كتاب الغزالي[٣] «إحياء علوم الدين» قال ابن الصلاح[٤]: «ولأبي عبدالله المازري... رسالة يذكر فيها حال الغزالي وحال كتابه «الإحياء»... تكلم المازري في محاسن الإحياء ومذامه ومنافعه ومضاره بكلام يطول ختمه بأن من لم يكن عنده من البسطة في العلم ما يعتصم به من غوائل هذا الكتاب، فإن قراءته لا تجوز له وإن كان فيه ما ينتفع به. ومن كان عنده من العلم ما يأمن به على نفسه من غوائل هذا الكتاب ويعلم ما فيه من الرموز فيجتنب مقتضى ظواهرها، ويكل أمر مؤلفها إلى الله تعالى، وإن كانت كلها تقبل التأويل، فقراءته لها سائغة، ويَنْتَفِعُ به، اللهم إلاَّ أن يكون قارئه ممن يقتدى به، ويغتر به، فإنه ينهى عن قراءته وعن مدحه والثناء عليه»[٥].

---

(١) مجلة المنهل، عدد (٤٠)، سنة (٥٤، ١١، ١٢/ ١٣٩٩هـ) ص(٧١٦، ٧١٨، ٧١٩).

(٢) مجلة الهداية الإسلامية، عدد (٩، ١٠، ١١، ١٢) سنة (١٣٦٩هـ)، ص(١٣٤).

(٣) أبوحامد محمد بن محمد الطوسي الغزالي، الشافعي، حجة الإسلام، المتكلم، الصوفي، الفقيه، الأصولي، له عدة مصنفات، منها: «تهافت الفلاسفة» المستصفى في أصول الفقه» توفي سنة (٥٠٥هـ). سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢)، طبقات الشافعية (١/ ٢٠٤).

(٤) تقي الدين أبوعمرو عثمان بن عبدالرحمن الكردي الشافعي، المعروف بابن الصلاح، محدث، مفسر، فقيه، كانت له رياسة الفتوى بدمشق، له مصنفات كثيرة، منها: «علوم الحديث»، «طبقات الشافعية»، توفي بدمشق سنة (٦٤٣هـ). سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٤٠)، البداية والنهاية (١٣/ ١٧٩).

(٥) طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح (١/ ٢٥٩).

٩ـ قطع لسان النابح في المترجم بالواضح :

قال عنه المازري في المعلم: «وهو كتاب نقضنا فيه كلام رجل وصف نفسه بأنه كان من علماء المسلمين ثم ارتد وأخذ يلفق قوادح في الإسلام، فنقضنا أقواله في هذا الكتاب، وأشبعنا القول في هذه المسألة وبسطناه في أوراق»(١).

وقال في شرح التلقين: «وقد أشبعنا الكلام على هذه المسألة وتأويل قوله عليه السلام: «**أُنزل القرآن على سبعة أحرف**»(٢) وذكرنا تأويل ما حكي عن ابن مسعود وابن شهاب في كتابنا المترجم بقطع لسان النابح في المترجم بالواضح، وهو كتاب نقضنا فيه كتابًا ألَّفه بعض حذَّاق نصارى المشرق، قصد فيه إلى جمع المطاعن التي تشبث بها الملحدون، وقذفها الطاعنون على ديننا وأضافوها إلى العقل والنقل، فاكتفينا بذكرها هناك عن ذكرها هاهنا لاشتغال أهل الأصول بالخوض فيها دون أهل الفروع»(٣).

١٠ـ المُعلم بفوائد مسلم :

ويأتي التعريف به مفصَّلاً.

١١ـ النكت القطعية في الرد على الحشوية والذين يقولون بقدم الأصوات والحروف:

وسماه الأستاذ حسن حسني: «النقط القطعية» وقال عنه: «وهذا تأليف لم نقف له على أثر ولا على السبب الأصلي في تحريره»(٤).

١٢ـ نظم الفرائد في علم العقائد :

قال عنه الأستاذ حسن حسني: «وهو من أجل مصنفات الإمام، إذ أنه أفرغ فيه ما آتاه الله تعالى من العلم الغزير الواسع والنظر الدقيق في

---

(١) المعلم (٣/ ١٥١)، وانظر أيضًا (٣/ ٢١٤).
(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب أُنزل القرآن على سبعة أحرف، ح(٤٩٩٢) (٨/ ٦٣٨)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف، وبيان معناه ح(٨١٨) (٦/ ٣٤٦).
(٣) شرح التلقين (٢/ ٦٨٠).
(٤) مجلة الهداية الإسلامية، عدد (٧،٨) سنة (١٣٦٨هـ) ص(١٠٥).

المعتقدات وأصولها ولم نقف على ذكر وجود نسخة منه في المكتبات التي نعرفها»[١].

١٣ـ كتاب في الطب:

قال عنه الأستاذ حسن حسني: «المشهور أنه وضع مؤلفًا في علم الطب... الإمام رضي الله عنه درس الطب، وألف فيه لاسيما وقد نقل مترجموه أنه كان درس فنونًا كثيرة من أدب وحساب وطب وغير ذلك، فلا يستغرب حينئذ من تدوينه في الطب، وإن لم يصل إلينا تأليفه المشار إليه»[٢].

المطلب السادس: مذهبه الفقهي وعقيدته:

أولاً: مذهبه الفقهي:

أخذ الإمام المازري الفقه على مذهب الإمام مالك،وهو المنتشر في المغرب العربي والأندلس،حتى بلغ رتبة عالية أهّلته لأن يكون أحد أئمة المذهب المعتبرين،حتى اعتمدت أقواله في المذهب، بل أصبح حامل راية المذهب المالكي في عصره.

قال ابن خلكان: الفقيه المالكي المحدث[٣].

وقال ابن فرحون: آخر المشتغلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه[٤].

وقال القاضي عياض: لم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض ـ في وقته ـ أفقه منه ولا أقوم لمذهبهم[٥].

وقال المقري[٦]: أحد الأئمة الأعلام... عد في المذهب إمامًا

---

(١) مجلة لواء الإسلام، مرجع سابق ص(٢٥)، وثناؤه عليه ثناء مطلع على مضمونه، وكلامه لا يدل على ذلك، ولكن ربما اعتمد على كلام العلماء السابقين المطلعين عليه.

(٢) المرجع السابق ص(٢٨، ٢٩).

(٣) وفيات الأعيان (٤/ ٢٨٥).

(٤) الديباج المذهب ص(٣٧٥).

(٥) الغنية ص(١٣٢).

(٦) أحمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني، المالكي، الأشعري، مؤرخ، أديب، رحاله، تنقل بين المشرق والمغرب، ونال شهرة واسعة، من آثاره: «نفح الطيب» توفي في مصر سنة (١٠٤١هـ). معجم المؤلفين (١/ ٢٤٩).

وملك من مسائله زمامًا[١].

وقال محقق كتاب «شرح التلقين للمازري»: المازري رحمه الله قد بلغ رتبة الإفتاء في المذهب وتبوأ مكانة مشهورة واستفاض خبره حتى كتب إليه الناس من المشرق والمغرب... لقد أسهم المازري بجهد ظاهر في مجال التأليف في العلوم الشرعية عمومًا، وفي الفقه المالكي خصوصًا كما ظهر ذلك من خلال بعض مؤلفاته الفقهية....

أما أثره في المذهب المالكي فهو ظاهر جدًّا وذلك من خلال ما يلي:

- كثرةالناقلين عن المازري،والاستشهادبأقواله وتخريجاته وملاحظاته، خاصة ما أثبته في كتابه «شرح التلقين» فقد اتفق المتأخرون ممن جاء بعد المازري على اعتبار كتابه «شرح التلقين» من المصادر الأصلية في تحرير المذهب،وأكثروا من النقل عنه من هذا الكتاب وسائر مؤلفاته[٢].

ولم يكن ملتزمًا بالمذهب المالكي تقليدًا دون دليل بل وصل إلى مرحلة تؤهله للاجتهاد.

قال ابن دقيق العيد[٣]: ما رأيت أعجب من هذا - يعني المازري - لأي شيء ما ادعى الاجتهاد[٤].

فهو يأخذ ما دل عليه الدليل ولو خالف المذهب ويظهر هذا من خلال شرحه للتلقين وهو أحد الكتب المالكية المعتمدة.

ثانيًا: عقيدته:

ألَّف المازري كتابًا في العقيدة سماه «نظم الفرائد في علم العقائد» لكنه لم يصل إلينا. على أننا نستطيع أن نعرف عقيدته من خلال ما وصلنا

---

(١) أزهار الرياض (٣/ ١٦٥).

(٢) تحقيق شرح التلقين (١/ ٧٩).

(٣) تقي الدين أبوالفتح محمد بن علي القشيري، المشهور بابن دقيق العيد، محدث، حافظ، فقيه، أصولي، تولى قضاء الديار المصرية، من مصنفاته: «شرح عمدة الأحكام» توفي بالقاهرة سنة (٧٠٢هـ). الدرر الكامنة (٤/ ٩١)، شذرات الذهب (٨/ ١٢).

(٤) الوافي بالوفيات لخليل أيبل الصفدي (٤/ ١٥١).

من مؤلفاته، خصوصًا كتابه «المُعلم» الذي تظهر عقيدته واضحة من خلال تعليقه على صحيح مسلم. فهو أشعري العقيدة سائر على مذهب المتكلمين من الأشاعرة، يظهر ذلك من خلال نصره لأقوالهم ومدافعته عنها وتقريرها والاستدلال عليها.

ومن خلال تأويله لعامة صفات الله تعالى ـ كما سيتبين إن شاء الله ـ من خلال مبحث الصفات كما هو مذهب الأشاعرة.

ولذا فقد أكثر من ذكرهم في المعلم ووصفهم بالأئمة وانتسب إليهم فقال: ومال إليه بعض أئمتنا من المتكلمين[١]، وجعلهم هم أهل السنة فقال: وإنما سميت الأشعرية أهل السنة لأتباعهم السنة وموافقتهم لها[٢].

هذا ما صرح به هو في كتابه وهو ما أكده الذين كتبوا عنه قال ابن الصلاح: كان إمامًا محققًا بارعًا في مذهبي مالك والأشعري[٣][٤].

قال السبكي: كان مصممًا على مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه، جليلها وحقيرها، كبيرها وصغيرها، لا يتعداها ويبدِّع من خالفه ولو في النزر اليسير والشيء الحقير[٥].

قال النيفر: نجد المازري في شرحه للمعلم أشعريًا يتقلد قول الأشعري وقول أصحابه، ويذب عما رأوه من آراء فهو خالص في أشعريته[٦].

وقال أيضًا: اشتمل المعلم على جملة صالحة من المسائل التي

---

(١) المعلم (٣/ ١٣٣).
(٢) المعلم (٣/ ١٧٦).
(٣) أبوالحسن علي بن إسماعيل الأشعري، ينتسب إلى الصحابي الجليل أبوموسى الأشعري، كان على مذهب المعتزلة، ثم سلك مذهب الكلَّابية، ثم رجع أخيرًا إلى مذهب السلف، واستقر عليه، حتى توفي، وكتابه «مقالات الإسلاميين» و«الإبانة عن أصول الديانة» يدل على ذلك، ولكن الذين انتسبوا إليه بعد ذلك تابعوا ما كان عليه قبل سلوك مذهب السلف. توفي سنة (٣٢٤هـ). طبقات الشافعية (١/ ١١٣)، الديباج المذهب ص(٢٩٣).
(٤) انظر: طبقات الفقهاء الشافعية (١/ ٢٥٥).
(٥) طبقات الشافعية الكبرى (٦/ ٢٤٤).
(٦) مقدمة المعلم (١/ ٧٤).

اختلفت فيها الأشعرية مع المعتزلة وانتصر فيها المازري لمذهبه العقائدي[١].

وسيتضح هذا أكثر من خلال مباحث هذه الرسالة ـ إن شاء الله ـ.

المطلب السابع : مكانته العلمية وثناء العلماء عليه :

يعتبر الإمام المازري علمًا من أعلام المذهب المالكي، فهو حامل لوائه في زمنه، وأحد العلماء الذين بلغوا رتبة علمية عالية شهد له بها علماء أفذاذ. ومما يدل على تلك المكانة اجتماع الأعداد الكبيرة من طلاب العلم على درسه،وحرصهم على الأخذ عنه،ومراسلة أعداد أخرى من شتى بلاد المغرب والأندلس له للأخذ عنه عن طريق الإجازة،إضافة إلى مؤلفاته التي تدل على تضلعه بالعلوم،وإسهامه في سائر الفنون.

لذا عده العلماء قد بلغ رتبة الاجتهاد وهي منزلة رفيعة لا يبلغها كل أحد.

قال صاحب شجرة النور عنه: الإمام خاتمة العلماء المحققين والأئمة الأعلام المجتهدين،الحافظ النظار كان واسع الباع في العلم والاطلاع،مع ذهن ثاقب ورسوخ تام،بلغ رتبة الاجتهاد[٢].

وقال ابن دقيق العيد: ما رأيت أعجب من هذا ـ يعني المازري ـ لأي شيء ما ادعى الاجتهاد[٣].

وقال الذهبي: الإمام العلامة البحر المتفنن... كان أحد الأذكياء الموصوفين والأئمة المتبحرين[٤].

وقال المقري: أحد الأئمة الأعلام المشار إليهم في حفظ الحديث والكلام عليه[٥]. وقال ابن فرحون: كان آخر المشتغلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد ودقة النظر[٦].

---

(١) مقدمة المعلم (١/ ٨١).
(٢) شجرة النور ص(١٢٧).
(٣) الوافي بالوفيات (٤/ ١٥١).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٠٤).
(٥) أزهار الرياض (٣/ ١٦٥).
(٦) الديباج المذهب ص(٣٧٥).

وقال الحميري[١]: برع في العلم وانتهت إليه رياسة العلم في وقته ولا يسمى بالإمام أحد بإفريقية سواه وسارت مقالاته وفتاويه في الأقطار وقصد الناس إليه[٢].

قال الشيخ محمد المختار السلامي: برزت مكانته العلمية منذ عهد حداثته وازدادت تلك المكانة رسوخًا مع نضجه وتقدم سنه فإذا كان وهو ابن عشرين سنة مرجعًا للقاضي يعود إليه ولا يخرج عن رأيه وإنه منذ حداثته يهاب الشيوخ البالغون درجة الإفتاء مناظرته[٣] فإن ذلك يدلك على أنه كان أرفع مقامًا، وأعلى شأنًا بعد ذهاب شيوخه وتفرده بالإمامه[٤]. وهذه المكانة التي عرفها أهل العلم عرفها أهل السلطان فكتبوا إليه يستفتونه فيما يشكل عليهم[٥] وهو لم يتول لهم قضاء ولا إفتاء.

---

(١) محمد بن محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميري الأندلسي، من أهل سبتة، توفي بعد سنة (٩٠٠هـ). كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون لحاجي خليفة (١/ ٩٢٠)، الأعلام (٧/ ٥٣).

(٢) الروض المعطار ص(٥٢١).

(٣) قال في شرح التلقين: «وقد كنت في سن الحداثة وعمري عشرون عامًا وقع في نفسي أن القراءة في الشفع لا يستحب تعيينها إذا كانت عقب تهجد بالليل، وإنما الاستحباب يتوجه في حق من اقتصر على شفع الوتر، فأمرت من يصلي التراويح في رمضان أن يوتر عقيب فراغه من عدد الاشفاع، ويأتي بجميع مقروآته بالحزب الذي يقوم به فيه ويوتر عقيبه فتمالأ المشايخ المفتون حينئذ بالبلد على إنكار ذلك واجتمعوا بالقاضي، وكان ممن يقرأ عليَّ ويصرف الفتوى فيما يحكم إليَّ، فسألوه أن يمنع من ذلك، فأبى عليهم إلاَّ أن يجتمعوا لمناظرتي على المسألة، فأبوا، فأبى». شرح التلقين (٢/ ٧٨٤).

(٤) مقدمة تحقيق شرح التلقين (١/ ٩٨).

(٥) ومع ذلك لم يداهن في دين الله، ولم يجامل، إذ جاء في شرح التلقين قوله: «وقد كتب إليَّ سلطان يسألني عن الصلاة بمقصورة في قصره، الحائط مشترك بينها وبين الجامع، وأحب أن يصلي على أعلى الحائط المشترك مرتفعًا عن الناس محجوبًا عنهم، فأجبته بأن سر اشتراط الجامع والجماعة في الجمعة بخلاف غيرها من الصلوات أنها صلاة قصد بها المباهاة والإشادة والإعلان، ولهذا جهر بالقراءة فيها، وإن كانت نهارًا، وجعل فيها الخطبة، فكل معنى تكمل المباهاة فيه ويزيد فيه بهاء الإسلام كان أولى أن يسلك، والإخفاء والاستتار نقيض الغرض الذي أشار إليه الشرع، فلما كتبت إليه بهذا امتنع من إحداثه». شرح التلقين (٣/ ٩٧٢).

المبحث الرابع
التعريف بالكتاب وبيان أهميته

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول: **تسميته**

المطلب الثاني: **نسبته للمازري**

المطلب الثالث: **تأليفه**

المطلب الرابع: **أهميته**

المطلب الخامس: **مميزاته ومنهج المازري فيه**

المطلب الأول : تسميــته :

اختلفت المصادر في تسمية هذا الكتاب،وإن كانت قد اتفقت على الكلمة الأولى وهي «المعلم» فبعضهم قد اقتصر عليها مسماه «المُعْلِم» بصيغة اسم الفاعل،دون إضافة ما يفيد أنه شرح لصحيح مسلم،أو أن هذا هو أصل اسمه ثم أضيف عليه ما يبين موضوعه من قبل المترجمين.

وممن سماه بهذا الاسم القاضي عياض في كتابه «إكمال المعلم بفوائد مسلم»(١).

وابن الآبار(٢) في كتابه «التكملة لكتاب الصلة»(٣).

وهناك من سمى الكتاب بـ«المعلم بفوائد مسلم».

وقد وردت هذه التسمية عند أكثر المترجمين وإن كان بعضهم يقتصر على هذا الاسم،وبعضهم يضيف كلمة «كتاب» في أوله، أو كلمة «صحيح» قبل كلمة «مسلم» أو كلمة «كتاب» بدل من كلمة «صحيح».

وهذه التسمية هي المشهورة والمذكورة في غالب كتب التراجم وقد ذكرها ابن عطية في فهرس شيوخه(٤)، وابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان»(٥)، وابن العماد الحنبلي(٦) في كتابه «شذرات الذهب»(٧).

(١) إكمال المعلم (١/ ٧٢).

(٢) أبوعبدالله محمد بن عبدالله البلنسي، الأندلسي، الشهير بابن الآبار، فقيه، حافظ، مقرىء، مؤرخ، أخذ عن علماء الأندلس وإفريقية، من آثاره: «هداية المعتسف في المؤتلف والمختلف» توفي بتونس سنة (٦٥٨هـ). سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٣٣٦)، معجم المؤلفين (٣/ ٤٣٢).

(٣) التكملة (٢/ ٩٣٩).

(٤) فهرس ابن عطية ص(١٣٩).

(٥) وفيات الأعيان (٤/ ٢٨٥).

(٦) عبدالحي بن أحمد بن محمد بن العماد الدمشقي الحنبلي، المشهور بابن العماد، مؤرخ، أديب، من آثاره: «بغية أولى النهى في شرح المنتهى»، في الفقه الحنبلي، توفي بمكة سنة (١٠٨٩هـ). معجم المؤلفين (٢/ ٦٧)، الأعلام (٣/ ٢٩٠).

(٧) شذرات الذهب (٦/ ١٨٦).

وحسن حسني في مجلة الهداية[١]، والنيفر في مقدمة المعلم[٢] وغيرهم.

بل قد نصَّ ابن خلدون على أن هذه التسمية من المازري نفسه حيث قال عند تعريفه لصحيح مسلم، وبيان اهتمام المغاربة به: وأملى الإمام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحًا وسماه «المعلم بفوائد مسلم»[٣].

وهناك تسمية أخرى له وردت عند البعض وهي «المعلم في شرح مسلم».

وذلك عند حاجي خليفة[٤] في كتابه «كشف الظنون»[٥] والقاضي عياض في كتابه «الغنية» حيث قال عند حديثه عن المازري: كتب إليَّ من المهدية يجيزني في كتابه المسمى بالمعلم في شرح مسلم وغيره من تواليفه[٦].

والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن اسمه «المعلم بفوائد مسلم» فمن اقتصر على «المعلم» أراد الاختصار ومن سماه «المعلم في شرح صحيح مسلم» ونحوها، أراد إيضاح أن هذا هو اسمه فكأنه اقتصر على تسميته بالمعلم وبين بما بعده موضوع الكتاب ومما يؤكد هذا ما جاء في شذرات الذهب حيث قال: محمد بن علي مصنف المعلم بشرح مسلم ـ ثم قال في تعداد مؤلفاته ـ وله المعلم بفوائد مسلم[٧].

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، عدد (٨،٧) سنة (١٣٦٩هـ) ص(١٠٣).

(٢) مقدمة المعلم (١/ ٥٣).

(٣) مقدمة ابن خلدون ص(٤١١).

(٤) مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الحنفي الشهير بكاتب جلبي، أو حاجي خليفة مؤرخ عالم بالكتب ومؤلفيها من آثاره: «سلم الوصول إلى طبقات الفحول» توفي بالقسطنطينية سنة (١٠٦٧هـ).
معجم المؤلفين (٣/ ٨٧٠)، الأعلام (٧/ ٢٣٦).

(٥) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (٢/ ١٧٤١).

(٦) الغنية ص(١٣٣).

(٧) شذرات الذهب (٦/ ١٨٦).

المطلب الثاني : نسبته للمازري :

قد أجمعت المصادر على نسبة هذا الكتاب للإمام المازري،بل أصبح هذا المؤلف علامة فارقة له عند خوف الالتباس،فيقال: المازري صاحب المعلم. وكل من ترجم للمازري ذكر مؤلفه هذا،مما يجعلنا نثق بنسبة الكتاب إليه،ولا يخامرنا شك في ذلك. بل لقد ورد في المعلم نفسه ما يدل على نسبته إلى أبي عبدالله المازري،حيث ورد ما نصه: «هذا كتاب قُصد فيه إلى تعليق ما جرى في مجالس الفقيه الإمام الجليل أبي عبدالله محمد بن علي المازري(١) رضي الله عنه حين القراءة عليه لكتاب مسلم بن الحجاج ـ رحمه الله ـ في شهر رمضان المكرم من سنة تسع وتسعين وأربعمائة(٢).

المطلب الثالث : تأليفه :

لم يقصد المازري تأليف هذا الكتاب ولم يستجمع نفسه لذلك، إنما كان من إملائه في درسه، فقد درَّس في حلقته في رمضان سنة (٤٩٩هـ) هذا الإملاء،فتلقاه بعض التلاميذ ودوَّنه، ثم عرضه بعد على الشيخ، فاطلع عليه وصحح بعضه وحذف بعضه، ثم أجازه بعد ذلك.

ولذا فغالب الكتاب يكون النقل عن الإمام بالمعنى لا باللفظ، قال ابن الآبار في ترجمته لتلميذ المازري عبيدالله بن عيشون: «ولقي أيضًا أبا عبدالله المازري بالمهدية وحكى عنه أنه سمعه يقول، وقد جرى ذكر كتابه «المعلم بفوائد صحيح مسلم»: إني لم أقصد تأليفه،وإنما كان السبب فيه أنه قرىء عليَّ كتاب مسلم في شهر رمضان،فتكلمت على نقط منه،فلما فرغنا من القراءة عرض عليَّ الأصحاب ما أمليته عليهم،فنظرت فيه،وهذبته،فهذا كان سبب جمعه»(٣)، وقد جاء ذلك في كتاب المعلم ونصه: «هذا كتاب

---

(١) هناك من يتفق مع أبي عبدالله بالاسم والنسبة فقط، أو بالنسبة دون الاتفاق باسم الأب كمحمد بن مسلم بن محمد المازري المتوفى بالإسكندرية، سنة (٥٣٠هـ)، ومحمد بن أبي الفرج المازري، المعروف بالذكي الصقلي المتوفي سنة (٥١٦هـ). معجم المؤلفين (٣/ ٥٢٥، ٥٨٥، ٧١٦).

(٢) المعلم (١/ ١٨١).

(٣) التكملة (٢/ ٩٣٦).

قصد فيه إلى تعليق ما جرى في مجالس الفقيه الإمام الجليل أبي عبدالله محمد بن علي المازري (رضي الله عنه) حين القراءة عليه لكتاب مسلم بن الحجاج ـ رحمه الله ـ في شهر رمضان المكرم من سنة تسع وتسعين وأربعمائة منقولاً ذلك بعضه بحكاية لفظ الفقيه الإمام أيّده الله وأكثره بمعناه»[١].

وهو وإن كان من تدوين بعض تلاميذه في درسه فقد أجازه وصار ينسبه إلى نفسه ويعتبره من تأليفه وهو يدل على طول نفس المازري في دروسه وتمهله في إلقائه على طلابه بحيث يستطيع التلاميذ أن يدونوا ذلك أو كثيرًا منه بلفظ الشيخ.

وقد جزم النيفر أن هذا الشرح كان خلال شهر واحد أي في شهر رمضان عام (٤٩٩هـ) فقط حيث قال: «ونجزم أن هذا الإملاء كان في رمضان واحد سنة (٤٩٩هـ) لأن عباراته هذه لا يستفاد منها إلاّ أنه كانت القراءة في السنة المذكورة دون غيرها إذ لو كانت القراءة على سنوات في رمضانات متعددة لوقع التصريح بذلك»[٢].

المطلب الرابع: أهميته:

إن أهمية كتاب المعلم بفوائد مسلم تبدو من خلال المميزات الكثيرة التي تميز بها، ومنها:

ـ أنه يعتبر أول شرح لصحيح مسلم، أو أول تعليق يصل إلينا، بل لم يبدأ التأليف حول صحيح مسلم إلاّ في عصر المازري، فألّف أبوالحسن عبدالغافر بن إسماعيل الفارسي النيسابوري المتوفى سنة (٥٢٩هـ) في نيسابور كتاب «المفهم بشرح غريب مسلم»[٣] وكذلك ألّف محمد بن أحمد التجيبي المعروف بابن الحاج قاضي قرطبة المتوفى سنة (٥٢٩هـ) كتابه «الإيجاز والبيان لشرح خطبة مسلم مع كتاب الإيمان»[٤].

---

(١) المعلم (١/ ١٨١).
(٢) المعلم (١/١٢٨).
(٣) شذرات الذهب (٦/ ١٥٢)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٦).
(٤) شذرات الذهب (٦/ ١٥٣)، معجم المؤلفين (٣/ ٦٣).

ـ وأبومحمد عبدالله بن عيسى الشيباني الأندلسي المتوفى ببلنسية سنة (٥٣٠هـ) له كتاب حول صحيح مسلم لم يكمله[١].

ـ وعبدالسلام بن عبدالرحمن بن برجان اللخمي الأندلسي المتوفى بمراكش سنة (٥٣٦هـ) له كتاب «الإرشاد» وهو شرح للأحاديث من خلال الآيات القرآنية الدالة عليها[٢].

فهذه الكتب مع كتاب المازري هي أول المؤلفات حول صحيح مسلم.

فالأول منها اختص بشرح الغريب، والثاني اقتصر على جزء منه، والثالث لم يتم شرحه المذكور، والرابع قصد مؤلفه استخراج معاني الأحاديث من كتاب الله.

ومع ذلك ما وصل إلينا إلاَّ كتاب «المعلم»، فهو أول المؤلفات التي وصلت إلينا حول صحيح مسلم.

ثم بعد ذلك توالت الشروح لصحيح مسلم حتى بلغت عشرات الشروح والتعليقات.

ومما يبين أهمية الكتاب أنه أصبح أساسًا لمن جاء بعده، فبنيت عليه شروح كثيرة، حيث أكمله القاضي عياض في كتابه «إكمال المعلم بفوائد مسلم»، ثم جاء بعده أبوعبدالله محمد بن إبراهيم البقوري الأندلسي المحدث، المتوفى سنة (٧٠٧هـ) بمراكش، فألَّف كتاب «إكمال الإكمال»[٣] وكذلك عيسى بن مسعود المنكلاتي الحميري الزواوي المتوفى بالقاهرة سنة (٧٤٣هـ) له كتاب «إكمال الإكمال»[٤] ومحمد بن خليفة التونسي المشهور بالأبي المحدث الحافظ المتوفى سنة (٨٢٨هـ) له كتاب «إكمال إكمال المعلم»[٥]، ولعيسى بن أحمد البجائي المشهور بابن الشاط كتاب في شرح

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢١٧)، معجم المؤلفين (٢/ ٢٦٧).
(٢) شذرات الذهب (٦/ ١٨٥)، سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٣٤).
(٣) الديباج المذهب ص(٤١٠)، معجم المؤلفين (٣/ ٣٩).
(٤) الدرر الكامنة (٣/ ٢١٠)، معجم المؤلفين (٢/ ٥٩٨).
(٥) الأعلام (٦/ ١١٥)، معجم المؤلفين (٣/ ٢٧٨).

صحيح مسلم اختصره من كتاب «إكمال الإكمال»[(١)] للأبي، ثم جاء محمد بن يوسف التلمساني السنوسي المتوفى سنة (٨٩٥هـ) فألَّف كتاب «مكمل إكمال الإكمال»[(٢)].

وهكذا توالت الشروح مبنية على كتاب «المعلم» ومكملة له وهذا ولا شك يدل على اهتمام العلماء بهذا الكتاب وعنايتهم به، واعتبارهم إياه أساسًا يبني عليه غيره، ولم تقتصر العناية والاهتمام بهذا الكتاب ممَّن ألفوا عليه بل كل من جاء بعد المازري وألَّف في شرح الصحيحين فقد استفاد منه أو اعتمد عليه.

فقد نقل القرطبي عنه كثيرًا في كتابه «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»[(٣)].

وكذلك النووي[(٤)] في كتابه «المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج»[(٥)].

وكذلك الحافظ ابن حجر[(٦)] في كتابه «فتح الباري في شرح صحيح البخاري»[(٧)].

---

(١) معجم المؤلفين (٢/ ٥٩٠).

(٢) الأعلام (٧/ ١٥٤)، معجم المؤلفين (٣/ ٧٨).

(٣) انظر على سبيل المثال (٢/ ١٦٢، ١٧٦، ٣/ ٢١٢، ٥٤٤، ٥/ ٣٥١، ٤٨٣، ٦/ ٧، ١٢، ١٤).

(٤) محيي الدين يحيى بن شرف بن مري النووي الدمشقي الشافعي، أبوزكريا، إمام في العلم والزهد، والعبادة له مصنفات كثيرة نافعة مشهورة، منها: «رياض الصالحين»، «المجموع شرح المهذب» توفي سنة (٦٧٦هـ). طبقات الحفاظ ص(٥٣٩) ترجمة (١١٣٠)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٩٤).

(٥) انظر على سبيل المثال: المجلد الأول (٤١٨، ٤٢٧، ٤٨٤، ٥٠٠، ٥٠٨).

(٦) أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني المشهور بابن حجر المصري الشافعي، شيخ الإسلام العلم المحدث الحافظ، قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية، له عدد كبير من المصنفات، منها: «الإصابة في تمييز الصحابة»، «بلوغ المرام من أدلة الإحكام»، «الدرر الكامنة»، «تهذيب التهذيب» وغيرها. توفي سنة (٨٥٢هـ). طبقات الحفاظ ص(٥٧٩) ترجمة (١١٩٢)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسيوطي (٢/ ٣٦).

(٧) انظر على سبيل المثال: (١/ ٨٨، ٩٩، ٣/ ٣٣٠).

وغيرهم من العلماء الذين اعتمدوا كتاب «المعلم» كمرجع في تآليفهم وتصانيفهم.

تظهر أيضًا أهمية الكتاب من خلال إشادة العلماء به وثنائهم عليه.

قال القاضي عياض عن كتاب «المعلم»: «نهاية في فنه، بالغ في بابه، مودع من فنون المعارف وفوائدها، وغرائب الأثر وشواردها»[(١)].

وقال ابن خلكان عند ترجمته للمازري: «وشرح صحيح مسلم شرحًا جيِّدًا»[(٢)].

وقال ابن خلدون عند حديثه عن صحيح مسلم: وأملى الإمام المازري ـ من فقهاء المالكية ـ عليه شرحًا وسماه: المعلم بفوائد مسلم، اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون الفقه[(٣)].

وقال النيفر: إذا نظرنا في الكتاب ،نراه مشحونًا بالفوائد المتنوعة المختلفة الدالة على سعة وتمكن صاحبها من ناحية الكثير من العلوم»[(٤)].

وقال القاضي عياض أيضًا ـ عند ذكره لعزمه على تأليف كتابه «إكمال المعلم» ـ: «إن تأليف كتاب جامع لشرحه لا معنى له مع ما قد تقرر في «المعلم» من فوائد جمة لا تضاهى، ونكت متقنة وقف عندها حسن التأليف وتناهى»[(٥)].

المطلب الخامس: مميزاته ومنهج المازري فيه:

قد سبق بيان أن المازري لم يقصد تأليف هذا الكتاب، إنما كان من إملائه لتلاميذه، ولا شك أن ما يلقى على الطلاب في الدرس يختلف عن التأليف من وجوه كثيرة لا تخفى.

ومع أن المعلم على طريقة الإملاء في الدروس إلاَّ أنه تميز بميزات

(١) إكمال المعلم (١/ ٧٢).
(٢) وفيات الأعيان (٤/ ٢٨٥).
(٣) مقدمة ابن خلدون ص(٤١١).
(٤) المعلم (١/١٢٨).
(٥) إكمال المعلم (١/ ٧٣).

واختص بفرائد لم تكن لغيره من الشروح، لغزارة علم مؤلفه، وذكائه، ودقة استنباطه.

ومن خلال النقاط التالية يتبين ميزات هذا الكتاب، ومنهج المازري فيه:

- الكتاب لا يعتبر شرحًا لصحيح مسلم بمعنى استيعابه لجميع أحاديث الصحيح، وشرحه لها شرحًا وافيًا.

إنما هو تعليق على بعض الأحاديث،وعادة ما يكتفى بالتعليق على حديث أو حديثين في الباب، ولا يكون التعليق أيضًا عبارة عن شرح لهذا الحديث الذي اختاره، إنما يذكر من الحديث الجزء الذي يكون عليه التعليق.

- لم يلتزم المازري بترتيب الأحاديث،في تعليقه حسب ما هو في صحيح مسلم، بل يقدم ويؤخر في ذلك[١].

قال القاضي عياض: وكان في المعلم تقديم وتأخير عن ترتيب كتاب مسلم[٢].

- إذا ذكر الحديث أو جزءًا منه لا يذكر في الغالب جميع الفوائد المتعلقة به، إنما يقتصر على إيضاح غامض، أو استنباط فائدة، أو تعليق يسير، أو تفسير لغريب، وقد يتوسع أحيانًا عند مناقشته لمسألة، أو انتصاره لقول.

- لم يتعرض المازري لمقدمة صحيح مسلم بالشرح، إنما علّق على ثمانية مواضع فقط من المقدمة بالاختصار الذي عرف به المعلم[٣].

- اهتم المازري بإيراد الألفاظ المختلفة لروايات صحيح مسلم سواء بالسند أو المتن[٤].

- كما اهتم المعلم بالمسائل العقدية والأصولية والفقهية ـ كما تبين سابقًا ـ، اهتم أيضًا بالحديث وعلومه، وفي الكتاب تعليقات نفيسة في هذا

---

(١) انظر أمثلة لذلك في: المعلم (١/ ١٣٢)، والحديث بإفريقية (٢/ ٥٦٢).

(٢) إكمال المعلم (١/ ٧٣).

(٣) انظر: المعلم (١/ ١٨٢).

(٤) انظر على سبيل المثال: المعلم (١/ ١٨٦، ١٨٧، ١٩٣، ٣٠١) وهي كثيرة.

الباب[١].

واهتم كذلك بالمباحث اللغوية اهتمامًا واضحًا بحيث لا يخلو تعليق على حديث من فوائد لغوية نافعة[٢].

- تميز الكتاب بالنقل عن مصادر ضاع بعضها، فلم يصل إلينا، ولذا يعتبر هذا توثيقًا لها، وحفظًا لما نقل منها[٣].

- تميز بتتبعه لميلاد كثير من أقوال مالك في الحديث والمسألة من قبل أن تكون مذهبًا، ويشير إلى وقت ميلادها مما يجعل منه ثروة في تقييم المذهب[٤].

على أن المُعلم مهما وجد فيه من قصور، أو خلل، أو نقص، فيشفع له أنه لم يعد أصلاً، ويوضع كتأليف يعد له بحيث تجمع له المراجع، وتحرر فيه الأقوال، وتُراجع فيه المسائل وتدقق.

وكذلك لم يكن شرحًا لصحيح مسلم، إنما تعليق على بعض أحاديث الصحيح، وإذا ظهرت هذه الصورة لم يعتمد عليه كشرح لصحيح مسلم، وقد اعتذر القاضي عياض عن المازري فيما يُوردُ على كتابه من نقد حيث قال: «والعذر بيِّن فإن كتاب «المُعْلم» لم يكن تأليفًا استجمع له مؤلفه، وإنما هو تعليق ما تضبطه الطلبة من مجالسه وتتلقفه وكدات الألباء»[٥].

---

(١) انظر على سبيل المثال: المعلم (١/ ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥.

(٢) انظر على سبيل المثال: المعلم (١/ ١٨٣، ١٨٦، ١٨٩، ٢١٤) وهي كثيرة جدًّا تكاد تكون في كل صفحة من المعلم وأحيانًا يستروح ويطيل في ذلك بحيث يذكر فوائد لغوية لا تتعلق بشرح الحديث، ولكن وردت للمناسبة كما قال عند تعليقه على قول ورقة بن نوفل للرسول عليه الصلاة والسلام عن جبريل «هذا الناموس»: قال المطرز قال ابن الأعرابي لم يأت في الكلام فاعول لام الفعل سين إلاَّ الناموس والجاسوس والجاروس والفاعوس والبابوس والداموس والقاموس والقابوس والعاطوس والفانوس والجاموس. فالناموس: صاحب سر الخير. والجاسوس: صاحب سر الشر، والجاروس: الكثير الأكل، والقاعوس: الحية. والبابوس: الصبي الرضيع. المعلم (١/ ٢١٨).

(٣) المقدمة تحقيق إكمال المعلم (١/ ٣٩).

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق (١/ ٧٢).

الفصل الثاني
القرطبي عصره وحياته

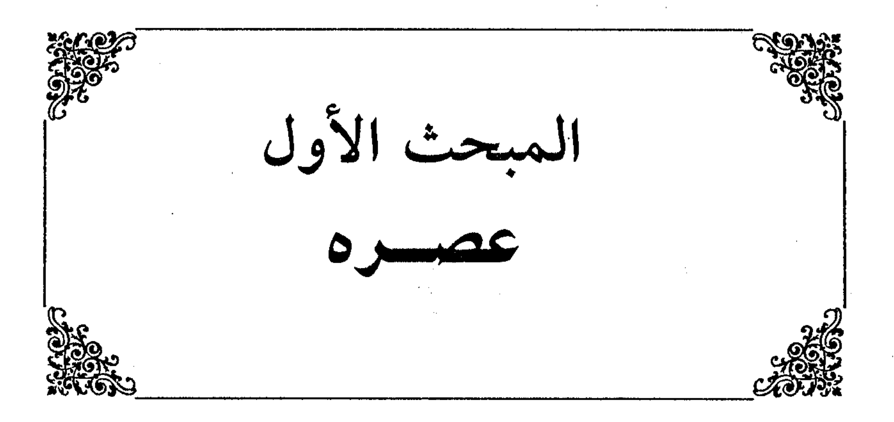
وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول: **عصـــره**

المبحث الثانـي: **حياته الشخصية**

المبحث الثالث: **حياته العلمية**

المبحث الرابـع: **التعريف بالكتاب وبيان أهميته**



المبحث الأول
عصــره

وفيه مطلبان :

المطلب الأول: **من الناحية السياسية**

المطلب الثاني: **من الناحية العلمية**

المطلب الأول: الحالة السياسية

عاش القرطبي ـ رحمه الله ـ في الفترة من (٥٧٨هـ) حتى (٦٥٦هـ) وهي فترة اضطرابات، وحروب وفتن، وضعف للأمة الإسلامية، وتسلُّط لأعدائها عليها من النصارى والتتار.

فقد عاصر القرطبي حملة التتار واجتياحهم للبلاد الإسلامية، حيث خرجوا من بلاد الصين في الشرق، وساروا نحو بلاد الإسلام، فما مروا على بلدة إلاَّ سقطت تحت أيديهم، فيعيثون فيها فسادًا؛ بقتل الرجال والشيوخ والأطفال والنساء، ونهب الأموال، وإحراق البلاد.

فعظُمَت بهمُ الفتنة، حتى قال ابن الأثير(١) ـ وهو المعاصر لتلك الأحداث ـ في تاريخه ـ مصورًا عظم الفتنة وشدة المحنة ـ: «لقد بقيت سنين عديدة معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها، فأنا أُقَدِّم رِجْلاً وأُؤَخِّر أُخْرىٰ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمي لم تلدني وياليتني مت قبل هذا، وكنت نسيًا منسيًا، إلاَّ إنني حثَّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا مُتوقفٌ، ثمَّ رأيت أنَّ ترك ذلك لا يُجدي نفعًا، فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى، التي عَقمَت الأيام والليالي عن مثلها عمَّت الخلائق وخصَّت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها... ولعلَّ الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنىٰ الدُّنْيا، إلاَّ يأجوج ومأجوج... فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي

---

(١) عز الدين أبوالحسن علي بن محمد بن محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، مؤرخ أديب، نسَّابه، من آثاره: «أسد الغابة في معرفة الصحابة» توفي سنة (٦٣٠هـ). البداية والنهاية (١٣/١٤٩)، طبقات الحفاظ ص(٥٨٩) ترجمة (١٠٩٢).

العظيم، لهذه الحادثة التي استطار شرُّهَا وعمَّ ضررها[١].

ثمَّ شرع في ذكر اجتياحهم لبلاد المسلمين، والمجازر العظيمة التي ارتكبوها والأفعال الشنيعة التي فعلوها.

ومازالوا في تقدم مستمر والبلاد الإسلامية تتساقط في أيديهم حتى سقطت عاصمة الخلافة الإسلامية ببغداد، وقُتل الخليفة المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس مع أهله وحاشيته وعدد من العلماء، وذلك سنة (٦٥٦هـ)[٢] وهي السنة التي توفي فيها القرطبي.

فقضوا على عامة بلاد الإسلام، وفي نيتهم مواصلة الزحف للقضاء على جميع البلاد الإسلامية حتى قيَّض الله ـ سبحانه وتعالى ـ السلطان المملوكي سيف الدين قطز، المتوفى في ذي القعدة سنة (٦٥٨هـ) حيث انتصر عليهم في معركة «عين جالوت» الشهيرة، وذلك في رمضان من سنة (٦٥٨هـ)[٣].

وكان القرطبي معاصرًا لهذه الأحداث العظام التي عمَّت غالب بلاد الإسلام، ولذا تعرض لهؤلاء في كتابه «المفهم» حينما ورد ذكر الترك حيث قال: «وخرج منهم في هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلاَّ الله، ولا يردهم عن المسلمين إلاَّ الله، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج، أو مقدمتهم، فنسأل الله أن يهلكهم ويبدد جمعهم»[٤].

ولذا فقد ساهم في شحذ الهمم للوقوف أمام هؤلاء الأعداء، وصدهم عن بلاد الإسلام، وبيَّن تعين الجهاد في ذلك الوقت لقهر الأعداء، وكثرة الاستيلاء، حيث قال: «وقد يكون الجهاد في بعض الأوقات أفضل من سائر الأعمال، وذلك وقت استيلاء العدو وغلبته على المسلمين، كحال هذا الزمان، فلا يخفى على من له أدنى بصيرة أن الجهاد اليوم أوكد الواجبات،

---

(١) الكامل في التاريخ (١٠/٣٩٩).

(٢) البداية والنهاية (١٣/٢١٣)، وتاريخ الإسلام (٤/٥٤)، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص(٥١٦).

(٣) البداية والنهاية (١٣/٢٣٣).

(٤) المفهم (٧/٢٤٨).

وأفضل الأعمال، لما أصاب المسلمين من قهر الأعداء وكثرة الاستيلاء شرقًا وغربًا، جبر الله صدعنا وجدد نصرنا»[(١)].

أولاً: الحال في الأندلس :

مامضى حال الأمة الإسلامية عامة، حيث أُصيبت بهذا المصاب العظيم.

وأما إذا خصصنا بلاد الأندلس بالحديث، حيث قضى فيها القرطبي حياته الأولى، فوُلِدَ ونَشأ، وتعلم فيها.

فقد عاش القرطبي حياته في عهد دولة الموحدين التي أسسها عبدالله بن تومرت، حيث خرج على المرابطين سنة (٥١٥هـ) وسقطت مراكش عاصمة ملكهم على يد خليفته عبدالمؤمن بن علي سنة (٥٤١هـ).

ثم زحف إلى الأندلس فاستولى على ملكهم هناك ،وأصبحت قرطبة عاصمة دولة الموحدين في الأندلس، ومنطلق جيوشهم.

وقد سيطر الموحدون على بلاد الأندلس، وصدوا هجمات النصارى، وخاضوا معهم عدة معارك.

وكانت ولادة أبي العباس القرطبي في عهد يوسف بن عبدالمؤمن، الذي حكم أكثر من عشرين سنة (٥٥٨ ـ ٥٨٠هـ)[(٢)] ثم جاء بعده ابنه يعقوب المنصور[(٣)]، واستمر حكمه حتى سنة (٥٩٥هـ)، وقد خاض مع النصارى معركة «الأرك» سنة (٥٩١هـ)[(٤)]، وانتصر فيها انتصارًا ساحقًا، وقتل وأسر أعدادًا كبيرة من النصارى.

ثم جاء بعده ابنه محمد الناصر الذي حكم حتى توفي سنة (٦١٠هـ)[(٥)] بعد هزيمته سنة (٦٠٩هـ) في معركة «العقاب»[(٦)] الشهيرة مع

---

(١) المفهم (١/ ٢٧٦).

(٢) دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين، محمد عبدالله عنان ص(١٠).

(٣) المرجع السابق ص(١٤٠).

(٤) المرجع السابق ص(١٩٦).

(٥) المرجع السابق ص(٢٤٩).

(٦) المرجع السابق ص(٢٨٢).

النصارى، والتي كانت سببًا في ضعفه وتمزق جيوشه، ثم وفاته حسرة بعد المعركة بزمن يسير.

وقد خلف ابنه يوسف المنتصر حيث تولى الحكم وهو صغير، مما جعل الممالك التابعة له لا تخضع له،ولا تدين له بالطاعة،حتى توفي سنة (٦٢٠هـ)[١].

فتولى بعده عبدالواحد بن يوسف بن عبدالمؤمن لعدة شهور، ثم عبدالله بن يعقوب المنصور، ثم إدريس بن يعقوب، فتوالى الملوك واحدًا بعد الآخر، لا يستقر الملك لأحد إلاَّ مدة قصيرة، مما أضعف هذه الدولة، فانتقلت من ضعف إلى ضعف، مما أطمع فيها النصارى فهاجموها فتساقطت المدن بأيديهم واحدة بعد الأخرى[٢]، حتى سقطت قرطبة حاضرة الأندلس، وعاصمة الموحدين، ومدينة القرطبي، وذلك سنة (٦٣٣هـ)، حيث وُضع الصليب على جامعها وحُوِّلَ إلى كنيسة، ورحل المسلمون عنها، فتفرقوا في البلاد الإسلامية[٣]، وكان فيمن رحل أبوالعباس، حيث خرج في هذا الوقت أو قريبًا منه. فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

وقد بيَّن القرطبي ـ رحمه الله ـ وهو المعاصر لهذه الأحداث أن سبب تسلُّط الأعداء عليهم إنما كان لاختلافهم وتفرقهم حيث قال: «ولما اختلفت ملوك المغرب وتجادلوا استولت الإفرنج على جميع بلاد الأندلس، والجزر القريبة، وهاهم قد طمعوا في جميع بلاد الإسلام، فنسأل الله أن يتدارك المسلمين بالعفو والنصر واللطف»[٤].

ثانيًا: الحال في مصر:

عاش أبوالعباس في مصر بعد نزوحه من الأندلس، فاستوطن الإسكندرية حتى توفي فيها سنة (٦٥٦هـ)، وكانت مصر في ذلك الزمن

(١) المرجع السابق ص(٣٢٨).
(٢) المرجع السابق ص(٥٦١).
(٣) انظر: تاريخ الإسلام (٤/ ٢٣٣).
(٤) المفهم (٧/ ٢١٨).

خاضعة لسلطة الدولة الأيوبية، التي خلفت دولة الفاطميين، بقيادة صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٦٧هـ)، حتى توفي سنة (٥٨٩هـ) فخلفه على مصر ابناه العزيز ثم الأفضل، ثم عمهما العادل بن أيوب الذي تولى مصر سنة (٥٩٦هـ) حتى توفي سنة (٦١٥هـ) ثم تولى ابنه الكامل حتى توفي سنة (٦٣٥هـ)، ثم تولى الملك الصالح أيوب حتى توفي سنة (٦٤٧هـ) فتولى ابنه توران شاه، لكنه لم يبق في الحكم إلاَّ يسيرًا حيث قتله المماليك واستولوا على السلطة، وبذلك سقطت الدولة الأيوبية وقامت دولة المماليك[١].

وحيث عاش القرطبي تحت سلطتها قرابة ثمان سنوات في آخر عمره؛ حيث انتصر المماليك على التتار، وقضوا عليهم، وصدوا هذا الجيش الجرار عن باقي بلاد الإسلام بقيادة المظفر قطز في معركة «عين جالوت» سنة (٦٥٨هـ) بعد وفاة القرطبي ـ رحمة الله ـ بسنتين[٢].

المطلب الثاني : الحالة العلمية :

لقد عاش القرطبي ـ رحمه الله ـ في الربع الأخير من القرن السادس، والنصف الأول من القرن السابع، وهو عصر مليء بالاضطرابات والحروب والهجمات الشرسة على بلاد المسلمين في المشرق والمغرب من قبل النصارى والمغول ـ كما سبق ذكره ـ وقد قُتل خلال ذلك عددٌ من العلماء، ورحل آخرون عن بلادهم، ودُمرت المساجد والمكتبات، حتى ألقى المغول مكتبة بغداد في نهر الفرات حتى تغير لونه[٣].

ولكن مع ذلك فبيئة القرطبي وبلاده التي عاش فيها أو انتقل إليها بيئة علمية مزدهرة.

*** في الأندلس :**

عرفت الأندلس ـ التي عاش فيها القرطبي بداية حياته وتعلم في دور

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٣، ٢٠، ١٩٠، ١٩٢، ٢٢٩)، وتاريخ ابن خلدون (٥/ ٣٩٢).
(٢) انظر: تاريخ الإسلام (٤/ ١٠٤)، وتاريخ ابن خلدون (٥/ ٣٩٢).
(٣) تاريخ الإسلام (٤/ ١٦٠).

العلم فيها، ولازم مجالس العلماء ـ، بأنها بلد العلم والأدب، شجع على ذلك اهتمام غالب حكامها بالعلم وتشجيعهم عليه، واهتمامهم بإنشاء المكتبات وتشييدها، وجمع الكتب لها، بداية من عهد الأمويين، فهذا الحكم الثاني الأموي المتوفى سنة (٣٦٦هـ) كون مكتبة عظيمة جمع لها الكتب من شتى البلاد، وكان محبًا للعلم مشجعًا عليه، قال عنه المقري: «كان محبًا للعلوم مكرمًا لأهلها، جمّاعاً للكتب بأنواعها، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله»(١).

وفي حكم المرابطين كان يوسف بن تاشفين محبًّا للعلم، مقرِّبًا لأهله، قال عنه المراكشي(٢): «فانقطع إلى أمير المؤمنين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب، وفرسان البلاغة، ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار(٣).

واستمر ذلك في دولة الموحدين، وهي التي قامت على أساس العلم، وعلى يد من انتسب إليه وهو عبدالله بن تومرت(٤). وسار على دربه الخلفاء من بعده فيوسف بن عبدالمؤمن كون مكتبة كبيرة جمع فيها من أصناف الكتب ما فاق به من قبله، قال المراكشي: «ولم يزل ـ يعني يوسف بن عبدالمؤمن ـ يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء، وخاصة أهل النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله

(١) نفح الطيب (١/ ٣٨٥).

(٢) عبدالواحد بن علي التميمي المراكشي، المالكي، مؤرخ نشأ بمراكش وتعلم في إفريقية والأندلس، تجول في بلدان العالم الإسلامي، توفى سنة (٦٤٧هـ). معجم المؤلفين (٢/ ٣٣٤).

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي ص(٢٢٧).

(٤) سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عنه، فبين أنه تعلم العلم، ثم جاء إلى قوم من البربر لا يعرفون شرائع الإسلام فعلمهم الصلاة والزكاة والصيام وغيرها من شرائع الدين، ولكنه استجاز الكذب عليهم وإظهار المخاريق ليعتقدوا بولايته وأنه المهدي واستحل دماء أهل السنة والجماعة في المغرب بدعوى أنهم مجسمة ثم بيَّن شيخ الإسلام، أنه قد وافق عقائد المعطلة والفلاسفة. الفتاوى (١١/ ٤٧٨).

ممن ملك المغرب»[١].

ولذا أصبحت الأندلس من أعظم بلاد المسلمين في الحركة العلمية، مما جعل العلماء وطلبة العلم يقصدونها لهذا الغرض، خصوصًا قرطبة، وهي بلد القرطبي التي تميزت بذلك، واشتهرت فصارت مدينة العلم في بلاد الأندلس، قال المقري عنها: «هي أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وأشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب»[٢].

*** في مصر:**

وإذا نظرنا إلى مصر، حيث قضى فيها أبوالعباس بقية عمره، رأيناها قد ازدهرت بالعلم، واكتظت بالعلماء، فالنكبات التي توالت على بلاد المسلمين جعلت عددًا كبيرًا من العلماء يرحلون إليها، ويستقرون فيها، منهم أبوالعباس القرطبي، وتلميذه القرطبي المفسر، وابن مالك النحوي[٣] وغيرهم. خصوصًا بعد سقوط عامة بلاد الأندلس في يد النصارى، وسقوط غالب بلاد المسلمين في يد التتار، وبهذا انتقل النشاط العلمي من المشرق والمغرب إلى مصر.

إضافة إلى حرص العلماء على تعويض الخسارة العلمية التي لحقت بالأمة الإسلامية من آثار غزو التتار لبلاد الإسلام وإتلافهم لنتاجهم العلمي. فانتشرت المدارس في عهد الأيوبين وبعدهم، قال ابن خلكان: «ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء غير المدارس»[٤].

فبلغت المدارس في القاهرة وحدها سنة (٦٠٠هـ) ثلاث عشرة

---

(١) المعجب ص(٣١١).

(٢) نفح الطيب (١/ ٤٦٢).

(٣) جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الأندلسي، نحوي أديب، مقرىء، رحل من الأندلس إلى المشرق، . من آثاره «الألفية في النحو»، «مختصرات الشاطبية»، توفي بدمشق سنة (٦٧٢هـ). البداية والنهاية (١٣/ ٢٨٣)، . إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين عبدالباقي اليماني ص(٣٢٠).

(٤) وفيات الأعيان (٧/ ٢٠٦).

مدرسة، ثم تضاعف هذا العدد في زمن المماليك[١].

إضافة إلى كثرة المكتبات الزاخرة بأمهات الكتب في شتى فنون المعرفة، ولا غرابة في ذلك إذا كان الحكام يشجعون على العلم، ويهتمون بنشره، وتقريب أهله.

قال المقريزي[٢] عن الملك الكامل: «وكان يحب أهل العلم، ويؤثر مجالستهم، وشغف بسماع الحديث النبوي... وكان يناظر العلماء، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها، فمن أجاب قدَّمه وحظي عنده»[٣].

وبالجملة فالحالة العلمية في هذا العصر تميزت بالازدهار والنشاط وكثرة المكتبات ودور العلم.

وأعظم ما يدل على هذه الحركة العلمية كثرة العلماء الأعلام في هذا العصر، سواء في المشرق أو المغرب، وغزارة نتاجهم العلمي الذي حُفِظ لنا، فمنهم:

ابن الجوزي[٤] توفي سنة (٥٩٧هـ)، والفخر الرازي[٥] توفي سنة (٦٠٦هـ)، وابن قدامة المقدسي[٦] توفي سنة (٦٢٠هـ)، وابن الأثير

(١) القاهرة وتاريخها وآثارها، د. عبدالرحمن زكي، ص(٧٣).

(٢) أحمد بن علي بن عبدالقادر المصري، المشهور بابن المقريزي، مؤرخ محدث، فقيه، حنفي، له مؤلفات كثيرة، منها: «الخبر عن البشر»، «كتاب النقود» توفي بالقاهرة سنة (٨٤٥هـ). الضوء اللامع (٢/ ٢١)، شذرات الذهب (٩/ ٣٧٠).

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك (١/ ٢٥٨).

(٤) عبدالرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي، الحنبلي، أبوالفرج بن الجوزي، الإمام، الحافظ، الواعظ، صاحب التصانيف الكثيرة، من آثاره: «زاد المسير في علم التفسير»، «تلبيس إبليس»، «منهاج القاصدين»، توفي سنة (٥٩٧هـ). سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٥)، طبقات الحفاظ ص(٥٠٢)، ترجمة (١٠٦٥).

(٥) محمد بن عمر بن الحسن البكري الطبرستاني الرازي الشافعي المشهور بالفخر الرازي، مفسر متكلم، أصولي من أئمة الأشاعرة الذين تأثروا بالفلسفة والاعتزال، قيل: إنه رجع في آخر حياته إلى مذهب السلف. من آثاره «شرح الأسماء الحسنى»، «أسرار التنزيل وأنوار التأويل»، توفي سنة (٦٠٦هـ). طبقات المفسرين للداوودي (١/ ٢١٥)، والبداية والنهاية (١٣/ ٦٠).

(٦) عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الدمشقي الحنبلي، فقيه، مجتهد من =

الجزري توفي سنة (٦٣٠هـ)، وابن الصلاح توفي سنة (٦٤٣هـ)، والمنذري توفي سنة (٦٥٦هـ)، والعز بن عبدالسلام[1]، توفي سنة (٦٦٠هـ)، وابن مالك النحوي توفي سنة (٦٧٢هـ)، والقرطبي المفسر توفي سنة (٦٧٢هـ)، والنووي توفي سنة (٦٧٦هـ) وغيرهم.

= أعيان الحنابلة، من مصنفاته «المفتي» في الفقه الحنبلي، «البرهان في علوم القرآن»، توفي بدمشق سنة (٦٢٠هـ). سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٦٥)، البداية والنهاية (١٣/ ١٠٧).

(١) عبدالعزيز بن عبدالسلام بن القاسم السلمي الدمشقي، الشافعي، الشهير بالعز بن عبدالسلام، شيخ الشافعية في عصره، المجاهد، الصدَّاع بالحق، من آثاره: «التفسير»، «القواعد الكبرى والصغرى»، توفي في مصر سنة (٦٦٠هـ)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٤٩)، الأعلام (٤/ ٢١).

المبحث الثاني

حياته الشخصية

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: **اسمه ونسبه**

المطلب الثاني: **مولده ونشأته**

المطلب الثالث: **أسرته**

المطلب الرابع: **وفاته**

المطلب الأول :اسمه ونسبه

هو أبوالعباس أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري القرطبي الأندلسي المالكي.

أمَّا الأنصاري فنسبة إلى الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ إذ قد هاجر منهم أناس إلى المغرب واستقروا هناك.

ولكن هل نسبة أبي العباس إليهم ولاءً أم صليبة، رجَّح بعض المترجمين له أن نسبته إليهم بالولاء[(١)]، وذلك لأن والده كان «مُزَيِّنًا» وهو من يمتهن الحلاقة والحجامة والختان، ولذا لُقِّب بابن المزين نسبة لعمل والده.

وهذه مهنة محتقرة عند العرب لا يقوم بها عادة إلاَّ الرقيق والموالي، وهذا دليل قوي لترجيح هذا القول.

وأمَّا القرطبي فنسبة إلى مدينته قرطبة[(٢)] التي عاش فيها الشطر الأول من حياته.

وأما الأندلسي فنسبة إلى بلاده الأندلس[(٣)].

أما المالكي فإلى مذهب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ إذ هو من أعيان المذهب.

كنيته أبوالعباس، ولقب بضياء الدين، وبجمال الدين، كما لُقِّب

---

(١) قال بذلك الدكتور عبدالوهاب الطريري في دراسته حول القرطبي عند تحقيقه لكتاب الإيمان من المفهم (١/ ٧٧)، وقد استفدت منه كثيرًا في هذه الترجمة. «القرطبي ومنهجه في كتابه المفهم في حل ما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» مع تحقيقه من أوله إلى نهاية باب مضاعفة أجر الكتابي إذا آمن، رسالة دكتوراه، قسم السنة وعلومها، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (١٤١٥هـ).

(٢) ينسب إلى هذه المدينة عدد كبير من العلماء كابن عبدالبر القرطبي وأبي عبدالله القرطبي، صاحب التفسير، وغيرهم، وقد ذكر صاحب معجم المؤلفين بهذا الاسم قرابة ثمانين علمًا (٤/ ٤٧٠).

(٣) وأيضًا نسب إلى الأندلس واشتهر بهذا النسبة عدد من العلماء، كابن حزم الأندلسي، وابن العربي الأندلسي صاحب العواصم من القواصم، وغيرهما، وقد ذكر صاحب معجم المؤلفين من عرف بهذا الاسم قرابة الثلاثين علمًا (٤/ ٢٢٤).

بالعدل، والشاهد، وذلك لأنه قام بعمل العدول والشهود في الإسكندرية، وهم من يتعرفون على الناس، ويشهدون في القضايا، مع كونهم محل ثقة عند القضاة[(١)].

كما عُرِف بابن المزين نسبة لعمل والده ـ كما سبق ـ.

قال ابن فرحون: «أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر أبوالعباس الأنصاري الأندلسي، ثم القرطبي المالكي الفقيه، عُرف بابن المزيّن بالزاي المعجمة بعدها ياء مثناة من تحت ونون يلقب بضياء الدين من أعيان فقهاء المالكية»[(٢)].

وقال ابن العماد الحنبلي: «أبوالعباس القرطبي أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري المالكي المحدث الشاهد»[(٣)].

وقال محمد محمد مخلوف[(٤)]: «ضياء الدين أبوالعباس أحمد بن عمر الأنصاري الأندلسي القرطبي يعرف بابن المزين»[(٥)].

وقال البغدادي[(٦)]: «أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري أبوالعباس، جمال الدين القرطبي»[(٧)].

المطلب الثاني: مولده ونشأته

أولاً: مولده:

ولد ـ رحمه الله ـ في قرطبة من بلاد الأندلس عام (٥٧٨هـ) ثمان وسبعين وخمسمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم لعبدالوهاب السبكي ص(٦٣).

(٢) الديباج المذهب ص(١٣٠).

(٣) شذرات الذهب (٧/ ٤٧٣).

(٤) محمد بن حسنين بن محمد مخلوف العدوي المصري المالكي، عمل وكيلاً للأزهر، له العديد من المصنفات في شتى العلوم، توفي سنة (١٣٥٥هـ). معجم المؤلفين (٣/ ٢٤٤)، الأعلام (٦/ ٩٦).

(٥) شجرة النور الزكية ص(١٩٤).

(٦) إسماعيل باشا بن محمد أمين بن سليم الباباني البغدادي، مؤرخ أديب، عالم بالكتب ومؤلفيها، من آثاره: «إيضاح المكنون»، «هدية العارفين». توفي سنة (١٣٣٩هـ). الأعلام (١/ ٣٢٦)، معجم المؤلفين (١/ ٣٧٧).

(٧) هدية العارفين للبغدادي (١/ ٩٦).

وهذا محل اتفاق بين من ترجموا له إذ لم يذكر أحد سوى هذا التاريخ لولادته. ولم أجد من ذكر اليوم أو الشهر الذي ولد فيه بل جميعهم اكتفوا بذكر السنة.

ثانيًا: بيئته ونشأته :

نشأ أبوالعباس في مكان ولادته في قرطبة في بيئة علمية،فوالده على ما يبدو من طلبة العلم أو العلماء،وإن لم أظفر له بترجمة،لكن جاء في افتتاح كتاب المفهم ما نصه: «قال الشيخ الفقيه الإمام العالم المحدث أبوالعباس أحمد بن الشيخ الفقيه أبي حفص عمر القرطبي الأنصاري»[(١)]. وتطواف هذا الوالد بولده وهو صغير في حواضر العلم في سائر أنحاء العالم الإسلامي،ليسمع من العلماء مع مشقة ذلك في تلك الأوقات،لَيَدُلُّ دلالة أكيدة على أنه من أهل العلم العارفين بفضله[(٢)].

قال ابن فرحون: رحل أبوالعباس مع أبيه من الأندلس في سن الصغر فسمع كثيرًا بمكة والمدينة والقدس، ومصر، والإسكندرية، وغيرها من البلاد[(٣)].

ونشأة أبي العباس في هذه البيئة العلمية الصالحة كان له أثر كبير على مستقبل حياته وتوجهه للعلم، وجده في طلبه.

وقد عاش القرطبي الشطر الأول من حياته في قرطبة، وإن تخلل ذلك رحلات في سائر البلاد الإسلامية ـ كما سبق ذكره ـ حينما رحل مع والده في سن الصغر إلى الشام ومصر والحجاز، عاد بعدها إلى قرطبة، إذ رحلته تلك قبل مجاوزته الاثنتي عشرة سنة، بدليل أخذه من القاسم بن فيرة بمصر، وهو قد توفي سنة (٥٩٠هـ)[(٤)].

وقد أخطأ من اعتبر رحلته هذه إلى مصر هي التي استقر فيها هناك،

(١) المفهم (١/ ٨٥).

(٢) تحقيق كتاب الإيمان من المفهم للطريري (١/ ٨٠).

(٣) الديباج المذهب ص(١٣١).

(٤) وفيات الأعيان (٤/ ٧٢)، نفح الطيب (٢/ ٢٢).

إذ وجد دليل على وجوده في قرطبة بعد هذا التاريخ.

فقد ذكر أنه سمع صحيح مسلم في قرطبة سنة (٦٠٧هـ)[١].

وقد ذكر ابن مسدي[٢] أنه لقيه بغرناطة سنة (٦١٤هـ)[٣].

وقد رحل إلى الحج سنة (٦١٧هـ)[٤] حيث قال في رحلته تلك: «لما

---

(١) تلخيص صحيح مسلم للقرطبي (١/ ٣٤).

(٢) محمد بن يوسف بن موسى بن مسدي المهلبي الغرناطي، محدث، فقيه، مقرىء، رحل إلى المشرق، ثم جاور بمكة، من آثاره: «أعلام الناسك بأحكام المناسك». توفي سنة (٣٦٣هـ). الديباج المذهب ص(٤٢٠)، معجم المؤلفين (٣/ ٧٩٠).

(٣) توضيح المشتبه لابن ناصر الدين الدمشقي (٨/ ١٣٩).

(٤) تغلب الإفرنج على دمياط سنة (٦١٥هـ) وانكسروا سنة (٦١٧هـ) على يد الكامل محمد بن العادل الأيوبي، وتغلبوا عليها مرة أخرى سنة (٦٤٧هـ)، وانكسروا سنة (٦٤٨هـ). البداية والنهاية (١٣/ ٨٦٦، ٩١، ٩٩، ١٨٩، ١٩٠)، الكامل في التاريخ (١٠/ ٣٩٤، ٤٠٠).

وما ذكره القرطبي هنا إما سنة (٦١٧هـ) أو سنة (٦٤٨هـ)، وقد رجَّح الدكتور محمد أباالخيل في كتابه «جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى» أن كلام القرطبي هنا سنة (٦٤٧هـ)، ورجح الدكتور عبدالوهاب الطريري في تحقيقه للمفهم أن هذا سنة (٦١٧هـ)، وهو الذي يترجح عندي لأسباب، منها: أن قرطبة ساءت أحوالها فخرج عامة أهلها خصوصًا العلماء وطلبة العلم، خوفًا على أنفسهم من تسلُّط النصارى، خصوصًا بعد سقوط قرطبة سنة (٦٣٣هـ)، وكان فيمن خرج أبوعبدالله القرطبي المفسر، وأبوالقاسم أخو أبي العباس القرطبي، قال أبوعبدالله القرطبي: «ولقد أخبرني صاحبنا أبوالقاسم رحمه الله أخو شيخنا أبي العباس أحمد بن عمر رحمه الله أنه ربط نحوًا من خمسين امرأة واحدة بعد الأخرى حتى خرجوا من قرطبة أعادها الله». التذكرة (٧٢٤)، وقد أُسر عدد من العلماء في قرطبة حينما تغلب النصارى عليها، فمن المستبعد أن يمكث أبوالعباس فيها خمسة عشر عامًا بعد سقوطها وهو الذي تصدى للنصارى باللسان والسنان، وقد ألَّف كتابه القيم «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام» ولو بقي لامتدت إليه يد الحقد، كما امتدت إلى غيره من العلماء. إضافة إلى أن أباالعباس من خلال الوقوف على سيرته وعلى أسماء شيوخه يتضح أنه قد أخذ منهم في مصر بعد استقراره فيها ولا يكون ذلك إذا كان استيطانه فيها بعد (٦٤٨هـ) حيث جاوز غالبًا سن الطلب، فقد بلغ السبعين سنة إضافة إلى قصر المدة التي بقيها في مصر على هذا الرأي حيث تكون أقل من تسع سنوات، وهذه مدة قصيرة لا يتسنى خلالها قراءة التلاميذ عليه، وانتشار علمه، وذياع صيته، ولم يذكر له جلوس للتدريس في قرطبة ويبعد أن يبلغ هذا السن في قرطبة وليس له تلاميذ فيها. فالذي يترجح عندي أن وصف هذا الحال لدمياط يعود إلى استيلاء الإفرنج الأول عليها، =

وصلت إلى تونس قاصدًا إلى الحج سمعت أخبارًا سيئة عن البلاد المصرية، من جهة العدو الذي غلب على دمياط، فعزمت على المُقام بتونس إلى أن ينجلي أمر العدو، فجدد الله عزمًا وأزال عني ما كنت أتخوفه من أمر العدو، وسافرت إلى أن وصلت إلى الإسكندرية، فوجدتها والديار المصرية على أشد خوف وأعظم كرب، والعدو قد استفحل أمره، وعظمت شوكته، فلم أكمل في الإسكندرية عشرة أيام حتى كسر الله العدو، ومكّن منه من غير صنع أحد من المخلوقين، بل بلطف أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين»(١).

وهل عاد بعد هذه الرحلة إلى قرطبة أم كان هذا هو الاستقرار النهائي له في الإسكندرية؟ الله أعلم بذلك!.

المقصود أنه استقر في الإسكندرية وانتقل من قرطبة بعدما ساءت أحوالها انتقالاً نهائيًا. فكان أن قضى شطر حياته الأخير في الإسكندرية حيث تصدى للتدريس ونفع الناس هناك.

قال ابن فرحون: «نزل الإسكندرية واستوطنها ودرّس بها»(٢).

المطلب الثالث: أسرتــه:

لم أقف على ترجمة لوالده ولا ذكر لأسرته، سوى ما ذكره تلميذه أبوعبدالله القرطبي حينما أشار إلى أخيه أبي القاسم حيث قال: «ولقد أخبرني صاحبنا أبوالقاسم رحمه الله أنه ربط نحوًا من خمسين امرأة واحدة بعد أخرى في حبل مخافة سبي العدو، حتى خرجوا من قرطبة أعادها الله»(٣).

ولم أقف أيضًا على شيء يدل على زواجه وإنجابه، إلاَّ ما ذكره هو عن نفسه في «المفهم» حيث قال: «ومنها أني تزوجت امرأة، وقبل الدخول بها حُدِّثْتُ عن صفتها ما أوقع في قلبي نفرة، فأُريتها في النوم على الصفة التي كانت عليها في بيتها، ثم إني لما اجتمعت بها وجدتها هي التي أريتها

= وانكسارهم سنة (٦١٧هـ) هو الموافق لحاله وسيرته والله تعالى أعلم.

(١) المفهم (٦/ ٢٥).

(٢) الديباج المذهب ص(١٣٠).

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة لأبي عبدالله القرطبي ص(٧٢٤).

في النوم»(١).

وقد يكون تزوج فلم يوفق فآثر العزوبة بعد، وربما يؤيد هذا الظن ما ذهب إليه من تفضيله التفرغ للعبادة على الزواج، فبعد ذكره لأقوال القائلين بتفضيل الزواج على التفرغ منه للعبادة قال: «وحديث أنس وسهيل يدلان على أن التزويج أفضل من التفرغ للعبادة، وهو أحد القولين المتقدمين، ويمكن أن يقال كان ذلك في أول الإسلام، لِمَا كان عليه النساء من المعونة على الدين والدنيا، وقلة الكلفة، والتعاون على البر والتقوى، والحنو والشفقة على الأزواج، وأما في هذه الأزمان فنعوذ بالله من الشيطان والنسوان، فوالله الذي لا إله إلاَّ هو لقد حلت العزبة والعزلة بل وتعين الفرار من فتنتهن والرحلة، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله»(٢).

وقال أيضًا في شرحه لدعاء الرسول ﷺ لأنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بقوله: «**اللهُمَّ أكْثِرْ مالَهُ وَوَلَدَهُ**»(٣).

قال: «يدل على إباحة الاستكثار من المال والولد والعيال، لكن إذا لم يشغلك ذلك عن الله تعالى، ولا عن القيام بحقوقه، لكن لما كانت سلامة الدين مع ذلك نادرة، والفتن والآفات غالبة، تعين التقلل من ذلك، والفرار مما هنالك، ولولا دعوة النبي ﷺ لأنس بالبركة لخيف عليه من الإكثار الهلكة، ألا ترى أن الله تعالى قد حذَّرنا من آفات الأموال والأولاد، ونبَّه على المفاسد الناشئة من ذلك، فقال: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(٤).

وصدر الكلام بإنما الحاصرة المحققة، فكأنه قال: لا تكون الأموال والأولاد إلاَّ فتنة، يعني في الغالب، ثم قال بعد ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

(١) المفهم (٦/ ٢٥).
(٢) المفهم (٤/ ٨٩).
(٣) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء بكثرة المال والولد مع البركة ح/ ٦٣٧٨ (١١/ ١٨٦)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه ح/ ٢٤٨٠ (١٦/ ٢٧٢).
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.

إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾[١].

ووجه عداوتهما. أن محبتهما موجبة لانصراف القلوب إليهما، والسعي في تحصيل أغراضهما، واشتغالهما بما غلب عليهما من ذلك عما يجب عليهما من حقوق الله تعالى، ومع غلبة ذلك تذهب الأديان ويعم الخسران، فأي عداوة أعظم من عداوة من يدمر دينك هذا الدمار ويورثك عقوبة النار»[٢].

المطلب الرابع : وفـاتـه :

بعد عمر مديد حافل بالعلم والعمل قارب الثمانين سنة توفي أبوالعباس القرطبي في مدينة الإسكندرية من بلاد مصر عام (٦٥٦هـ) في شهر ذي القعدة. وقد اختُلِف في يوم وفاته من ذلك الشهر فقيل في الرابع منه[٣]، وقيل في الرابع عشر[٤]، وقيل في الرابع والعشرين[٥]، عن ثمان وسبعين سنة.

وقد اتفقت المصادر في ذلك سوى ما ذكره ابن فرحون، ويبدو أنه قد وهم في ذلك، أو أن التاريخ قد تصحف حيث جعله سنة (٦٢٦هـ)[٦] وقد تفرد بهذا الوهم.

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١٤.
(٢) المفهم (٦/ ٤١٢).
(٣) نفح الطيب (٢/ ٦١٥).
(٤) ذيل مرآة الزمان لموسى اليونيني (١/ ٩٥).
(٥) المقفى الكبير لتقي الدين المقريزي (١/ ٥٤٥).
(٦) الديباج المذهب ص(١٣١).

المبحث الثالث
حياته العلمية

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: **طلبه للعلم ورحلاته فيه**

المطلب الثاني: **شيوخه**

المطلب الثالث: **تلاميذه**

المطلب الرابع: **مؤلفاته**

المطلب الخامس: **مذهبه وعقيدته**

المطلب السادس: **علمه وثناء العلماء عليه**

المطلب الأول : طلبه للعلم ورحلاته فيه :

بدأ أبوالعباس بطلب العلم في مسقط رأسه «قرطبة» حيث أخذ عن علمائها ولازمهم في صغره.

قال ابن كثير[١]: «ولد بقرطبة سنة (٥٧٨هـ) وسمع الكثير هناك»[٢].

ورحل لطلب العلم مع والده، وهو دون البلوغ، فطاف حواضر العلم في أنحاء العالم الإسلامي،في الحجاز ومصر والشام والمغرب، وسمع من العلماء هناك. قال ابن فرحون: «رحل أبوالعباس مع أبيه من الأندلس في سن الصغر فسمع كثيرًا بمكة والمدينة والقدس ومصر والإسكندرية وغيرها من البلاد»[٣].

ورحلاته هذه وتطوافه سائر هذه البلدان مع بعدها عن موطنه، وتحمله ما في تلك الأسفار من المشاق والأخطار يدل على أن البلاد القريبة من بلده سيكون لها النصيب الأكبر، والوقت الأطول من هذه الرحلات العلمية لسهولة الوصول إليها، وهو ما أفادتنا به المصادر من أنه طاف عامة بلدان المغرب، ولقي العلماء فيها، وسمع منهم. قال ابن فرحون: «سمع الحديث من مشايخ المغرب، فلقي بفاس أباالقاسم عبدالرحمن بن عيسى ابن الملجوم الأزدي، وسمع بتلمسان من أبي عبدالله محمد بن عبدالرحمن التجيبي، ومن قاضيها أبي محمد عبدالله بن سليمان بن حوط الله وبسبته من عبدالحق الخزرجي»[٤].

ولا شك أن القرطبي قد استفاد من هذه الرحلات الالتقاء بعدد كبير من العلماء في مختلف بلدان العالم الإسلامي.

---

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، أبوالفداء، أحد أعلام عصره، من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، مفسر، محدث، مؤرخ، من آثاره: «تفسير القرآن العظيم»، «اختصار علوم الحديث». توفي سنة (٧٧٤هـ). الدرر الكامنة (١/ ٣٧٣)، طبقات الشافعية(٣/ ٨٥).

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٢٢٦).

(٣) الديباج المذهب ص(١٣١)

(٤) الديباج المذهب، ص(١٣١).

وبعد استقراره في مصر أخذ عن علمائها مع تصديه للتدريس فيها.

وكان في بداية طلبه قد اشتغل بعلم الكلام ثم تركه واتجه للفقه والحديث.

قال ابن مسدي: «أخذ نفسه بعلم الكلام وأن الجوهر الفرد لا يقبل الانقسام وتغلغل في تلك الشعاب عدة أحقاب»[١].

وقال المقري: «وكان يشتغل أولاً بالمعقول»[٢] ويدل على ذلك تمكنه من علم الكلام ورده على الخائضين فيه[٣].

المطلب الثاني: شيوخه:

أخذ أبوالعباس العلم عن عدد من العلماء سواء في المشرق أو المغرب، وذلك خلال رحلاته العلمية، وتطوافه سائر الحواضر الإسلامية، ولكن مصادر ترجمته لم تزودنا إلاَّ بعدد قليل منهم، لا يتناسبُ مع ما ذكر من كثرة رحلاته وتطوافه بسائر بلاد الإسلام، منذ نعومة أظفاره، فمنهم:

١ـ **أبومحمد القاسم بن فيرة بن أبي القاسم الشاطبي**، المقرىء الضرير، عالم بالقراءات، محدث، مفسر، لغوي، له «حرز الأماني ووجه التهاني» قصيدة تزيد على ألف بيت في علم القراءات، وهي عمدة في هذا العلم، توفي بمصر سنة (٥٩٠هـ)[٤].

٢ـ **أبوذر مصعب بن محمد بن مسعود الخشني**، المحدث، الفقيه، اللغوي، إمامٌ في اللغة، ولي القضاء بجيان، ورحل إلى فاس، واستوطنها، وبها مات سنة (٦٠٤هـ). له عدة مؤلفات، منها: «شرح كتاب سيبويه»[٥]. ذكره القرطبي في المفهم حيث قال: «وقد رويته كذلك من طريق شيخنا أبي ذر بن مسعود الخشني»[٦].

---

(١) توضيح المشتبه (٨/ ١٣٩).

(٢) نفح الطيب (٢/ ٦١٥).

(٣) انظر على سبيل المثال: المفهم (٦/ ٦٩٠).

(٤) شجرة النور (١٩٤)، طبقات القراء للذهبي (٢/ ٨٨٣)

(٥) شذرات الذهب (٧/ ٢٧)، معجم المؤلفين(٣/ ٨٨).

(٦) المفهم (٤/ ٤٨٠).

٣ـ **أبوالقاسم عبدالرحمن بن يوسف الأزدي ابن الملجوم الزهراني**، من أهل فاس، إمامٌ في اللغة والأدب، لقيه القرطبي بفاس، وسمع منه، توفي سنة (٦٠٥هـ)[١].

٤ـ **أبوالصبر أيوب بن محمد الفهري**، من أهل سبته، رحل إلى الأندلس والمشرق في طلب العلم، وأخذ عن عدد كبير من العلماء، توفي شهيدًا في معركة العقاب بالأندلس سنة (٦٠٩هـ)[٢]. ذكره القرطبي في المفهم فقال: «وقد وجدت في أصل شيخنا أبي الصبر أيوب بن محمد الفهري السبتي»[٣]، وكرر ذكره في أكثر من موضع[٤].

٥ـ **أبوعبدالله محمدبن عبدالرحمن التجيبي**، من أهل إشبيلية، طاف عامة بلاد الأندلس لطلب العلم، ثم استوطن تلمسان، وفيها سمع منه القرطبي، وله عدة مؤلفات، منها: «الترغيب في الجهاد» توفي سنة (٦١٠هـ)[٥].

٦ـ **أبومحمد عبدالله بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري الحارثي**، الفقيه، الأصولي، النحوي، الأديب، الحافظ، ولي القضاء في قرطبة وإشبيلية وسبتة وغيرها من بلاد الأندلس، توفي سنة (٦١٢هـ)[٦]. ذكره القرطبي في المفهم فقال: «فممن رويته عنه... والشيخ الفقيه القاضي الأعدل العلم الأعلم، أبومحمد عبدالله بن سليمان بن داود بن حوط الله قراءة عليه وسماعًا لكثير منه وإجازة لسائره وذلك بقرطبة»[٧].

٧ـ **أبوإبراهيم تقي الدين عوض بن محمود الحميري البوستي المالكي**، الفقيه الزاهد، العابد، سمع منه القرطبي بمصر توفي سنة (٦٣٣هـ)[٨].

---

(١) جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس لأحمد بن القاضي المكناسي (٢/٣٩٦)، معجم المؤلفين (٢/١٢٨).
(٢) شجرة النور (١/١٨٤)، جذوة الاقتباس (١/١٦٨).
(٣) المفهم (١/٤٣٠).
(٤) انظر: المفهم (٦/٤٠٩، ٤٢٣، ٤٣٢، ٧/٤٦، ١٦٩، ٣٥١).
(٥) نفح الطيب (٢/٣٧٩)، الأعلام (٦/١٩١).
(٦) الديباج المذهب ص(٢٣١)، طبقات الحفاظ، ص(٥١٨) ترجمة (١٠٩٠).
(٧) المفهم (١/١٠٣).
(٨) التكملة (٣/٤١٢)، توضيح المشتبه(٨/١٣٩).

ذكره القرطبي ممن روى عنهم صحيح مسلم فقال: قرأته كله على الشيخ الفقيه الزاهد الفاضل تقي الدين أبي إبراهيم عوض بن محمود[١].

٨ـ **أبوالحسين مرتضي بن العفيف حاتم بن المسلم الحارثي المصري،** المقرىء المحدث العابد، الزاهد، توفي بمصر سنة (٦٣٤هـ)[٢]. وقد ذكره القرطبي فيمن روى عنهم صحيح مسلم فقال: وممن أجازه لي الشيخ الفقيه المحدث الزاهد التلاء للقرآن أبوالحسين مرتضي بن العفيف المقدسي»[٣].

٩ـ **أبوجعفر أحمد بن محمد القيسي القرطبي** المعروف بابن حجة المقرىء المحدث الحافظ، درَّس بقرطبة وإشبيلية له مؤلفات منها: «منهاج العباد» أسر وعذب ثم توفي سنة (٦٤٣هـ)[٤].

١٠ـ **أبوالفضل أحمد بن عبدالعزيز بن الحسين بن الجباب التميمي السعدي المالكي،** فخر القضاة، حدث عنه الدمياطي والمنذري، توفي سنة (٦٤٨هـ)[٥]. ذكره القرطبي فيمن روى عنهم صحيح مسلم فقال: «ومنهم القاضي فخر القضاة أبوالفضل بن الجباب وأجازه لي»[٦].

١١ـ **أبومحمد زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري المصري الشافعي،** الإمام، الحافظ، الشهير، له عدة مؤلفات، منها: «اختصار صحيح مسلم» و«الترغيب والترهيب» وغيرها، توفي سنة (٦٥٦هـ)[٧]. وقد ذكره القرطبي في المفهم، فقال: «قال شيخنا أبومحمد عبدالعظيم المنذري»[٨].

---

(١) المفهم (١/ ١٠٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١١)، شذرات الذهب (٧/ ٢٦٥).
(٣) المفهم (١/ ١٠٤).
(٤) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (٣/ ٣٨٢)، معجم المؤلفين (١/ ٢٩٥)، التذكرة ص(٣٩).
(٥) الوافي بالوفيات (٨/ ٥٥)، شذرات الذهب (٥/ ٢٤٠).
(٦) المفهم (١/ ١٠٤).
(٧) طبقات الحفاظ ص(٥٢٩) ترجمة (١١١٢)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٣١٩).
(٨) المفهم (٣/ ٧١١).

ومنهم عبدالحق بن محمد بن عبدالحق الخزرجي، وأبوالحسن علي بن محمد اليحصبي[١]، وأبوجعفر بن أبي يحيى، وعبدالعزيز بن أبي الوليد يوسف الدباغ، وأبوبكر محمد بن عبدالله العربي المعافري[٢].

المطلب الثالث : تلاميـذه :

جلس أبوالعباس للتدريس في الأندلس حال وجوده فيها، وفي مصر بعد استقراره في الإسكندرية، والتف حوله أعداد كبيرة من التلاميذ للاستفادة من علمه.

قال المقري: «ثم انتقل إلى المشرق، واشتهر وطار صيته، وأخذ الناس عنه، وانتفعوا بكتبه»[٣].

وقال ابن فرحون: «وأخذ عنه الناس من أهل المشرق والمغرب»[٤]. ومع ذلك لم نعرف من تلاميذه إلاَّ القليل، بل أقل القليل. فمنهم:

١ـ **أبوعبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي**، المفسر، الحافظ، ولد في قرطبة وعاش بها وتعلم، ثم انتقل إلى مصر واستوطن الإسكندرية، وأخذ عن علمائها، له عدة مؤلفات، منها: «الجامع لأحكام القرآن» تفسير للقرآن الكريم في مجلدات و«التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» وغيرها، توفي سنة (٦٧١هـ)[٥]. وهو أشهر تلاميذه وأكثرهم ملازمة له، وكان كثير الذكر له، ملازمًا للثناء عليه، فكثير ما ينقل عنه فيقول: قال شيخنا الإمام أبوالعباس الفقيه المحدث[٦].

---

(١) ذكره القرطبي في التلخيص فقال: فممن رويته عنه الشيخ الفقيه، القاضي، المحدث، الثقة، الثبت، أبوالحسن علي بن الشيخ الزاهد الفاضل المحدث المقيد، أبي عبدالله محمد بن علي بن حفص اليحصبي. التلخيص (١/ ٣٣).

(٢) لم أقف لهؤلاء على ترجمة.

(٣) نفح الطيب (٢/ ٦١٥).

(٤) الديباج المذهب ص (١٣١).

(٥) نفح الطيب (٢/ ٤٠٩) طبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٦٩).

(٦) التذكرة ص (١٧٠).

وقد نقل عنه في كتابيه السابقين نقولات كثيرة[١].

٢ـ **أبومحمد شرف الدين عبدالمؤمن بن خلف الدمياطي، الشافعي**، محدث، فقيه، إمام، حافظ، لغوي، عالم بالنسب، له عدة مؤلفات، منها: «المتجر الرابح» و«الخيل» وغيرها، توفي سنة (٧٠٥هـ)[٢]. وقد ذكر القرطبي في معجم شيوخه فقال: «اجتمعت به وأخذت عنه شيئًا»[٣].

٣ـ **أبوالحسن بن يحيى القرشي**[٤]. قال ابن فرحون: «كتب عنه الحافظ أبوالحسن بن يحيى القرشي، وذكره في معجم شيوخه»[٥].

ومما لا شك فيه أن عدد التلاميذ الذين أخذوا عنه أكثر من هؤلاء بكثير، ولكن لم يصلنا من تلاميذه إلاَّ هؤلاء لشح مراجع ترجمته كما سبق.

كما تتلمذ على كتبه عدد كبير من جهابذة العلماء وطلبة العلم خلال القرون التي تلته إلى عصرنا هذا.

وقد ذكر ابن فرحون أن أبا عبدالله ابن الأبار أخذ عنه بالإجازة. قال: «وحدث عنه بالإجازة أبوعبدالله بن الأبار»[٦].

المطلب الرابع: مؤلفـاته:

إن علمية أبي العباس القرطبي تجلت وظهرت فيما خلف لنا من تراث علمي نفيس في مؤلفاته التي شملت سائر فنون العلم في الفقه وأصوله، والعقيدة والحديث. وإن كان لم يصل إلينا إلاَّ القليل من هذه المؤلفات،

---

(١) انظر على سبيل المثال: التذكرة ص(٣٩، ١٢٠، ١٨٩، ١٩١، ٢٣٦، ٣٧٧، ٤٢٢، ٦٩٠)، والجامع الأحكام القرآن (١/ ١٦٨، ٢/ ٢٤٨، ٣/ ٢٥، ٦٣، ٤/ ١١، ١٣، ٥٨، ٦٠، ٩٠، ٥/ ١٩، ٣٠، ٦٩، ٦/ ٣١، ١٢٣، ١٩١، ٧/ ٤٠، ٨/ ٦، ٩٤، ٢١٨، ١١/ ٢٧، ٢٨، ١٢/ ١٧٥، ١٥/ ١٥٠، ١٩٠، ٢٠٠ وغيرها.

(٢) طبقات الحفاظ ص (٥٤٠) ترجمة (١١٣٤)، الدرر الكامنة(٢/ ٤١٧).

(٣) الديباج المذهب ص (١٣١).

(٤) لم أجد له ترجمة.

(٥) الديباج المذهب ص (١٣١).

(٦) المرجع السابق.

ولعل أشهرها كتاب «المفهم» الذي لم يطبع إلاَّ قبل سنوات، وإن كان قد حظي باهتمام واسع من قبل العلماء السابقين إذ أصبح مرجعًا لكثير ممن ألفوا بعده.

ونعرف هذه المؤلفات من خلال ذكرها في كتب التراجم ممن ترجموا له أو من خلال ذكره لها في كتاب «المفهم» وهي كالتالي مرتبة على حروف المعجم:

١ـ إظهار إدبار من أجاز الوطء في الأدبار:

وقد أحال عليه في المفهم فقال: «جزء كتبناه في المسألة سميناه «إظهار إدبار من أجاز الوطء في الأدبار وذكرنا فيه غاية أدلة الفريقين وتمسكاتهم من الكتاب والسنة على طريقة التحقيق والتحرير والنقل، ومن وقف على ذلك قضى منه العجب العجاب وعلم أنه لم يكتب مثله في هذا الباب»[١].

٢ـ الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ:

وقد ألَّفه ردًّا على أحد النصارى الذي ألَّف كتابًا سماه «تثليث الوحدانية في معرفة الله». وقد تهجم فيه على دين الإسلام، وانتقصه، فتصدى له القرطبي ورد باطله، ودحض شبهه بهذا الكتاب، وقد طبع الكتاب بتحقيق الدكتور: أحمد حجازي السقا، عن دار التراث العربي، ولم يُنسب في طبعته هذه لأبي العباس، وقد نسبه بعض الباحثين لأبي عبدالله القرطبي[٢]، ورد الدكتور محمد أباالخيل نسبة الكتاب للقرطبي المفسر وناقش نسبته لأبي العباس خصوصًا بعد وقوفه على إحالات في المفهم للكتاب المذكور، ولكنه تردد في الجزم بنسبته إليه؛ لأن الإحالات التي ذكرها لم تصرح باسمه كاملاً بل اكتفت بجزء من الاسم[٣] كما سيتبين بعد قليل.

---

(١) المفهم (٤/١٥٧).

(٢) وهم البغدادي في هداية العارفين (٦/١٢٩) وبروكلمان في تاريخ الأدب العربي (١/٧٣٨)، ومشهور حسن في ترجمته للقرطبي المفسر ص (٥/٢٠٣).

(٣) انظر: جهود علماء الأندلس في الرد على النصارى، للدكتور محمد أباالخيل =

ولعله لم يقف على الإحالة التي ذكر القرطبي فيها الكتاب باسمه كاملاً مما يزول معه اللبس ونجزم بنسبته إليه، وأن ما سبق من إحالات ذكر فيها الاسم مختصرًا إنما كان ذلك حسب مناسبة الإحالة.

فالكتاب لأبي العباس القرطبي جزمًا لا شك فيه، حيث ذكره في المفهم في مواضع كثيرة بذكر اسمه مختصرًا حيث قال مرة: «في كتابنا في الرد على النصارى»[١]، وقال مرة أخرى: «في كتابنا المسمى الإعلام بصحة نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام»[٢]، وذكره كثيرًا باسم الإعلام[٣]. وهو بهذا يريد الاختصار ودليل الاستشهاد، وإلاَّ فقد ذكره صريحًا باسمه كاملاً في كتاب التفسير حين قال: «كما قد نقلناه في كتابنا المسمى: بكتاب الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ»[٤].

٣ـ تلخيص كتاب مسلم:

وقد بين سبب وضعه لهذا التلخيص فقال: «لما تقاصرت الهمم في هذا الزمان عن بلوغ الغايات، من حفظ جميع هذا الكتاب بما اشتمل عليه من الأسانيد والروايات، أشار من إشارته غنم، وطاعته حتم، إلى تقريبه على المتحفِّظ، وتيسيره على المتفقه، بأن نختصر أسانيده، ونحذف مكرره.. فاستعنت بالله تعالى وبادرت إلى مقتضى الإشارة»[٥].

والمفهم شرح لهذا التلخيص كما ذكر هو في مقدمة المفهم حيث قال: «وسميته المُفْهِم لما أشْكَلَ من تلخيص كتاب مسلم»[٦].

فلخص مقدمة الصحيح بذكر أهم مقاصدها، واقتصر في الإسناد على

= ص(٣٩٩ـ٤٠٢).
(١) المفهم (٥/ ٢٠٣).
(٢) المفهم (٦/ ٥٠).
(٣) انظر: المفهم (٦/ ٥٢، ١٤٨، ١٧٦، ١٨٣).
(٤) المفهم (٧/ ٤٠٤).
(٥) التلخيص (١/ ٣٤).
(٦) المفهم (١/ ٨٤).

الصحابي، إلاَّ أن تدعو حاجة لذكر غيره، وساق أكمل المتون، وألحق بها ما في غيرها من زيادة فائدة حيث قال: فاقتصرت في الإسناد على ذكر الصاحب إلاَّ أن تدعو الحاجة إلى ذكر غيره، فأذكره لزيادة فائدة، وحصول عائدة، ومن تكرار المتون على أكملها مساقًا، وأحسنها سياقًا، ملحقًا به ما في غيره من الرواية»(١).

وقد حافظ على ترتيب مسلم إلاَّ أن تدعو الضرورة للإخلال بهذا الترتيب في بعض الأحيان، وقد بيَّن ذلك بقوله: «وربما قدمت بعض الأحاديث وأخَّرت، حيثما اضطررت، حرصًا على ضم الشيء لمشاكله، وتقريبًا له على متناوله»(٢).

وقد بوَّب كتابه بما تتضمنه الأحاديث التي يضعها تحت الباب، وقد يجعل معنى من معاني الحديث أو جزءًا منه ترجمة عليه، وقد بيَّن هذا بقوله: «وننبه على ما تضمنته أحاديثه بتراجم تسفر عن معناها وتدل الطالب على موضوعها وفحواها»(٣).

٤ـ الجامع لمقاصد الأصول:

وهو كتابٌ في أصول الفقه، أحال عليه في المفهم كثيرًا في مواضع متعددة(٤).

واختلفت عباراته في هذه الإحالات، فمرة يقول: أوضحنا ذلك في الأصول، ومرة يقول: بيَّنا ذلك في أصول الفقه.

٥ـ الجدل:

وقد أكثر الزركشي من النقل عنه في البحر المحيط(٥)، ولم يتعرض القرطبي لذكره، إنما ذكره الزركشي في البحر المحيط حيث قال في مسألة

---

(١) التلخيص (١/ ٣٥).
(٢) التلخيص (١/ ٣٥).
(٣) المرجع السابق (١/ ٣٤).
(٤) انظر: المفهم (١/ ١٣١، ١٦٩)، (٤/ ٣٤١)، (٤٥٧)، ٤٩٢، ٥٥٩). (٥/ ١٦٣).
(٥) ذكر الطريري (٤٨) إحالة في البحر المحيط على كتاب القرطبي هذا. انظر: تحقيق كتاب الإيمان من المفهم (١/ ٢٦٥).

السبر والتقسيم: «ما ذكرناه أن هذا النوع من المسالك هو المشهور، وقد نازع فيه جماعة من المتأخرين منهم أبوالعباس القرطبي في جدله»(١).

٦ـ جزء في صلاة الآبق والسكران:

وقد ذكره في المفهم عند حديثه عن عدم قبول صلاة الآبق في كتاب الإيمان حيث قال: «فكان هذا كما قلناه في قوله عليه الصلاة والسلام: «**إن شارب الخمر لا تقبل منه صلاة أربعين يومًا**»(٢). وقد كنا كتبنا في ذلك الحديث جزءًا حسنًا»(٣).

٧ـ جزء في الطلاق الثلاث:

وقد ذكره في المفهم في كتاب الطلاق باب إمضاء الطلاق الثلاث من كلمة، حيث قال بعد عرضه للأقوال في هذه المسألة: «وقد أشبعنا القول في هذه المسألة في جزء كتبناه في هذه المسألة سؤالاً وجوابًا»(٤).

٨ـ جزء في كراء الأرض:

وقد ذكره في المفهم عند شرحه لحديث النهي عن كراء الأرض في كتاب البيوع، حيث قال بعد مناقشة المسألة: «وقد كتبنا في هذه المسألة جزءًا حسنًا»(٥).

٩ـ شرح التلقين:

وهو شرح لكتاب التلقين في الفقه المالكي للقاضي عبدالوهاب البغدادي. وقد ذكره في المفهم في كتاب الطهارة عند حديثه عن فرض غسل الرجلين في الوضوء، حيث قال بعد ذكر الأقوال في ذلك: «وقد

---

(١) البحر المحيط للزركشي (٥/ ٢٢٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الأشربة، باب من شرب الخمر لم تقبل له صلاة، والنسائي في كتاب الأشربة، باب ذكر الرواية المبينة عن صلوات شارب الخمر، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وقال: أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، وإسناده صحيح على شرط مسلم (٢/ ٣٢٦) حديث (٧٠٩)..

(٣) المفهم (١/ ٢٥٧).

(٤) المفهم (٤/ ٢٣٨).

(٥) المفهم (٤/ ٤٠٨).

طولنا النفس في هذه المسألة في كتابنا في «شرح التلقين» أعان الله على تمامه»[١].

وبعدم وصول الكتاب إلينا لا ندري هل أتم شرح هذا الكتاب الذي بدأ به أم لا؟.

١٠ـ كشف القناع عن حكم الوجد والسماع:

وقد طُبع عام (١٤١١هـ) بتحقيق الدكتور عبدالله بن محمد الطريقي، وهو في مجمله ردٌّ على الصوفية المنحرفة الذين اتخذوا من هذا العمل عبادة تقربهم إلى الله بزعمهم، فبين بهذا الكتاب ضلالهم وانحرافهم، وناقش حكم الغناء وعرض الأقوال فيه بتحقيق وإنصاف.

وقد ألَّف هذا الكتاب أثناء تأليفه للمفهم بدليل إحالته فيه إلى المفهم[٢]، وإحالته في المفهم إليه[٣].

١١ـ مختصر الجامع لصحيح البخاري:

ولم يذكره في المفهم، إنما ذكره حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» حيث قال: «مختصر الشيخ الإمام جمال الدين أبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي، المتوفي سنة (٦٥٦هـ) ست وخمسين وستمائة بالإسكندرية أوله: الحمد لله الذي خص أهل السنة بالتوفيق»[٤].

وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح[٥].

ويوجد منه جزء في خزانة القرويين بفاس[٦].

١٢ـ المفهم لما أشكل في تلخيص كتاب مسلم:

وسيأتي التعريف به مفصلاً.

---

(١) المفهم (١/ ٤٩٦).
(٢) كشف القناع ص (٧٨).
(٣) المفهم (٣/ ٦٤٥).
(٤) كشف الظنون (١/ ٥٥٤)، وانظر أيضًا ذيل مرآة الزمان (١/ ٩٥)، وهدية العارفين (١/ ٩٦).
(٥) فتح الباري (٢/ ٢١٧، ١٠/ ١٠٣، ١١/ ٥٢٩).
(٦) فهرس مخطوطات خزانة القرويين بفاس (١٤٧).

وكما وهم من نسب كتاب أبي العباس «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام» لأبي عبدالله القرطبي، فقد وهم البعض فنسبوا كتاب «التذكرة في ذكر الموتى وأحوال الآخرة» لأبي العباس[١]، وهو خطأ ظاهر إذ اشتهرت نسبة «التذكرة» لأبي عبدالله حتى أصبحت علامة فارقة بينه وبين غيره من القرطبيين كما قال المقري: «وممن أخذ عنه القرطبي صاحب التذكرة»[٢].

المطلب الخامس : مذهبه الفقهي وعقيدته:

أولاً: مذهبه الفقهي :

يعتبر القرطبي أحد فقهاء المالكية في زمنه؛ذلك أنه درس بالأندلس والمغرب، وهي بلاد يتمذهب أهلها بالمذهب المالكي، فأخذ أصول المذهب عن شيوخه، وتبحر فيه، حتى عد أحد أعلامه ساعده في ذلك تمكنه من علم أصول الفقه وقوته فيه.

قال ابن فرحون عنه: «من أعيان المالكية»[٣].

وقال ابن العماد: «كان من كبار الأئمة»[٤].

وقال ابن كثير: «أبوالعباس الأنصاري القرطبي المالكي الفقيه المحدث»[٥].

وقال المقريزي: «فقيه مالكي محدث أصولي»[٦].

ولكنه لم يكن متعصبًا للمذهب، متمسكًا به ولو خالف الدليل، بل كان سالكًا لطريق الإنصاف، ساعيًا في اتباع الدليل، ولو خالف مالكًا أو المشهور من مذهبه.

---

(١) وهو عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين (١/ ٢١٤).
(٢) نفح الطيب (٢/ ٦١٥).
(٣) الديباج لمذهب ص (١٣٠).
(٤) شذرات الذهب (٣/ ٢٧٣).
(٥) البداية والنهاية (١٣/ ٢٢٦).
(٦) المقفى الكبير (١/ ٥٤٥).

قال الطريري: إلاَّ أن الشيخ أباالعباس مع ذلك كله لم ينزلق إلى وهدة التعصب الأعمى، ولم يتقيد بأغلال التقليد، فمع مذهبيته المالكية إلاَّ أنك لا ترى الغلو في إمامه، ولا التحطط على مخالفيه، ولا التقليد الجامد للمذهب في كل مسألة... وتتجلى سلامة أبي العباس من غلواء التعصب في مسائل كثيرة عرض لها في المفهم، ثم انقاد فيها إلى ما أداه اجتهاده مع مخالفته للمشهور من مذهب مالك»[١].

وقال المحققون للمفهم: «مالكي متضلع في مذهب الإمام مالك، ومستحضر لأقواله وأدلته، ولكنه يقف في بعض الأحيان مع الدليل ويصرح بمعارضته لمالك فيما ذهب إليه»[٢].

ثانيًا: عقيدته :

لقد حفل كتاب «المفهم» بالمباحث العقدية، وكان القرطبي طويل النفس في مناقشتها، والوقوف عندها، قويًّا في نصرة ما يراه من مسائل العقيدة، شديدًا في الرد على المخالفين له في ذلك.

وقد كان في بداية طلبه للعلم توجه للعلوم العقلية، والأخذ بأقوال المتكلمين.

قال ابن مسدي: «أخذ نفسه بعلم الكلام، وأن الجوهر الفرد لا يقبل الانقسام، وتغلغل في تلك الشعاب عدة أحقاب»[٣]. ولكنه انصرف بعد ذلك عنه بل رد على المتكلمين بكلام نفيس للغاية[٤].

وإن كان من خاض في هذه العلوم قلما ينجو دون أن يعلق به شيء منها.

ومن خلال هذه المباحث العقدية التي حفل بها المفهم نجد أباالعباس قد سلك طريقة الأشاعرة في غالب مسائل العقيدة خصوصًا في تأويل

---

(١) تحقيق كتاب الإيمان من المفهم (١/ ٢٥١).
(٢) مقدمة تحقيق المفهم (١/ ٣٥).
(٣) توضيح المشتبه (٨/ ١٣٩).
(٤) انظر: المفهم (١/ ١٤٥، ٦/ ٦٩٣).

الصفات التي تأولها الأشاعرة، وإن كان قد تردد في بعضها فلم يجزم بالتأويل، إلاَّ أنه تكلف في رد كثير مما يخالف ما ذهب إليه الأشاعرة وشنع على المخالفين لهم.

قال في تأويل إتيان الله تعالى ومجيئه: «لكن مع القطع بأن هذه الظواهر الواردة في الكتاب والسنة الموهمة للتجسيم والتشبيه يستحيل حملها على ظاهرها لما يعارضها من ظواهر أخرى كما قرره أئمتنا ولما دل العقل الصريح عليه»[١].

وقذف بالتجسيم من يثبت الصفات على مذهب السلف حيث قال: «اعتقدوا أن الباري تعالى جسم مجسم، وصورة مصورة، ذات وجه وعين وجنب ورجل وأصبع، تعالى الله عن ذلك... فالصحيح القول بتكفيرهم إذ لا فرق بينهم وبين عباد الأصنام والصور، ويستتابون، فإن تابوا، وإلاَّ قُتلوا كما يفعل بمن ارتد»[٢].

فنستطيع أن نقول أن القرطبي أشعري العقيدة، وإن كان من غير المتعصبين للأشاعرة، إذ ربما خالفهم في بعض أقوالهم كما سيتضح من خلال الرسالة على أنه رحمه الله كان شديدًا على الفرق الضالة المنحرفة عن الحق كالرافضة والمعتزلة والخوارج والصوفية وله ردود قوية عليهم.

المطلب السادس: علمه وثناء العلماء عليه:

إن ما خلفه الإمام أبو العباس القرطبي يدل على علميته وسعة ثقافته فمؤلفاته كثيرة، وفي فنون متعددة من العلم، في الفقه والحديث والعقيدة وغيرها، وهي لا شك تدل على ما وصل إليه من مكانة علمية، جعلت العلماء بل أكابر العلماء يعتمدون عليها وينقلون منها، ويكفي من ذلك اعتماد الحافظ ابن حجر على كتاب المفهم في شرحه لصحيح البخاري واعتماد الزركشي على كتاب القرطبي في الأصول، وغيرهم من العلماء في شتى فنون العلم.

---

(١) المفهم (١/ ٤١٩).

(٢) المفهم (٦/ ٦٩٧).

مع فقد غالب كتب هذا الإمام.

ولذا أثنى عليه العلماء بما هو أهله، قال المقري: «انتقل إلى المشرق واشتهر وطار صيته وأخذ الناس عنه، وانتفعوا بكتبه... كان بارعًا في الفقه والعربية عارفًا بالحديث... له اقتدار على توجيه المعاني بالاحتمال... وكان إمامًا عالمًا جامعًا»(١).

وقال محمد محمد مخلوف: «الإمام العمدة العلامة الفقيه المحدث المتقن الفهامة»(٢).

وقال ابن كثير: «أبوالعباس الأنصاري القرطبي المالكي الفقيه المحدث»(٣).

وقال الذهبي: «العلامة المحدث»(٤)، «عالم الإسكندرية»(٥) وقال ابن فرحون: «كان من الأئمة المشهورين والعلماء المعروفين جامعًا لمعرفة علوم منها: علم الحديث، والفقه، والعربية، وغير ذلك... وكان يشار إليه بالبلاغة والعلم والتقدم في علم الحديث والفضل التام وأخذ عنه الناس من أهل المشرق والمغرب»(٦).

وقال المقريزي: «فقيه مالكي محدث أصولي... وكان عالمًا محققًا ثقة»(٧).

---

(١) نفح الطيب (٢/ ٦١٥).
(٢) شجرة النور ص (١٩٤).
(٣) البداية والنهاية (١٣/ ٢٢٦).
(٤) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٣٨).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٣٢٣).
(٦) الديباج المذهب ص (١٣١).
(٧) المقفى الكبير (١/ ٥٤٥).

المبحث الرابع
التعريف بالكتاب وبيان أهميته

المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم

وهو موضوع هذه الرسالة وأعظم كتبه وأشهرها ونتعرف عليه من خلال النقاط التالية

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: **تسميته**

المطلب الثاني: **نسبته للقرطبي**

المطلب الثالث: **تأليفه**

المطلب الرابع: **أهميته**

المطلب الخامس: **مميزاته**

المطلب السادس: **منهج القرطبي فيه**

المطلب الأول: تسميـته:

لم يختلف في تسمية كتاب القرطبي هذا نظرًا لأنه نص على تسميته في مقدمته حيث قال: «وسميته المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»[١]. وقد ورد عند بعض من ترجموا له بل عند أغلبهم بتسميته «المفهم في شرح صحيح مسلم» وهو سياق على وجه الاختصار ومادام مؤلفه قد نصَّ على تسميته فلا اجتهاد مع النص.

المطلب الثاني: نسبته للقرطبي:

لقد أجمع كل من ترجم للقرطبي على نسبة هذا الكتاب له. بل لقد اشتهر القرطبي بهذا الكتاب حتى أصبح علامة فارقة بينه وبين غيره ممن يتفق معه في الاسم فإذا أُريد التعريف به قيل: القرطبي صاحب المفهم. وقد ذكر اسمه أيضًا في كتابه كشف القناع حيث قال: وقد بيَّنا ما قيل في شرط البخاري ومسلم في كتابنا الملقب بالمفهم لما أشكل من تلخيص مسلم[٢].

المطلب الثالث: تأليفـه:

لقد ذكر القرطبي سبب تأليفه لهذا الكتاب فقال: فلما حصل من تلخيص كتاب مسلم وترتيبه وتبويبه المأمول وسهل إلى حفظه وتحصيله الوصول رأينا أن نكمل فائدته للطالبين ونسهل السبيل إليه على الباحثين بشرح غريبه والتنبيه على نكت من إعرابه وعلى وجوه الاستدلال بأحاديثه وإيضاح مشكلاته حسب تبويبه وعلى مساق ترتيبه[٣].

ولم يذكر تحديد تاريخ تأليفه لهذا الكتاب لكن ورد ما يدل على أنه ألفه حال استقراره بمصر بعد رحيله من الأندلس منها قوله: وقد سمعنا ونحن بالأندلس أن بلدًا بشرقها خسف به وهلك كثير من أهله[٤].

---

(١) المفهم (١/ ٨٤).
(٢) كشف القناع ص (٧٨).
(٣) المفهم (١/ ٨٣).
(٤) المفهم (٧/ ٢٣٩).

فيغلب على الظن أنه ألفه في آخر عمره فيكون من آخر مؤلفاته بدليل إحالته فيه على كثير من كتبه.

المطلب الرابع: أهمية الكتاب:

يعتبر كتاب المفهم من أهم كتب شروح صحيح مسلم، وإن كان قد بقي حبيسًا قرونًا متطاولة.

قال المحققون للكتاب في بيان أهميته ومكانته: يعد كتاب المفهم ـ تجوزًا ـ شرحًا واضحًا ذا أهمية بالغة لصحيح الإمام مسلم فهو حلقة وصل بين المازري والقاضي عياض من جهة، وبين من جاء بعد أبي العباس القرطبي كالأبي والسنوسي... ويكفيه أهمية ومكانة أن اعتمده الإمامان النووي وابن حجر كمصدر مهم في شرحيهما على الصحيحين، ولا شك أن العلماء اهتموا فيما بعد بكتاب المفهم اهتمامًا واضحًا، فها نحن نجد بصماته عميقة فيما ألف بعده عند: الزواوي في كتابه «إكمال الإكمال» الذي جمع فيه بين المعلم والإكمال والمفهم والمنهاج: الأبي في كتابه «إكمال إكمال المُعْلم» الذي ذكر فيه أنه ضمنه كتب شراحه الأربعة: المازري وعياض والقرطبي والنووي. ثم يطالعنا التاريخ بكتاب «مكمل إكمال الإكمال» للسنوسي وغير ذلك من المصنفات التي اعتمدت على كتاب «المفهم» واستفادت منه[1].

قال المقري: «هو من أجل الكتب، ويكفي شرفًا اعتماد الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ عليه في كثير من المواضع»[2].

ومما يبين أهميته ومكانته، كثرة النقل عنه من علماء أجلاء، وفي كتب معتمدة فقد نقل عنه تلميذه القرطبي المفسر كثيرًا سواء في تفسيره أو

(١) مقدمة تحقيق المفهم (١/ ١٧، ١/ ١١).
(٢) نفح الطيب (٢/ ٦١٥) ولكن جاء في كتاب «الإمام النووي وأثره في علم الحديث» لأحمد الحداد أن الإمام النووي رحمه الله لم يستفد من المفهم بتاتًا حيث قال: وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ النووي رحمه الله لم يستفد من كتاب المفهم للقرطبي في شرحه هذا البتة، حيث لم يرجع إليه ولا في موطن واحد من شرحه مع كثرة مراجعه ومصادره. ص (٣٧٤).

في كتابه «التذكرة»[(١)]، وكذلك ابن حجر في كتابه «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» فقد نقل عنه في مواضع كثيرة[(٢)] بل نقل له كلامًا في صفحة كاملة[(٣)].

وكذلك أكثر العراقي[(٤)] من النقل عنه في كتابه «طرح التثريب»[(٥)].

كذلك نقل عنه الشيخ عبدالرحمن بن حسن[(٦)] في كتابه «فتح المجيد»[(٧)] وغيرهم من العلماء.

فهذه النقولات وغيرها تدل دلالة أكيدة على مكانة هذا الكتاب العلمية وأهميته.

المطلب الخامس: مميزاته:

اتضح لنا من خلال الفقرة السابقة أهمية كتاب المفهم، وعناية العلماء به، وكثرة استفادتهم منه، ولا شك أن ذلك يعود لما تميز به الكتاب من مميزات جعلته في طليعة كتب شرح السنة، ومن هذه المميزات ما يلي:

---

(١) انظر الإحالات عند ذكر تلاميذه ص(٨١).

(٢) وقد ذكر مؤلف «معجم المصنفات الواردة في فتح الباري» أكثر من مائة إحالة، انظرها ص (٢٤٧، ٤٠٧).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٣٦٢).

(٤) عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن الكردي المصري، الشافعي، المعروف بزين الدين ، العراقي، محدث، حافظ، فقيه، أصولي، له مصنفات كثيرة منها: «ألفية في علوم الحديث»، «المغني عن حمل الأسفار في تخريج مافي الإحياء من الأخبار»، «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث». توفي سنة(٨٠٦هـ) والكتاب له ولابنه ولي الدين المتوفي سنة(٨٢٦هـ) «الضوء اللامع» (٤/ ٧١)، «معجم المؤلفين» (٢/ ١٣٠، ٤/ ٧٤).

(٥) قد ذكر الطريري أنه وقف على (٣٨٢) إحالة، تحقيق كتاب الإيمان من المفهم (١/ ٣٤٩).

(٦) عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب التميمي، النجدي، حفيد الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب، طلب العلم في صغره على جده الشيخ محمد، ثم على عمه عبدالله بن محمد، ثم طلب العلم بمصر على علمائها عندما رُحِّل إليها بعد هدم الدرعية، من آثاره: «قرة عيون الموحدين»، «الرد على داود بن جرجيس». توفي سنة (١٢٨٥هـ). معجم المؤلفين (٢/ ٨٨)، الأعلام (٣/ ٣٠٤).

(٧) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص (٩٧).

ـ عنايته الفائقة بشرح الكلمات اللغوية والاستدلال عليها بالآيات القرآنية، والاستشهاد لها بالشعر العربي والأمثال والحكم[١].

ـ كما تميز بوضوح العبارة وسهولتها وعنايته بتحسين سياقته وتجميلها بالمحسنات اللفظية، والتي جاءت بعيدة عن التكلف، فكانت قريبة المتناول سهلة المأخذ بعيدة عن العسر والمشقة[٢].

ـ تميز بعنايته بالناحية الأصولية فكَثُر ربطه للقضايا الفرعية بالقضايا الأصولية، كما أصَّل قواعد أصولية بنصوص السنة، وبيَّن مأخذها منها إضافة إلى عرضه بعض المسائل الأصولية في أثناء شرحه وإبداء رأيه فيها[٣]. .

قال الطريري: «واستجلاء الصفة الأصولية في المفهم لا يسعها أن تكون مبحثاً في فصل، وإنما هي جديرة أن تفرد برسالة دكتوراه تامة تامة تامة»[٤].

ـ ومن مميزاته احتواؤه لكتب سابقة فقد بعضها، كان القرطبي قد اجتنى فوائدها واستبطنها في المفهم، مما جعل كتابه زاخرًا بمواد علمية كانت مفرقة في مصادر شتى، فجاء شرحه غزير المادة مفنن العلوم[٥].

قال المحققون للمفهم: «يعد كتاب المفهم حافظًا لما عدا عليه الزمن وأتلفه الأعداء من تراثنا العربي والإسلامي»[٦].

ـ يعتبر المفهم رائدًا في حل الأحاديث المشكلة في صحيح مسلم، وإزالة ما بينها من تعارض في الظاهر، أو تناقض في الحكم يبدو لأول وهلة[٧].

قال المقري عن القرطبي: «كان بارعًا في الفقه والعربية، عارفًا

---

(١) مقدمة تحقيق المفهم (١/ ١٨).
(٢) تحقيق كتاب الإيمان من المفهم (١/ ٣٥٤).
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق (١/ ٢٦٥).
(٥) المرجع السابق (١/ ٣٥٤).
(٦) المفهم (١/ ١٨).
(٧) المرجع السابق.

بالحديث. . . له اقتدار على توجيه المعاني بالاحتمال»[١].

ـ ظهور شخصية القرطبي عند نقله عن غيره فهو إذا نقل ناقش وحاور وعقَّب وتعقباته تمحيص علمي ومناظرة مصغرة[٢].

ـ استمراره في شرحه على سنن واحد من أوله إلى آخره برغم طول الكتاب، فليس بين أوله وآخره ذاك التفاوت الذي يوجد في بعض الكتب[٣].

المطلب السادس: منهج القرطبي فيه:

ـ قام بشرح وافٍ لمقدمة الصحيح.

ـ كانت طريقته في شرح الحديث كطريقة الحافظ ابن حجر في الفتح، بحيث يختار من الحديث النص الذي يحتاج إلى شرح ويضعه بين قوسين ثم يعقبه بالشرح والتعليق.

ـ بيّن أن من منهجه في هذا الشرح الاختصار ما لم يدع الكشف إلى التطويل والإكثار[٤].

وقد وفى بذلك في الغالب، ولذا كثيرًا ما يختم شرحه بقوله: «في هذا الحديث أبواب من الفقه لا تخفى»[٥]. أو عبارة نحو هذه[٦].

ـ ترجم لبعض الأعلام الذين ورد ذكرهم أثناء الشرح[٧].

ـ إذا عرض لمسألة أثناء الشرح سبق الكلام عنها أو سيأتي الكلام عليها، فإنه يحيل إلى السابق أو اللاحق[٨]، أو يحيل إلى أحد كتبه التي استوفى فيها الكلام على هذه المسألة وبالرجوع إلى المبحث الخاص بمؤلفاته

---

(١) نفح الطيب (٢/ ٦١٥).

(٢) تحقيق كتاب الإيمان من المفهم (١/ ٣٥٥).

(٣) المرجع السابق.

(٤) المفهم (١/ ٨٤).

(٥) المفهم (٢/ ٤٦٦).

(٦) المفهم (١/ ١٦٥، ٢٠٨، ٣٥٠).

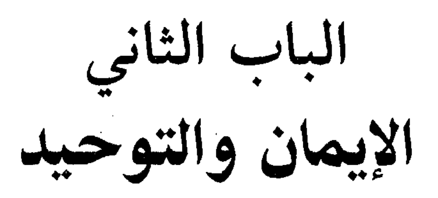
(٧) انظر كتاب (فضائل الصحابة) حيث ترجم لعدد كبير من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

(٨) وهذا كثير جدًا، انظر على سبيل المثال: المفهم (١/ ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٥٨، ٢/ ٢٥٢، ٢٩٤).

يتضح ذلك.

ـ التزم بكامل شرحه بالأدب في المناقشة فهو عفيف اللسان أديب العبارة، عارفًا لأهل العلم فضلهم، حريصًا على الاعتذار عما وقع منهم[(١)].

(١) ولم يخالف هذا المنهج إلاَّ في مواضع قليلة لا تذكر، انظر: المفهم (١/ ٥٤٢، ٥٨٩).



الباب الثاني
الإيمان والتوحيد

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: **الإيمان وما يتعلق به من مسائل.**

الفصل الثاني: **توحيد الربوبية**

الفصل الثالث: **توحيد الألوهية**

الفصل الرابع: **توحيد الأسماء والصفات**

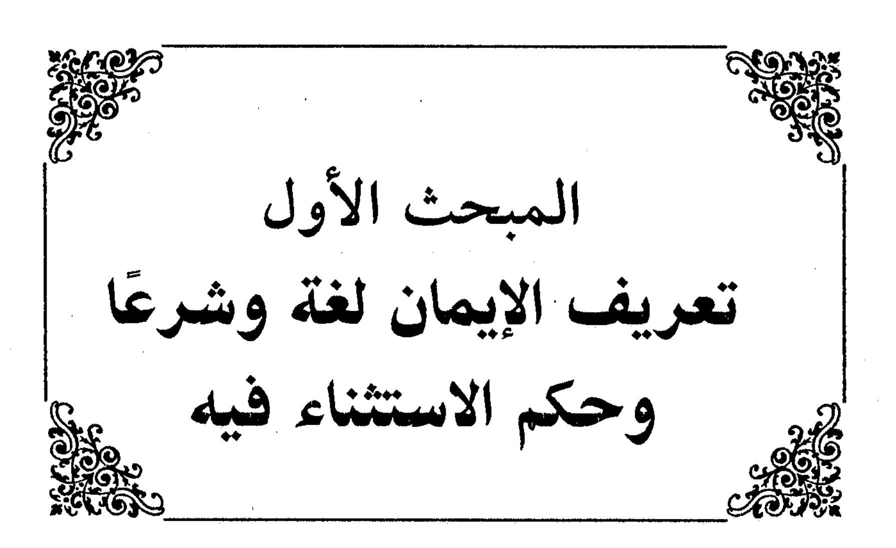
الفصل الأول
الإيمان وما يتعلق به من مسائل

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: **تعريف الإيمان لغة وشرعًا وحكم الاستثناء فيه**

المبحث الثاني: **الإيمان والإسلام**

المبحث الثالث: **الكبيرة وحكم مرتكبها**



المبحث الأول
تعريف الإيمان لغة وشرعًا وحكم الاستثناء فيه

المطلب الأول: **تعريفه لغة**

المطلب الثاني: **تعريفه شرعًا**

المطلب الثالث: **حكم الاستثناء فيه**

المطلب الأول: تعريف الإيمان لغة:

الإيمان: مصدر آمن يؤمن إيمانًا فهو مؤمن، وهو مشتقٌ من الأمن.

قال الجوهري[١]: «الإيمان: هو التصديق. والله تعالى المؤمن؛ لأنه أمن عباده من أن يظلمهم. وأصل آمن: أأمن: بهمزتين... والأمن ضد الخوف»[٢].

وقال الأزهري[٣]: «اتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن معناه التصديق»[٤].

وقال ابن منظور[٥]: «الإيمان ضد الكفر. والإيمان بمعنى التصديق: ضده التكذيب»[٦].

وقال الأصفهاني[٧]: «آمن إنما يقال على وجهين: أحدهما متعديًا بنفسه. يقال: آمَنْتُهُ: أي جعلت له الأمن. ومنه قيل لله مؤمن. والثاني: غير متعد. ومعناه: صار ذا أَمْنٍ... قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾[٨]. قيل: معناه بمصدق لنا إلاَّ أن الإيمان هو التصديق الذي معه أَمْنٌ»[٩].

---

(١) هو إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، لغوي، أديب، توفي بنيسابور سنة (٣٩٣هـ). سير أعلام النبلاء(١/ ٨٠). البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي (٢/ ٦٧).

(٢) الصحاح للجوهري (٥/ ٢٠٧١) مادة: أمن.

(٣) هو محمد بن أحمد الأزهري، أحد أئمة اللغة المعروفين، توفي سنة (٣٧٠هـ). البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (٢/ ١٨٦)، طبقات المفسرين لأحمد الأدنه وي ص(٨٣).

(٤) تهذيب اللغة للأزهري (١٥/ ٥١٠).

(٥) محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الشهير بابن منظور إمام في اللغة والتاريخ، توفي سنة(٧١١هـ). الدر الكامنة(٤/ ٢٦٢). معجم المؤلفين (٣/ ٧٣١).

(٦) لسان العرب لابن منظور (١٣/ ٢١) مادة أمن.

(٧) الحسين بن محمد بن المفضل الشهير بالراغب الأصفهاني، لغوي مفسر اختلف في تاريخ وفاته كثيرًا فقيل (٥٠٢هـ) وقيل (٥٣٥هـ) وقيل (٥٣٥هـ) وقيل (٤٢٥هـ). طبقات المفسرين للأدنه وي ص (١٦٨). البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة(٢/ ٩١).

(٨) سورة يوسف، الآية: ١٠٧

(٩) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص (٣٦) مادة أمن.

وقد رجَّح شيخ الإسلام ابن تيمية في تعريف الإيمان اللغوي: أنه بمعنى الإقرار لأنه رأى لفظة أقر أصدق في الدلالة على معنى الإيمان من غيرها من الألفاظ، حيث قال: «فالإيمان لغة: هو الإقرار؛ لأن التصديق، إنما يطابق الخبر فقط، وأما الإقرار فيطابق الخبر والأمر. ولأن أقر وآمن متقاربان، فالإيمان دخول في الأمن، والإقرار دخول في القرار... ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق. والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو الانقياد»(١).

وأمَّا القرطبي فعرَّفه بالتصديق حيث قال: «الإيمان لغة: هو التصديق مطلقًا»(٢).

وأمَّا المازري فعرَّفه باليقين حيث قال: «الإيمان هو اليقين»(٣).

المطلب الثاني: تعريفه شرعًا:

أما تعريف الإيمان شرعًا: فهو ما وقع فيه الخلاف بين أهل السنة ومخالفيهم منذ زمن مبكر.

قال ابن رجب(٤): «وهذه المسائل ـ أعني مسائل الإسلام والإيمان والكفر والنفاق ـ مسائل عظيمة جدًّا، فإن الله عز وجل علَّق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة، واستحقاق الجنة والنار، والاختلاف في مسمياتها أول اختلاف وقع في هذه الأمة»(٥).

لهذا الخلاف المذكور تعددت الأقوال في تعريف الإيمان، والحق منها ما عليه أهل السنة والجماعة إذ عرفوه بأنه قولٌ باللسان، واعتقاد

---

(١) الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٦٣٧، ٦٣٨).

(٢) المفهم (١/ ١٣٩).

(٣) المعلم (١/ ٢١٠).

(٤) عبدالرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الدمشقي الحنبلي، إمام في العلم والعبادة، له عدة مؤلفات منها«شرح علل الترمذي» وشرح لصحيح البخاري، سماه «فتح الباري» توفي قبل إكماله، توفي بدمشق سنة (٧٩٥هـ). الدر الكامنة (٢/ ٣٢١). طبقات الحفاظ ص (٥٦٧) ترجمة (١١٧٢).

(٥) جامع العلوم والحكم ص (٣٨).

بالقلب، وعملٌ بالجوارح(١).

وأما الأقوال الأخرى، فهي تختلف قربًا وبعدًا من الحق، وهي على النحو التالي:

الأول: الإيمان: هو التصديق بالجنان، والقول باللسان. وهذا مشهور عن بعض الفقهاء، ولذا يقال: «إرجاء الفقهاء» وقال به: حماد بن أبي سليمان(٢)، وأبوحنيفة وأصحابه(٣).

الثاني: الإيمان: هو التصديق بالله مع معرفته بالقلب. وهذا قول عامة الأشاعرة(٤).

الثالث: الإيمان: فعل جميع الطاعات المفترضة بالقلب واللسان والجوارح وهذا قول الخوارج والمعتزلة(٥).

وهم يخالفون أهل السنة أنهم جعلوا جميع الأعمال شرطًا لصحة الإيمان، فالإيمان كلٌّ لا يتجزأ، فإذا ذهب بعضه ذهب كلُّه، فمن أخل بالأعمال عندهم ذهب إيمانه، وهو عند الخوارج كافر في الدنيا، مخلدٌ في النار في الآخرة، وعند المعتزلة في الدنيا في منزلة بين المنزلتين، ووافقوا الخوارج في خلوده في النار في الآخرة، وفي نفي اسم الإيمان عنه في الدنيا، وخالفوهم في إطلاق لفظ الكفر عليه في الدنيا، وفي استحلال دمه وماله.

الرابع: هو المعرفة بالقلب فقط. وهذا قول الجهمية(٦)، ويلزم من قولهم هذا إدخال إبليس وفرعون في الإيمان.

---

(١) انظر: الشريعة للآجري (٢/ ٦١١)، وشرح اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٤/ ٩١١) ومسائل الإيمان لأبي يعلى بن الفراء ص (١٥٢).

(٢) حماد بن أبي سليمان، تابعي رمي بالإرجاء تتلمذ عليه الإمام أبو حنيفة ولازمه توفي سنة(١٢٠هـ). سير أعلام النبلاء(٥/ ٢٣١). طبقات الحفاظ ص (٦٠) ترجمة (١٠٥).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري (١/ ٢١٩)، والفتاوى لابن تيمية (٧/ ٥٠٧).

(٤) انظر: اللمع لأبي الحسن الأشعري ص(١٢٢)، والإنصاف للباقلاني ص(٥٥).

(٥) انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ١٤٩، ٣٢٩)، والملل والنحل (١/ ٤٥).

(٦) انظر: الملل والنحل (١/ ٨٨)، والفتاوى لابن تيمية (٧/ ٥٠٨).

الخامس: الإيمان هو الإقرار باللسان دون القلب. وهذا قول الكرَّامية[١].
ويلزم من هذا القول إدخال المنافقين في الإيمان.
قال القرطبي في بيان فساد هذا القول: «الإيمان من أعمال الباطن، والإسلام من أعمال الجوارح الظاهرة، وفيه ردٌّ على غلاة المرجئة والكرامية، حيث حكموا بصحة الإيمان لمن نطق بالشهادتين، وإن لم يعتقد بقلبه، وهو قولٌ باطلٌ قطعًا؛ لأنه تسويغ للنفاق»[٢].
وقال المازري ردًّا عليهم عند شرحه لقوله ﷺ: «**أليس يشهد أن لا إله إلَّا الله وأني رسول الله؟ قالوا: إنه يقول ذلك وما هو في قلبه. قال: لا يشهد أحدٌ أن لا إله إلَّا الله وأني رسول الله فيدخل النار أو تَطْعَمَهُ**»[٣]: «إن احتجت به الغلاة من المرجئة في أن الشهادتين تنفع وإن لم تعتقد بالقلب، قيل لهم: معناه أنه لم يصح عند النبي ﷺ ماحكوا عنه من أن ذلك ليس في قلبه، والحجة في قول النبي ﷺ وهو لم يقل ذلك ولم يشهد به عليه»[٤].

قال القرطبي في تعريفه للإيمان شرعًا: «هو التصديق بالقواعد الشرعية»[٥].

وقال: «الإسلام والإيمان بحكم الوضع يعمان كل انقياد وكل تصديق، لكن قصرها الشرع على تصديق مخصوص، وانقياد مخصوص»[٦].

وقال: «الإيمان بالله هو التصديق بوجوده تعالى، وأنه لا يجوز عليه العدم، وأنه موصوف بصفات الجلال والكمال»، ثم بعد ذكره لأركان الإيمان قال: «مذهب السلف وأئمة الفتوى من الخلف أن من صدق بهذه

(١) انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٢٢٣)، والفتاوى لابن تيمية (٧/ ٥٠٩).
(٢) المفهم (١/ ٣٦٦) وانظر أيضًا (١/ ٢٠٤).
(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا ح/ ٣٣ (١/ ٣٥٦).
(٤) المعلم (١/ ١٩٥).
(٥) المفهم (١/ ١٣٩).
(٦) المفهم (١/ ١٤٠).

الأمور تصديقًا جزمًا لا ريب فيه ولا تردد ولا توقف كان مؤمنًا حقيقة»[١].

فالقرطبي خالف مذهب أهل السنة والجماعة في تعريفهم للإيمان إذ جعله التصديق فقط، وأخرج الأعمال من الإيمان، وجعل إطلاق الإيمان على الأعمال ودخولها فيه من باب المجاز.

فبعد ذكره لحديث جبريل عليه السلام[٢] وحديث وفد عبدالقيس، وحديث علي ـ رضي الله عنه ـ الذي قال فيه: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان اعتقاد بالقلب، وإقرار باللسان وعمل بالأركان**»[٣] قال: هذه الإطلاقات الثلاث من باب التجوز والتوسع، على عادة العرب في ذلك، وهذا إذا حقق يريح من كثير من الإشكال الناشيء من ذلك الاستعمال[٤].

وقال عند شرحه لحديث «**الإيمان بضْعٌ وستُّون شعبة، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان**»[٥]: «الإيمان في هذا الحديث يُراد به الأعمال، بدليل أنه ذكر فيه أعلى الأعمال، وهو قول لا إله إلاَّ الله وأدناها: أي: أقربها وهو إماطة الأذى وهما عملان فما بينهما من قبيل الأعمال، وقد قدمنا القول في حقيقة الإيمان شرعًا ولغة، وأن الأعمال الشرعية تسمى إيمانًا مجازًا وتوسعًا؛

---

(١) المفهم(١/ ١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام والإحسان، وعلم الساعة ح/ ٥٠ (١/ ١٤٠)، ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ح/ ٨، (١/ ٢٥٩).

(٣) حديث موضوع قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع لم يقله الرسول ﷺ. الموضوعات (١/ ١٢٨)، وقال ابن تيمية بعد أن ذكر الحديث: من الموضوعات على النبي ﷺ باتفاق أهل العلم بحديثه، الفتاوى (٧/ ٥٠٥) وقال ابن القيم: هذا حديث موضوع ليس من كلام النبي ﷺ. تهذيب سنن أبي داود(١٢/ ٢٩٥). وانظر سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٥/ ٢٩٥) حديث (٢٢٧١).

(٤) المفهم (١/ ١٤٠).

(٥) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب أمور الإيمان ح/ ٩ (١/ ٦٧). ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان ح/ ٣٥ (٢/ ٣٦٢) وفي رواية عند مسلم قال: الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لاإلٰه إلاَّ الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان (٢/ ٣٦٣).

لأنها عن الإيمان تكون غالبًا»[١].

حتى أعمال القلوب أدخلها في مسمى الإيمان مجازًا، حيث قال: «إطلاق الإيمان على أعمال القلوب كالنيةوالإخلاص والخوف، والنصيحة، وشبه ذلك من أعمال القلوب، وتسميتها إيمانًا لكونها في محل الإيمان أو عن الإيمان، على عادة العرب في تسمية الشيء باسم الشيء إذا جاوره أو كان منه بسبب»[٢].

وكذلك المازري عرَّف الإيمان بأنه اليقين، حيث قال: «الإيمان هو اليقين»[٣].

وفي حديث وفد عبد القيس قال لهم رسول الله ﷺ: «**أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان، وأن تعطوا من المَغْنَمِ الخُمْس**»[٤].

فعند شرح المازري لهذا الحديث أخرج الأعمال من الإيمان، حيث قال: «ظن بعض الفقهاء أن في هذا دلالة على أن الصلاة والزكاة من الإيمان، خلافًا للمتكلمين من الأشعرية القائلين بأن ذلك ليس من الإيمان، وهذا الذي ظنه غير صحيح لاحتمال أن يكون الضمير في قوله: ثم فسرها لهم، عائدًا على الأربع لا على الإيمان كما ظن هذا الظان، ويحتمل في الحديث الثاني من أن يكون قوله «وإقام الصلاة» معطوفًا أيضًا على الأربع»[٥].

وأوَّل كل ما جاء في إطلاق الإيمان على الأعمال فقال عند شرحه

---

(١) المفهم (١/ ٢١٦).
(٢) المفهم (١/ ٤٤٢).
(٣) المعلم (١/ ٢١٠).
(٤) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب أداء الخمس من الإيمان ح/ ٥٣ (١/ ١٥٧)، ومسلم في كتاب الإيمان باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه لمن لم يبلغه ح/ ١٧ (١/ ٢٩٤).
(٥) المعلم (١/ ١٩١).

لحديث «**الحياء من الإيمان**»[١].

«**إنما** كان الحياء ـ وهو في الأكثر غريزة ـ من الإيمان الذي هو اكتساب؛ لأن الحياء يمنع من المعصية، كما يمنع الإيمان منه»[٢].

وعند شرحه لحديث: «**الطُّهُور شطرُ الإيمان**»[٣]. قال: «يحتمل هذا الحديث وجهين: أحدهما: أن يكون المراد بقوله «شطر الإيمان» أي أنه ينتهي تضعيف الأجر فيه إلى أجر الإيمان من غير تضعيف، وهذا كأحد التأويلات في قوله ﷺ: «**إن قل هو الله أحد تعدلُ ثُلُث القُرآن**»[٤]. والوجه الثاني: أن يكون معنى شطر الإيمان: أن الإيمان يَجُبُّ ما قبله من الآثار، وقد أخبر ـ عليه السلام ـ أن الوضوء أيضًا تذهب عن الإنسان به الخطايا؛ إلاَّ أنه قد قام الدليل أن الوضوء لا يصح الانتفاع به، إلاَّ مع مضامة الإيمان له، فكأنه لم يحصل به رفع الإثم إلاَّ مع شيء ثان. ولما كان الإيمان يمحو الآثام المتقدمة عليه بانفراده صار الطهور في التشبيه كأنه على الشطر منه»[٥].

ولا شك أن المذهب الحق ما قاله جماهير العلماء من أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعملٌ بالجوارح.

قال البغوي: «اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان... وقالوا إن الإيمان قولٌ وعملٌ وعقيدة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»[٦].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب الحياء من الإيمان ح (١٢٤، ١/ ٩٣). ومسلم في كتاب الإيمان باب عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان ح (٣٦، ٢/ ٣٦٤).

(٢) المعلم (١/ ١٩٦).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة باب فضل الوضوء ح/ ٢٢٣، (٣/ ١٠١).

(٤) رواه ابن ماجه في كتاب الأدب باب ثواب القرآن ، والترمذي في أبواب فضائل القرآن باب ماجاء في سورة الإخلاص، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٣١٦).

(٥) المعلم (١/ ٢٣٢).

(٦) شرح السنة للبغوي (١/ ٤٤).

وقال الآجري[١]: «اعلموا رحمنا الله وإياكم أن الذي عليه علماء المسلمين: أن الإيمان واجب على جميع الخلق وهو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح»[٢].

وذكر اللالكائي[٣] روايات كثيرة عن النبي ﷺ، وعن الصحابة والتابعين، والسلف الصالح في هذا الباب[٤].

وقال البخاري: «كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة، ولم أكتب إلاَّ عن من قال الإيمان: قول وعمل»[٥].

وقال ابن عبدالبر: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قولٌ وعملٌ، ولا عمل إلاَّ بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان»[٦].

ولذا أصبح هذا القول من سمات أهل السنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا كان القول: إن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة من شعائر السنة وحكى غير واحد الإجماع على ذلك»[٧].

واستدلوا على ما ذهبوا إليه بأدلة من الكتاب والسنة، منها:

---

(١) أبوبكر محمد بن الحسين الآجري الإمام المحدث صاحب سنة واتباع له عدة مصنفات توفي سنة (٣٦٠هـ). طبقات الحفاظ ص (٣٩٥) ترجمة (٨٥٨)، وصفة الصفوة (٢/ ٤٧٠).

(٢) الشريعة للآجري (٢/ ٦١١).

(٣) هبة الله بن الحسن اللالكائي الحافظ له عدة مصنفات أشهرها وأنفعها كتاب«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» توفي سنة(٤١٨هـ) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٤١٩). طبقات الحفاظ ص (٤٣٨) ترجمة (٩٥٣).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة(٤/ ٩١١) فما بعدها.

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٥/ ٩٥٩).

(٦) التمهيد لابن عبدالبر (٩/ ٢٣٨).

(٧) الإيمان لابن تيمية ص(٢٤١) وانظر ص (٢٤٢) فقد نقل عن القاسم بن سلاَّم أسماء كثير من الذين يقولون الإيمان قول وعمل.

من الكتاب:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾[١].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ﴾[٢].

وثبت في صحيح البخاري أن هذه الآية نزلت في الذين ماتوا قبل أن تحوّل القبلة[٣]، والمقصود ما كان الله ليضيع صلاتكم، فسمى الصلاة إيمانًا.

- وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾[٤].

قال القاسم بن سلّام[٥] ـ بعد ذكره لهذه الآيات ـ: «أفلست تراه تبارك وتعالى قد امتحنهم بتصديق القول بالفعل، ولم يكتف منهم بالإقرار دون العمل، حتى جعل أحدهما من الآخر»[٦].

وأما من السنة فأحاديث كثيرة منها: حديث وفد عبدالقيس[٧].

- وقوله ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعُون أو بضعُ وستُّون شعبة فأفضلها قول لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبةٌ من**

---

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٢ـ٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٣) صحيح البخاري «كتاب الإيمان» باب الصلاة من الإيمان ح/ ٤٠، (١/ ١١٨).
(٤) سورة العنكبوت، الآيات: ١ـ١٠.
(٥) هو القاسم بن سلاَّم البغدادي أبوعبيد الإمام الشهير توفي سنة (٢٢٤هـ). صفة الصفوة(٤/ ١٣٠)، تهذيب التهذيب (٣/ ٤١٠).
(٦) الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص (٦٦).
(٧) سبق تخريجه ص(١٠٧).

الإيمان»[١].

- وقوله ﷺ: «**الطُّهور شطرُ الإيمان**»[٢]. وغيرها من الأدلة.

وبهذا يتبين لنا أن ما ذهب إليه السلف هو الحق الذي أيّدته النُّصوص من الكتاب والسنة.

سُئِلَ سهل بن عبدالله التستري[٣] عن الإيمان ماهو؟ فقال: «قول ونية وسنة؛ لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر، وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق، وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة»[٤].

وأما ما استدل به المرجئة من الأشاعرة وغيرهم، فهو كما يلي:

أولاً: أن الإيمان في اللغة هو التصديق، وقد أبقاه الشرع على ما كان، وما روي نقله. وذكر الباقلاني[٥] الإجماع على ذلك، حيث قال: فإن قالوا: فاخبرونا ما الإيمان عندكم؟ قيل: الإيمان هو التصديق بالله، وهو العلم. والتصديق يوجد بالقلب! فإن قال: فما الدليل على ما قلتم؟ قيل: إجماع أهل اللغة قاطبة على أن الإيمان قبل نزول القرآن وبعثة النبي ﷺ هو التصديق. لا يعرفون في اللغة إيمانًا غير ذلك، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾[٦] أي بمصدق لنا، ومنه قولهم: فلان يؤمن بالشفاعة، وفلان لا يؤمن بعذاب القبر، أي: لا يصدق بذلك، فوجب أن الإيمان في الشريعة هو الإيمان المعروف في اللغة؛ لأن الله ما غير اللسان العربي ولا قلبه»[٧].

---

(١) سبق تخريجه ص(١٠٦).

(٢) سبق تخريجه ص(١٠٨).

(٣) سهل بن عبد الله التستري الزاهد العابد محدث له كتاب في ذم الكلام توفي سنة(٢٨٣هـ). صفة الصفوة (٤/ ٦٤)، طبقات الصوفية للسلمي ص(٢٠٦).

(٤) الفتاوى لابن تيمية (٧/ ١٧١).

(٥) هو أبوبكر محمد بن الطيب البغدادي المشهور بالباقلاني متكلم أشعري مكثر من التصنيف توفي في بغداد سنة(٤٠٣هـ). البداية والنهاية(١١/ ٣٧٣)، الديباج المذهب ص (٣٦٣).

(٦) سورة يوسف، الآية: ١٧.

(٧) التمهيد للباقلاني ص(٣٨٩)، وانظر: الإنصاف للباقلاني ص(٥٥)، والفتاوى لابن تيمية (٧/ ١٢٢).

ثانيًا: ما ورد من آيات وأحاديث تدل على أن الإيمان في القلب كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾(١). وقوله ﷺ لأسامة بن زيد: «**أفلا شَقَقْتَ عن قَلْبِهِ**»(٢).

ثالثًا: إن الله فرَّق بين الإيمان والعمل في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾(٣). والعطف يقتضي المغايرة.

قال شيخ الإسلام في الرد عليهم بعد نقله لكلام الباقلاَّني السابق: «هذا عمدة من نصر قول الجهمية في مسألة الإيمان، وللجمهور من أهل السنة وغيرهم عن هذا أجوبة.

أحدهما: قول من ينازعه في أن الإيمان في اللغة مرادف للتصديق ويقول هو بمعنى الإقرار وغيره.

الثاني: قول من يقول: وإن كان في اللغة هو التصديق فالتصديق يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح، كما قال النبي ﷺ: «**والفرْجُ يُصدِّقُ ذلك أو يُكذِّبهُ**»(٤).

والثالث: أن يقال: ليس هو مطلق التصديق بل هو تصديق خاص مقيَّد بقيود اتصل اللفظ بها، وليس هذا نقلاً للفظ، ولا تغييرًا له، فإن الله لم يأمرنا بإيمان مطلق، بل بإيمان خاص، وصفه وبيَّنه.

والرابع: أن يقال: وإن كان هو التصديق، فالتصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح، فإن هذه لوازم الإيمان التام، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم، ونقول: أن هذه اللوازم تدخل في مسمى اللفظ تارة، وتخرج عنه أخرى.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لاإله إلاَّ الله، ح/٩٦، (٢/ ٤٦٢).

(٣) سوة العصر، الآية: ٣.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان باب زنا الجوارح دون الفرج ح/٦٢٤٣ (١١/ ٢٨)، ومسلم في كتاب القدر باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره ح/٢٦٥٧، (١٦/ ٤٤٥).

الخامس: قول من يقول: إن اللفظ باقٍ على معناه في اللغة، ولكن الشارع زاد فيه أحكامًا.

السادس: قول من يقول: إن الشارع استعمله في معناه المجازي، فهو حقيقة شرعية مجاز لغوي.

السابع: قول من يقول: إنه منقول. فهذه سبعة أقوال:

الأول: قول من ينازع في أن معناه في اللغة التصديق، ويقول: ليس هو التصديق بل بمعنى الإقرار وغيره.

قوله: إجماع أهل اللغة قاطبة على أن الإيمان قبل نزول القرآن هو التصديق، فيقال له: من نقل هذا الإجماع؟ ومن أين يعلم هذا الإجماع؟ وفي أي كتاب ذُكِرَ هذا الإجماع؟.

الثاني: أن يُقال: أتعني بأهل اللغة، نقلتها، كأبي عمرو(١)، والأصمعي(٢)، والخليل(٣)، ونحوهم، أو المتكلمين بها؟ فإن عنيت الأول فهؤلاء لا ينقلون كل ما كان قبل الإسلام بإسناد، وإنما ينقلون ما سمعوه من العرب في زمانهم، وما سمعوه في دواوين الشعر، وكلام العرب، وغير ذلك بالإسناد، ولا نعلم فيما نقلوه لفظ الإيمان، فضلاً عن أن يكونوا أجمعوا عليه، وإن عنيت المتكلمين بهذا اللفظ قبل الإسلام، فهؤلاء لم نشهدهم ولا نقل لنا أحدٌ عنهم ذلك.

الثالث: أنه لا يعرف عن هؤلاء جميعهم أنهم قالوا: الإيمان في اللغة هو التصديق، بل ولا عن بعضهم، وإن قدر أنه قاله واحد واثنان فليس هذا إجماعًا.

---

(١) هو أبو عمرو بن العلاء المازني النحوي المقريء كان من أعلم الناس بالقرآن والعربية والشعر، توفي سنة(١٥٤هـ). سير أعلام النبلاء(٦/ ٤٠٧)، تهذيب التهذيب (٤/ ٥٦١).

(٢) عبد الملك بن قريب الباهلي المعرف بالأصمعي أديب لغوي ، نحوي، أصولي، له عدة مصنفات، منها: «نوادر الأعراب»، «الأصمعيات» وغيرها، توفي بالبصرة سنة(٢١٦هـ). تاريخ دمشق (٣٧/ ٥٥)، تهذيب التهذيب(٢/ ٦٢٢).

(٣) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري إمام مقدم في العربية، وهو منشيء علم العروض توفي سنة(١٧٠هـ). تهذيب التهذيب(١/ ٥٥٢). البداية والنهاية(١٠/ ١٦٦).

الرابـع: أن يقال: هؤلاء لا ينقلون عن العرب أنهم قالوا: معنى هذا اللفظ كذا وكذا، وإنما ينقلون الكلام المسموع من العرب، وأنه يفهم منه كذا وكذا، وحينئذ فلو قدر أنهم نقلوا كلامًا عن العرب يفهم منه أن الإيمان هو التصديق لم يكن ذلك أبلغ من نقل المسلمين كافة القرآن عن النبي ﷺ، وإذا كان مع ذلك قد يظن بعضهم أنه أُريد به معنى لم يرده، فظن هؤلاء ذلك فيما ينقلونه عن العرب أولى.

الخامس: أنه لو قُدِّر أنهم قالوا هذا، فهم آحاد لا يثبت بنقلهم التواتر، والتواتر من شرطه استواء الطرفين والواسطة، وأين التواتر الموجود عن العرب قاطبة قبل نزول القرآن إنهم كانوا لا يعرفون للإيمان معنى غير التصديق(١)؟

السادس: أنه لم يذكر شاهدًا من كلام العرب على ما ادعاه عليهم، وإنما استدل من غير القرآن بقول الناس: فلان يؤمن بالشفاعة، وفلان يؤمن بعذاب القبر، ومعلوم أن هذا ليس من ألفاظ العرب قبل نزول القرآن، بل هو مما تكلم الناس به بعد عصر الصحابة، ومن قال ذلك فليس مراده التصديق بما يرجى ويخاف بدون خوف ولا رجاء، بل يصدق بعذاب القبر ويخافه، ويصدق بالشفاعة ويرجوها، وإلاَّ لو صدق بأنه يعذب في قبره ولم يكن في قلبه خوف من ذلك أصلاً لم يسموه مؤمنًا به، كما لا يسمون إبليس مؤمنًا بالله، وإن كان مصدقًا بوجوده وربوبيته. وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾(٢) ليس في الآية ما يدل على أن المصدق مرادف للمؤمن، فإن صحة هذا المعنى بأحد اللفظين لا يدل على أنه مرادف للآخر. ولو فرض أن الإيمان في اللغة التصديق فمعلوم أن الإيمان ليس هو التصديق بكل شيء بل بشيء مخصوص، فيكون الإيمان في كلام الشارع أخصَّ من الإيمان في

---

(١) الفتاوى (٧/ ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤).

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٧.

اللغة»[١].

وأما استدلالهم الثاني، فهذه النصوص التي ذكروها لا تنفي وجود الإيمان في غير القلب، وقد جاءت نصوص أخرى تدل على أن الإيمان باللسان والجوارح أيضًا.

وأما قولهم أن الله فرق بين الإيمان والعمل، فعطف العمل على الإيمان والعطف يقتضي المغايرة.

فيقال: إن العطف بين شيئين يعني نوع مغايرة كالمغايرة بين الكل والجزء والخاص والعام والمطلق والمقيد، فيجوز عطف الأعمال على الإيمان؛ لأن الإيمان كلٌّ والأعمال جزءٌ منه فيكون من باب عطف الخاص على العام كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾[٢].

ومن المعلوم قطعًا أن جبريل وميكال من جنس الملائكة وكقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾[٣] وغيرها[٤]، فاستدلالهم بالعطف على إخراج الأعمال لا يسلم لهم.

وأمَّا قولهم إن تسمية الأعمال إيمانًا من باب المجاز، فقد رد عليهم في ذلك شيخ الإسلام بكلامٍ يطول ذكره، أذكر منه قوله: «إن القول بالمجاز كلامٌ مبتدع لم يتكلم به السلف من الصحابة والتابعين، بل ولا أحد الأئمة المشهورين بالعلم كمالك والثوري[٥]، والأوزاعي[٦]، وأبي حنيفة،

---

(١) الفتاوى (٧/ ١٢٥، ١٢٦) بتصرف.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٤) انظر مسائل الإيمان لأبي يعلى ص (٢٤١) والفتاوى لابن تيمية (٧/ ١٧٩).

(٥) هو سفيان بن سعد بن مسروق الثوري، ثقة، حافظ، فقيه، من أعلام القرن الثاني، ورعًا، فقيهًا، زاهدًا، توفي سنة(١٦١هـ). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني (٦/ ٣٥٦)، تهذيب التهذيب (٢/ ٥٦).

(٦) أبوعمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام أهل الشام وأحد الأئمة الأعلام المشهورين توفي سنة(١٥٧هـ). حلية الأولياء (٦/ ١٣٥)، صفة الصفوة(٤/ ٢٥٥).

والشافعي، بل ولا تكلم به أئمة اللغة كالخليل وسيبويه[١]، وأبي عمرو بن العلاء ونحوهم. وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبوعبيد معمر بن المثنى[٢]، ولكن لم يعن في مجازه ما هو قسيم الحقيقة، وإنما عني بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية.. فهذا اصطلاح حادث، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين، فإنه لا يوجد هذا في كلام أحد من أهل الفقه والأصول والتفسير والحديث ونحوهم من السلف إلاَّ في كلام أحمد بن حنبل، ولم يرد بذلك أن للفظ استعمالاً في غير ما وضع له، وعلى فرض صحة التقسيم إلى حقيقة ومجاز فهو لا ينفعكم بل هو عليكم لا لكم؛ لأن الحقيقة هي اللفظ الذي يدل بإطلاقه بلا قرينة، والمجاز إنما يدل بقرينة، وقد تبين أن لفظ الإيمان حيث أطلق في الكتاب والسنة دخلت فيه الأعمال»[٣].

المطلب الثالث: الاستثناء في الإيمان:

اختلف الناس في الاستثناء في الإيمان، أي قول العبد أنا مؤمن إن شاء الله، أو غير ذلك من العبارات الدالة على الاستثناء على ثلاثة أقوال:

الأول: من منع الاستثناء وحرَّمه وقال أنه يقتضي الشك، ومن تردد في تحقيق الإيمان لم يكن مؤمنًا. بل ذهب بعضهم إلى تكفير من قال بالاستثناء[٤]. وقال بهذا الماتريدية ومن وافقهم. وهذا عائد على تعريف الإيمان عندهم بأنه التصديق والإقرار.

وقد ردَّ عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية وبيَّن فساد قولهم هذا في كلام يطول ذكره[٥].

---

(١) هو عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه، إمام النحو المقدم فيه، طلب الفقه والحديث في بداية عمره، ثم توجه إلى العربية فصار أعلم الناس بها، توفي سنة(١٨٠هـ). البداية والنهاية(١٠/ ٧٤). سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٥١).

(٢) معمر بن المثنى التيمي البصري الإمام النحوي، صاحب التصانيف توفي سنة(٢٠٩هـ). تهذيب التهذيب (٤/ ١٢٦)، تاريخ دمشق (٥٩/ ٤٢٣).

(٣) الفتاوى (٧/ ٨٨، ٨٩، ١١٦) بتصرف.

(٤) زيادة الإيمان ونقصانه للدكتور عبدالرزاق العباد ص (٥١٩).

(٥) الفتاوى (١٣/ ٤١).

الثاني: من قال بضد القول السابق، إذ أوجب الاستثناء في الإيمان، وهم الأشاعرة والكلابية. إذ الإيمان عندهم هو ما يموت عليه الإنسان، فالإيمان والكفر عندهم باعتبار الموافاة، وحملوا النصوص التي جاءت عن السلف في الاستثناء على ذلك.

الثالث: من قال بجواز الاستثناء وعدمه، فلم يحرمه مطلقًا، ولم يوجبه مطلقًا. فأجازوه باعتبار، ومنعوه باعتبار آخر. أجازوه خوف تزكية النفس، ولدخول الأعمال في الإيمان والتقصير فيها ظاهر(١). ومنعوه إذا أراد المستثني الشك في أصل إيمانه،وهذا هو مذهب السلف. وقد ورد عن السلف نصوص تدل على الاستثناء وعدمه، فمن استثنى قصد به الإيمان التام الكامل المقبول عند الله تعالى، ومن لم يستثن قصد الإيمان الباطن الذي هو أصل الإيمان وأساسه، وهذا لا استثناء فيه.

فقد سأل رجلٌ الحسن البصري(٢) عن الإيمان، فقال: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب، فأنا مؤمن، وإن كنت تسألني عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾(٣) فوالله ما أدري أنا منهم أم لا(٤).

وقال شيخ الإسلام: ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقول: أنا مؤمن بلا استثناء إذا أراد ذلك ـ أي أصل الإيمان ـ لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق، ولهذا كان

(١) انظر السنة للخلال (٣/ ٦٠٠)، والفتاوى لابن تيمية (٧/ ٤٩٦).

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري إمام التابعين الفقيه الزاهد والعلم الشهير، كان ينطق بالحكمة توفي سنة (١١٠هـ). تهذيب التهذيب (١/ ٣٨٨)، صفة الصفوة (٣/ ٢٣٣).

(٣) سورة الأنفال، الآيات: ٢ـ٤.

(٤) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٨٦).

أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه[١].

وقال أيضًا: والقول الثالث أوسطها وأعدلها أنه يجوز الاستثناء باعتبار وتركه باعتبار، فإن كان مقصوده أني لا أعلم أني قائم بكل ما أوجب الله عليَّ وأنه يقبل أعمالي ليس مقصوده الشك فيما في قلبه فهذا استثناؤه حسن وقصده ألاَّ يزكي نفسه[٢].

والمذهب الحق في ذلك هو ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية، ولكن الاستثناء الذي ورد عن السلف باعتبار عدم قيام الإنسان بسائر الأعمال التي أمر الله تعالى بها وتقصيره في ذلك، لا باعتبار عدم علمه بالمستقبل وما يموت عليه.

وقد ذهب عامة الأشاعرة إلى وجوب الاستثناء باعتبار أن الإيمان عندهم هو مامات عليه الإنسان، فيكون مؤمنًا أو كافرًا، باعتبار الموافاة فهو يستثني لأنه لا يعلم ما يموت عليه. قال الجويني: «فإن قيل: قد أثر عن سلفكم ربط الإيمان بالمشيئة، وكان إذا سئل الواحد منهم عن إيمانه قال إنه مؤمن إن شاء الله، فما محصول ذلك؟ قلنا: الإيمان ثابت في الحال قطعًا لا شك فيه، ولكن الإيمان الذي هو علم الفوز وآية النجاة إيمان الموافاة، فاعتنى السلف به، وقرنوه بالمشيئة، ولم يقصدوا التشكك في الإيمان الناجز»[٣].

وعليه فقد قرر القرطبي أن المسألة خلافية، ثم بيَّن أن القول الصحيح جواز الاستثناء وعدمه ـ وهو الحق ـ ولكنه لم يعلل الاستثناء بتعليل السلف، وهو عدم قيامه بكامل الأعمال التي أمر بها والخوف من التقصير فيها، إنما علل بتعليل الأشاعرة أي بالموافاة حيث قال: «وفيه حجة لمن يقول: «أنا مؤمن» بغير استثناء، وهي مسألة اختلف فيها السلف، فمنهم المجيز والمانع، وسبب الخلاف النظر إلى الحال، أو إلى المآل، فمن منع خاف من حصول شك في الحال، أو تزكية، ومن أجاز صرف الاستثناء إلى

---

(١) الفتاوى (٧/ ٤٤٩).

(٢) المرجع السابق (١٣/ ٤١).

(٣) الإرشاد للجويني ص (٣٣٦).

الاستقبال، وهو غيب في الحال إذ لا يدري بما يختم له، والصواب الجواز إذا أمن الشك والتزكية، فإنه تفويض إلى الله تعالى»[١].

وقد رد شيخ الإسلام هذا التعليل، وبيَّن أنه ليس من مذهب السلف، حيث قال: «وأمَّا الموافاة فما علمت أحدًا من السلف علل بها الاستثناء، ولكن كثيرًا من المتأخرين يعلل بها من أصحاب الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم، كما يعلل بها نظارهم كأبي الحسن الأشعري، وأكثر أصحابه، ولكن ليس هذا قول سلف أصحاب الحديث»[٢].

وقال أيضًا: لما اشتهر عند هؤلاء أن السلف يستثنون في الإيمان ورأوا أن هذا لا يمكن إلاَّ إذا جعل الإيمان هو ما يموت العبد عليه، وهو ما يوافي به العبد ربه، ظنوا أن الإيمان عند السلف هو هذا، فصاروا يحكون هذا عن السلف، وهذا القول لم يقل به أحد من السلف، ولكن هؤلاء حكوه عنهم بحسب ظنهم»[٣].

---

(١) المفهم (١/ ٣٦٦).
(٢) الفتاوى (٧/ ٤٣٩).
(٣) الفتاوى (٧/ ٤٣٦).

المبحث الثاني
الإيمــان والإســلام

اختلف العلماء في الإسلام والإيمان، والعلاقة بينهما، فهل هما بمعنى واحد، أي الأسماء من باب الترادف أم لا؟. على أقوالٍ:

القول الأول:

من قال إنهما بمعنى واحد، فهما مترادفان، فيطلق كل منها على الآخر، واستدلوا بأدلة من الكتاب والسنة، منها:

١ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سمى الإسلام بما سمى به الإيمان، وسمى الإيمان بما سمَّى به الإسلام، وذلك كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾[٣].

٢ـ قول النبي ﷺ لوفد عبدالقيس بعد أن أمرهم بالإيمان بالله وحده «**أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا الخمس من المغنم**»[٤].

وممن قال بهذ القول الإمام البخاري إذ بوَّب في صحيحه في كتاب الإيمان ما يدل على قوله بهذا[٥]. ومحمد بن نصر المروزي[٦]، وابن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٣٥،٣٦،

(٤) سبق تخريجه ص(١٠٧).

(٥) كتاب الإيمان باب(٣٧) فتح الباري (١/ ١٤٠).

(٦) هو محمد بن نصر المروزي الإمام الفقيه ، الحافظ، إمام أهل الحديث في عصره، من تصانيفه: «تعظيم قدر الصلاة» و«القسامة»، توفي سنة(٢٩٤هـ) تهذيب التهذيب (٣/ ٧١٧) ، صفة الصفوة(٤/ ١٤٧).

عبدالبر وابن منده[١]، وابن حزم وغيرهم. وقد بوَّب ابن منده في كتابه «الإيمان» فقال: ذكر الأخبار الدالة والبيان الواضح من الكتاب أن الإيمان والإسلام اسمان لمعنى واحد[٢].

وقال ابن عبدالبر: وعلى القول بأن الإيمان هو الإسلام جمهور أصحابنا وغيرهم من الشافعيين والمالكيين وهو قول داود وأصحابه، وأكثر أهل السنة والنظر المتبعين للسلف والأثر[٣].

وقال المروزي: وقالت طائفة وهم الجمهور الأعظم من أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث أن الإيمان الذي دعا الله العباد إليه وافترضه عليهم هو الإسلام الذي جعله دينًا وارتضاه لعباده ودعاهم إليه[٤].

القول الثاني:

من فرَّق بين الإسلام والإيمان، واستدلوا على ذلك بأدلة من الكتاب والسنة، منها:

ـ قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾[٥].

وقالوا: إن هؤلاء ليسوا بمنافقين، إنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[٦].

ـ من السنة: ما ورد عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه سعد **«أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعدٌ جالسٌ فيهم، قال سعدُ: فتركَ رسُول الله ﷺ**

---

(١) محمد بن إسحاق بن محمد بن منده الإمام الحافظ محدث الإسلام كان من أوسع العلماء رحلة، وأكثرهم حديثاً وشيوخًا توفي سنة(٣٩٥هـ). سير أعلام النبلاء (٢٨/١٧)، تاريخ دمشق (٢٩/٥٢).

(٢) الإيمان لابن منده (٣٢١/١).

(٣) التمهيد (٢٥٠/٩).

(٤) تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٥٢٩/٢).

(٥) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

(٦) سورة الأحزاب، الآية :٣٥.

منهم من لم يُعطه، وهو أعجبهم إليَّ، فقلتُ: يارسول الله ما لكَ عن فُلان؟ فوالله إني لأرَاهُ مؤمناً، فقال رسول الله ﷺ: أو مُسلمًا»[١].

وحديث جبريل ـ عليه السلام ـ حينما سأل الرسول ﷺ عن الإيمان والإسلام، فاختلفت الإجابة[٢].

وممن قال بهذا ابن عباس والحسن وابن سيرين[٣]، والزهري[٤]، والإمام أحمد، وغيرهم.

قال الزهري: «الإسلام الكلمة والإيمان العمل»[٥].

وقال عبدالملك الميموني[٦]: «سألت أحمد بن حنبل: أتفرق بين الإيمان والإسلام، فقال لي: نعم، قلت: بأي شيء تحتج؟ فقال لي: قال الله عز وجل: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[٧] قال: وأقول أنا مؤمن إن شاء الله، وأقول أنا مسلم ولا أستثني»[٨].

القول الثالث:

إن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا دلَّ كلٌّ منهما على معنى يختلف عن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة ح(٢٧)،(١/ ٩٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تألف من يخاف على إيمانه لضعفه ح/ ١٥٠، (٢/ ٥٣٩).

(٢) سبق تخريجه (ص١٠٦).

(٣) أبوبكر محمد بن سيرين البصري مولى أنس بن مالك رضي الله عنه، من أئمة التابعين، كان ثقة، ثبتًا، عالمًا، توفي بالبصرة سنة(١١٠هـ)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٠٦)، تهذيب التهذيب(٣/ ٥٨٥).

(٤) محمد بن مسلم بن عبيدالله القرشي الزهري من أعلام التابعين الحفاظ متفق على جلالته وإتقانه، توفي سنة(١٢٥هـ). حلية الأولياء (٣/ ٣٦٠)، صفة الصفوة (٢/ ١٣٦).

(٥) الإيمان لابن منده (١/ ٣١١).

(٦) هو عبدالملك بن عبد الحميد بن ميمون بن مهران الميموني ثقة، فاضل، لازم الإمام أحمد أكثر من عشرين سنة توفي سنة(٢٧٤هـ). سير أعلام النبلاء (١٣/ ٨٩)، تهذيب التهذيب (٣/ ٥٨٥).

(٧) سورة الحجرات، الآية ١٤.

(٨) الإيمان لابن منده (١/ ٣١١) والسنة للخلال (٣/ ٦٠٤).

الآخر، وإذا افترقا دلَّ كلٌّ منهما على ما يدل عليه الآخر، فإذا اجتمعا فيفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال القلبية. واستدلوا على ذلك بالأدلة السابقة في القول الثاني، ولكنهم زادوا على القول السابق بهذا التفصيل.

وممَّن قال بهذا أبوبكر الإسماعيلي(١) والخطابي(٢)، وابن رجب، وابن تيمية وغيرهم.

قال أبوبكر الإسماعيلي: «قال كثير من أهل السنة والجماعة أن الإيمان قولٌ وعمل، والإسلام فعل ما فرض الله على الإنسان أن يفعله إذا ذكر كل اسم على حدته مضمومًا إلى الآخر، فقيل: المؤمنون والمسلمون جميعًا مفردين أريد بأحدهما معنى لم يرد بالآخر، وإذا ذكر أحد الاسمين شمل الكل وعمَّهم، وقد ذكر هذا المعنى أيضًا الخطَّابي في كتابه معالم السنن وتبعه عليه جماعة من العلماء من بعده»(٣).

وقال ابن رجب: «هكذا اسم الإسلام والإيمان، والاسمان إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده، فإذا قرن بينهما دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ودل الآخر على الباقي»(٤).

وقال أيضًا: «إذا أُفرد كلٌّ من الإسلام والإيمان بالذكر، فلا فرق بينهما حينئذ، وإن قرن بين الاسمين كان بينهما فرق والتحقيق في الفرق بينها أن الإيمان هو تصديق القلب وإقراره ومعرفته، والإسلام هو استسلام

---

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الجرجاني أبوبكر الإسماعيلي أحد الأئمة الأعلام، توفي سنة (٣٧١). سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٩٢)، طبقات الحفاظ ص (٣٩٩)، ترجمة(٨٦٧).

(٢) هو حمد وقيل أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي الشافعي محدث فقيه، لغوي، من مصنفاته «معالم السنن» و«شأن الدعاء» وغيرها، توفي سنة(٣٨٨هـ). طبقات الحفاظ ص (٤٢٠) ترجمة (٩١٧)، البداية والنهاية (١١/ ٣٤٦).

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص (٣٤).

(٤) المرجع السابق ص (٣٤).

العبد لله، وخضوعه وانقياده له، وذلك يكون بالعمل وهو الدين»[١].

وقال ابن تيمية: «التحقيق ابتداءً هو ما بينه النبي ﷺ لما سئل عن الإسلام والإيمان، ففسَّر الإسلام: بالأعمال الظاهرة، والإيمان: بالإيمان بالأصول الخمسة، فليس لنا إذا جمعنا بين الإسلام والإيمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي ﷺ، وأما إذا أفرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام، وإذا أفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمنًا بلا نزاع، وهذا هو الواجب»[٢].

وهذا هو الراجح، جمعًا بين الأقوال، وهو الذي قال به القرطبي، إذ يقول: «الإيمان والإسلام حقيقتان متباينتان، لغة وشرعًا، كما دل عليه حديث جبريل هذا وغيره، وهذا هو الأصل في الأسماء المختلفة، أعني: أن يدل كل واحد منهما على خلاف ما يدل عليه الآخر، غير أنه قد توسع الشرع فيهما فأطلق اسم الإيمان على حقيقة الإسلام، كما في حديث وفد عبد القيس، وكقوله: «**الإيمان بضعٌ وسبعون باباً أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلَّا الله**»[٣] وقد أطلق الإسلام مريدًا مسمى الإسلام والإيمان بمعنى التداخل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾[٤]. وقد أطلق الإيمان كذلك أيضًا، كما روي من حديث علي مرفوعًا «**الإيمان اعتقادٌ بالقلب وإقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان**»[٥]»[٦].

والمازري أخذ بالقول الثاني، ففرَّق بين الإسلام والإيمان، ولكنه لم يذكر هذا التفصيل الذي قال به أصحاب القول الثالث، فعند شرحه لحديث سعد بن أبي وقَّاص الذي قال فيه: «**يارسول الله إني لأراه مؤمناً، قال عليه الصلاة والسلام: أو مسلمًا**»[٧] حيث قال: «قوله ﷺ: «أو مسلمًا» دليلٌ على التفرقة بين الإسلام والإيمان؛ لأن الإيمان التصديق، والإسلام

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (٣٥).
(٢) الإيمان لابن تيمية ص (٢٠٤).
(٣) سبق تخريجه ص(١٠٦).
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩
(٥) سبق تخريجه ص(١٠٦).
(٦) المفهم (١/ ١٤٠).
(٧) سبق تخريجه ص(١٢١).

الاستسلام والانقياد إلى الشرائع، والإيمان شعبة من ذلك، فكل إيمانٍ إسلام، وليس كل إسلام إيمانًا؛ لأنه قد ينقاد في الظاهر وهو منافق، قال تعالى: ﴿ ۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾[(١)]»[(٢)].

وهذا الذي ذكره المازري قاله ابن الصلاح، وبيَّن أنه قول جماهير العلماء، حيث قال: «وحققناه أن الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان، وأن لك مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، وهذا تحقيق واف بالتوفيق بين متفرقات النصوص الواردة في الإيمان والإسلام التي طالما غلط فيها الخائضون، وما حققناه من ذلك موافق لمذاهب جماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والرد إلى الله ورسوله في مسألة الإسلام والإيمان يوجب أن كلا من الاسمين ـ وإن كان مسماه واجبًا ـ لا يستحق أحد الجنة إلاَّ بأن يكون مؤمنًا مسلمًا فالحق في ذلك ما بينه النبي ﷺ في حديث جبريل فجعل الدين وأهله ثلاث طبقات: أولها: الإسلام، وأوسطها: الإيمان، وأعلاها: الإحسان، ومن وصل إلى العليا فقد وصل إلى التي تليها، فالمحسن مؤمن، والمؤمن مسلم، وأما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمنًا»[(٤)].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

(٢) المعلم: ٢/ ٢٣.

(٣) الإيمان لابن تيمية ص (٢٨٤).

(٤) المرجع السابق ص(٢٨١).

المبحث الثالث

الكبيرة وحكم مرتكبها

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: **تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر**

المطلب الثاني: **تعريف الكبيرة وتحديدها**

المطلب الثالث: **حكم مرتكبها**

المطلب الأول : تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر:

ذهب جمهور العلماء من السلف والخلف إلى أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، كما وردت بذلك النصوص من الكتاب والسنة.

فمن الكتاب: قوله تعالى:

- ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[١].

- وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[٢].

ومن السنة:

- قوله ﷺ: **«الصلواتُ الخمسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعة، ورمضان إلى رمضان، مُكفراتٌ ما بينهُنَّ إذا اجْتنبت الكبائرُ»**[٣].

- وقوله ﷺ: **«إن من أكبر الكبائر أن يَلْعَن الرجُلُ والديه. قالوا: يارسول الله وكيف يلعنُ الرجُلُ والديه؟ قال: يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجلِ فيسب أباهُ ويسُب أمَّهُ فيسُب أمَّهُ»**[٤].

والأحاديث في هذا كثيرة.

وشذت طائفة فقالت: إن جميع الذنوب كبائر، وليس فيها صغائر منهم أبوإسحاق الإسفرايني[٥]، والجويني والقشيري[٦]، والباقلاني، وابن

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة باب الصلوات الخمس ح(٢٣٣)،(٣/ ١١٩).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب لا يسب الرجل والديه ح/ ٥٩٧٣، (١٠/ ٤١٧)، ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها ح/ ٨٧، (٢/ ٤٤١).

(٥) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني المعروف بالأستاذ فقيه شافعي متكلم أشعري توفي سنة (٤١٨هـ). سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٥٣)، البداية والنهاية (١٢/ ٢٦).

(٦) هو القاسم بن عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك الخراساني القشيري الصوفي الأشعري له كتاب «شرح الأسماء الحسنى» توفي سنة(٤٦٥هـ). طبقات المفسرين للأدنه وي ص (١٢٥)، «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢٢٧).

فورك[١] وغيرهم. ونسبه بعضهم إلى الأشعرية، وحكاه القاضي عياض عن المحققين.

قال ابن حجر: ذهب الجمهور إلى أن من الذنوب صغائر وكبائر وشذت طائفة: منهم أبوإسحاق الإسفرايني، فقال: ليس من الذنوب صغيرة، بل كل ما نهى الله عنه كبيرة، ونقل ذلك عن ابن عباس وحكاه القاضي عياض عن المحققين[٢].

وقال ابن حجر الهيتمي[٣]: «اعلم أن جماعة من الأئمة أنكروا أن في الذنوب صغيرة، وقالوا: بل سائر المعاصي كبائر منهم أبوإسحاق الإسفرايني، والقاضي أبوبكر الباقلاني، وإمام الحرمين في الإرشاد، وابن القشيري في المرشد، بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة، واختاره في تفسيره فقال: «معاصي الله تعالى عندنا كلها كبائر، وإنما يقال لبعضها صغيره وكبيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها»[٤].

وقد رد القرطبي هذا القول، ونصر القول الأول الذي عليه جماهير أهل العلم فقال: «قد اختلف العلماء قديمًا وحديثًا في الكبائر ما هي، وما الفرق بينها وبين الصغائر. فروي عن ابن مسعود: أن الكبائر ما نهى الله عنه في أول سورة النساء إلى قوله: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾[٥]. وعن الحسن: أنها كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب، أو لعنة، أو عذاب، وقيل: هي كل ما أوعد الله عليه بنار أو بحد في الدنيا،

---

(١) محمد بن الحسن بن فورك أبوبكر الأصبهاني، فقيه، شافعي، أصولي، متكلم، أشعري، كثير التصانيف توفي سنة (٤٠٦هـ)، طبقات المفسرين للأدنه وي ص (٩٩)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢١٤).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٤٢٣).

(٣) أحمد بن محمد بن علي حجر الهيتمي السعدي شهاب الدين فقيه، مشارك في أنواع من العلوم له العديد من المصنفات منها: «تحفة المحتاج لشرح المنهاج»، و«الصواعق المحرقة لإخوان الابتداع والضلال والزندقة» وغيرها، توفي سنة (٩٧٣هـ). الأعلام(١/ ٢٣٤)، معجم المؤلفين (١/ ٢٩٣).

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي (١/ ٨).

(٥) سورة النساء، الآية: ٣١.

وروي عن ابن عباس أنها كل ما نهى الله عنه»[١].

ثم أنكر نسبة ذلك لابن عباس وردَّه، وبين صحة تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر فقال: «وما أظنه صحيحًا ـ أي النقل عن ابن عباس ـ؛ لأنه مخالف لما في كتاب الله من التفرقة بين المنهيات، فإنه قد فرَّق بينها في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[٢]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[٣] فجعل من المنهيات كبائر وصغائر، وفرَّق بينها في الحكم لمَّا جعل تكفير السيئات في الآية مشروطًا باجتناب الكبائر، واستثنى اللمم من الكبائر والفواحش، فكيف يخفى هذا الفرق على مثل ابن عباس؟ وهو حبر القرآن! فتلك الرواية عن ابن عباس ضعيفة أو لا تصح»[٤].

ولكن الحافظ ابن حجر صحَّح هذا النقل عن ابن عباس، ولكنه وجه قوله بعد نقله لقول القرطبي السابق حيث قال: «لكن النقل المذكور عنه أخرجه إسماعيل القاضي[٥] والطبري[٦] بسندٍ صحيح على شرط الشيخين إلى ابن عباس، فالأولى أن يكون المراد بقوله: «ما نهى الله عنه» محمولاً على نهي خاص، وهو الذي قرن به وعيد كما قيد في الرواية الأخرى عن ابن عباس، فيحمل مطلقه على مقيده جمعًا بين كلاميه»[٧].

والقول بتقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر، والذي قال به القرطبي هو القول الصحيح الذي عليه جماهير العلماء.

---

(١) المفهم (١/ ٢٨٣).
(٢) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٢.
(٤) المفهم (١/ ٢٨٤).
(٥) إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل الأزدي المالكي، مفسر، مقرىء، تولى قضاء بغداد وله عدة مصنفات منها «أحكام القرآن». توفي سنة (٢٨٢هـ). الديباج المذهب ص(١٥١)، طبقات المفسرين للأدنه وي ص(٤١).
(٦) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الإمام المحدث المفسر، صاحب كتاب «جامع البيان في تأويل القرآن» توفي سنة (٣١٠هـ)، طبقات الحفاظ ص(٣٢٧)، ترجمة (٧٠٤)، طبقات المفسرين للأدنه وي ص(٤٨).
(٧) فتح الباري (١٠/ ٤٢٤).

قال أبوحامد الغزالي: «إنكار الفرق بين الصغيرة والكبيرة لا يليق بالفقيه»[(١)].

وقال النووي: «وذهب الجماهير من السلف والخلف من جميع الطوائف إلى انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر، وهو مروي أيضًا عن ابن عباس، وقد تظاهر على ذلك دلائل من الكتاب والسنة، واستعمال سلف الأمة وخلفها»[(٢)].

وقال ابن القيم: «وقد دلَّ القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم والأئمة على أن الذنوب كبائر وصغائر»[(٣)].

وقال ابن حجر الهيتمي: «وقال جمهور العلماء أن المعاصي تنقسم إلى صغائر وكبائر»[(٤)].

المطلب الثاني :تعريف الكبيرة وتحديدها:

الكبيرةُ لغة: من الكبر.

قال ابن منظور: «الكِبْرُ: الإثم الكبير وما وعد الله عليه النار. والكِبْرَةُ كالكِبْرِ: التأنيث للمبالغة»[(٥)].

«والكبيرةُ: الإثم الكبير المنهيّ عنه شرعًا»[(٦)].

والعلماء الذين قالوا بانقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر، اختلفوا في تحديد الكبيرة على قولين:

القول الأول:

منهم من حصرها في عدد معين، فقيل: ثلاث، وقيل: أربع، وقيل: سبع، وقيل: تسع، وقيل: إحدى عشرة، وقيل: سبع عشرة، وقيل:

---

(١) شرح مسلم للنووي (٢/ ٤٤٤).
(٢) المرجع السابق.
(٣) الجواب الكافي ص (١٧٠).
(٤) الزواجر (١/٨).
(٥) لسان العرب، مادة كبر (٥/ ١٢٩).
(٦) المعجم الوسيط (٢/ ٧٧٣).

سبعون، وقيل: سبعمائة[١].

ولا دليل على ذلك سوى ما يرد في بعض الأحاديث من ذكر بعض هذه الأعداد.

القول الثاني:

من يرى أن الكبائر لا تحصر بعدد معين، وهذا ما ذهب إليه القرطبي إذ قال عند شرحه لحديث: «**اجْتَنِبُوا السَّبع المُوبقات**»[٢]: «ولا شك أن الكبائر أكثر من هذه السبع بدليل الأحاديث المذكورة في هذا الباب وغيره، ولذلك قال ابن عباس حين سئل عن الكبائر فقال: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع، وفي رواية عنه هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، وعلى هذا فاقتصاره عليه السلام على هذه السبع في هذا الحديث يحتمل أن يكون هي التي أعلم بها في ذلك الوقت بالوحي ثم بعد ذلك أعلم بغيرها، ويحتمل أن يكون ذلك؛ لأن تلك السبع هي التي دعت الحاجة إليها في ذلك الوقت، أو التي سئل عنها في ذلك الوقت، وكذلك القول في كل حديث خصَّ عددًا من الكبائر والله تعالى أعلم»[٣].

ثم هؤلاء الذين لا يرون حصرها بموجب هذه الأحاديث بعدد معين اختلفوا في تعريفها بضابط يضبطها على أقوال:

قيل: كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب فهو كبيرة، روي هذا عن ابن عباس، وقال به سعيد بن جبير[٤]

---

(١) انظر هذه الأقوال ومن قال بها في: تفسير الطبري (٤/ ٤١)، وزاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٤٠) والنووي في شرح مسلم (٢/ ٤٤٣)، وابن حجر في الفتح (١٢/ ١٩٠) وابن تيمية في الفتاوى (١/ ٦٥٠)، والهيتمي في الزواجر (١/ ٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب الوصايا باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ ح(٢٧٦٦) (٥/ ٤٦٢)، ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها ح/ ٨٩، (٢/ ٤٤٤).

(٣) المفهم (١/ ٢٨٣).

(٤) هو سعيد بن جبير الأسدي مولاهم الكوفي أحد أعلام التابعين قتله الحجاج سنة(٩٥هـ) وكان الناس في أشد الحاجة إلى علمه رحمه الله تعالى. حلية الأولياء(٤/ ٢٧٢)، تهذيب التهذيب(٢/ ٩).

ومجاهد[١]، والحسن[٢].

وقيل: «الكبائر ما كان فيه من المظالم بينك وبين العباد، والصغائر ما كان بينك وبين الله، وقال به سفيان الثوري»[٣].

وقيل: كل معصية يقدم عليها المرء من غير استشعار خوف ولا ندم كالمتهاون بارتكابها والمتجرىء عليها اعتيادًا فما أشعر بهذا الاستخفاف والتهاون فهو كبيرة. وممن قال بهذا أبوحامد الغزالي[٤].

وقيل: كل ذنب كبر وعظم عظمًا، يصح معه أن يطلق عليه اسم الكبيرة، وَوصفَ بكونه عظيمًا على الإطلاق. وقاله ابن الصلاح[٥].

وقد ذكر القرطبي تعريفًا جيدًا لها إذ قال: «كل ذنب أطلق عليه بنص كتاب أو سنة أو إجماع أنه كبيرة أو عظيم، أو أخبر فيه بشدة العقاب، أو علق عليه الحد، أو شدد عليه النكير، فهو كبيرة. وهذا الكلام في غير ما قد ورد بالنص الصريح فيه أنه كبيرة من الكبائر أو أكبر الكبائر»[٦].

وقد اختار هذا التعريف الحافظ ابن حجر، وارتضاه، فقال: «ومن أحسن التعاريف قول القرطبي في المفهم»[٧] ثم ساق التعريف السابق.

المطلب الثالث : حكم مرتكب الكبيرة:

أجمع أهل السنة والجماعة على أن مرتكب الكبيرة الغير مستحل لها لا يكفر بذلك، بل ينقص إيمانه ولا يذهب بالكلية، بل يقولون مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته.

والنصوص من الكتاب والسنة قد تضافرت على ذلك.

---

(١) هو مجاهد بن جبر المخزومي بالولاء المكي الثقة إمام التفسير من أئمة التابعين توفي سنة(١٠١هـ)، حلية الأولياء (٣/ ٢٧٩)، صفة الصفوة(٢/ ٢٠٨).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٤٤).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٤٩).

(٤) شرح مسلم للنووي (٢/ ٤٤٤).

(٥) المرجع السابق (٢/ ٤٤٥).

(٦) المفهم (١/ ٢٨٣).

(٧) فتح الباري (١٢/ ١٩).

فمن الكتاب: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾[١].

قال ابن جرير: «وقد أبانت الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليه، ما لم تكن كبيرته شركًا بالله»[٢].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ ﴾[٤].

قال السعدي[٥]: «الإيمان والأخوة الإيمانية لا يزولان مع وجود الاقتتال كغيره من الذنوب الكبائر التي دون الشرك وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة»[٦].

ومن السنة: قوله ﷺ في حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ **أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تُشْركوا بالله شيئًا، ولا تسرِقوا ولا تَزْنُوا ولا تَقْتلُوا أولادكُم ولا تأْتوا ببهتانٍ تفترونَهُ بين أيديكم وأرجُلِكُم ولا تعصُوا في معرُوف، فمن وفَّى منكُم فأجْرُهُ على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعُوقِب في الدنيا فهو كفَّارةٌ له، وإن أصابَ من ذلك شيئًا ثم سَتَرَهُ الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنهُ وإن شاء عاقبهُ» فبايعناه على ذلك**[٧].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) تفسير الطبري (٤/ ١٢٩).

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٨

(٤) سورة الحجرات الآية: ٩

(٥) الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي أحد أعلام القرن الرابع عشر الهجري، له «تفسير القرآن» «والقول السديد في مقاصد التوحيد» وغيرها من المصنفات التي زادت على أربعين مصنفًا توفي في عنيزة بالقصيم سنة(١٣٧٦هـ) معجم المؤلفين(٢/ ١٢١)، الأعلام(٣/ ٣٤٠).

(٦) تفسير السعدي ص (٨٧٩).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب بايعوا على أن لاتشركوا بالله شيئًا ح/ ١٨ (١/ ٨١).

وحديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: **«ما من عبد قال: لا إله إلاَّ الله ثُمَّ مات على ذلك إلاَّ دخل الجنة قلتُ: وإن زَنَى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرَق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنْفِ أبي ذرٍّ»**(١).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وهذا هو الذي عليه جماهير العلماء خلافًا للمبتدعة من الخوارج الذين قالوا بكفر مرتكب الكبيرة والمعتزلة الذين جعلوه في الدنيا بمنزلة بين المنزلتين، فليس بمؤمن ولا كافر، وفي الآخرة خالد مخلد في جهنم، والمرجئة الخالصة الذين قالوا لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

قال الطحاوي(٢): «ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله»(٣).

وقال الإمام أحمد: «والكف عن أهل القبلة ولا تكفر أحد منهم بذنب ولا تخرجه من الإسلام»(٤).

وقد بوَّب البخاري في صحيحه بقوله: «باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلاَّ بالشرك»(٥).

وقال أبوعثمان الصابوني(٦) مقررًا عقيدة السلف: «ويعتقد أهل السنة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب من كان آخر كلامه لاإلٰه إلاَّ الله ح(١٢٣٧)، (٣/ ١٣٢) واللفظ من كتاب اللباس باب الثياب البيض ح(٥٨٢٧)، (١٠/ ٢٩٤) ومسلم في كتاب الإيمان باب من مات لايشرك بالله شيئًا دخل الجنة ح(٩٢)، (٢/ ٤٥٢).

(٢) أحمد بن محمد الطحاوي الحنفي أبوجعفر إمام حافظ، له عدة مصنفات، منها: «معاني الآثار»، وشرح مشكل الآثار» وغيرها. توفي سنة (٣٢٢هـ). سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧)، طبقات الحفاظ ص(٣٥٥)، ترجمة (٧٦٨).

(٣) الطحاوية مع شرحها لابن أبي العز (٢/ ٤٣٢).

(٤) السنة للإمام أحمد ص (٧٢).

(٥) صحيح البخاري، كتاب الإيمان فتح الباري (١/ ١٠٦).

(٦) إسماعيل بن عبدالرحمن بن أحمد الصابوني، إمام في الحديث، متبع للسنة، واعظ مفسر، من العلماء العبَّاد الزُّهَّاد، توفي سنة (٤٤٧هـ). طبقات المفسرين للأدنة وي =

أن المؤمن وإن أذنب ذنوبًا كثيرة، صغائر وكبائر، فإنه لا يكفر بها، وإن خرج من الدنيا غير تائب منها ومات على التوحيد والإخلاص، فإن أمره إلى الله عز وجل، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة... وإن شاء عاقبه وعذَّبه مدة بعذاب النار وإذا عذَّبه لم يخلد فيها»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيانه لمذهب أهل السنة: «وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر... ولا يسلبون الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه في النار... ويقولون هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته»(٢).

وقد نهج القرطبي منهج أهل السنة في هذه المسألة فقرر ما ذهبوا إليه من عدم تكفير مرتكب الكبيرة فعند شرحه لحديث: «**من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة**»(٣). قال: «من المعلوم من الشرع المجمع عليه من أهل السنة أن من مات على ذلك فلابد له من دخول الجنة، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة... وهذا معلوم ضروري من الدين مجمع عليه من المسلمين»(٤).

وقال أيضًا: «من لقي الله تعالى مرتكب كبيرة ولم يتب منها فهو في مشيئة الله تعالى التي دل عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(٥).

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة الصحيحة المفيدة بكثرتها حصول العلم القطعي أن طائفة كثيرة من أهل التوحيد يدخلون النار ثم يخرجون منها بالشفاعة أو بالتفضل المعبر عنه بالقبضة في الحديث الصحيح(٦) أو بما شاء

= ص(١١٨)، تاريخ دمشق (٩/ ٣).

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص (٢٧٦).

(٢) العقيدة الواسطية ضمن الفتاوى (٣/ ١٥١).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ح(٩٣، ٢/ ٤٥٣).

(٤) المفهم (١/ ٢٩٠).

(٥) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٦) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية ح(١٨٣، ٣/ ٣٠).

الله»[١].

وقال: «مذهب أهل الحق أن لا يكفر أحد من المسلمين بارتكاب كبيرة ماعدا الشرك»[٢].

وقد ردَّ على المكفرة بالذنوب من المعتزلة والخوارج وبين تخريج الأحاديث التي تدل بظاهرها على ما ذهبوا إليه فقال في شرحه لحديث أبي هريرة: «**ولا يزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمن**»[٣]: «ظاهر هذا الحديث حجة للخوارج والمعتزلة وغيرهم ممن يخرج من الإيمان بارتكاب الكبائر غير أن أهل السنة يعارضونهم بظواهر أولى منها كقوله عليه الصلاة والسلام في حديث أبي ذر: «**من مات لا يشركُ بالله شيئًا دخل الجنة وإن زنى وإن سرَقَ**»[٤] وكقوله في حديث عبادة بن الصامت: «**ومن أصاب شيئًا من ـ ذلك يعني من القتل والسرق والزنى ـ فعوقب فهو كفارة له، ومن لم يعاقب فأمره إلى الله إن شاء عفا وإن شاء عذبه**»[٥] ويعضد هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[٦].

ونحو هذا في الأحاديث كثيرة، ولما صحت هذه المعارضة تعين تأويل تلك الأحاديث الأول وما في معناها وقد اختلف العلماء في ذلك فقال حبر القرآن عبدالله بن عباس: إن ذلك محمول على المستحل لتلك الكبائر وقيل معنى ذلك: إن مرتكب تلك الكبائر يسلب عنه اسم الإيمان الكامل أو النافع الذي يفيد صاحبه الانزجار عن هذه الكبائر وقال الحسن: يسلب عنه اسم المدح الذي سمي به أولياء الله المؤمنون ويستحق اسم الذم

---

(١) المفهم (١/ ١٩٩).

(٢) المفهم (١/ ٣٠٠).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأشربة باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ح/٥٥٧٨ (١٠/ ٣٣)، ومسلم في كتاب الإيمان باب نقصان الإيمان بالمعاصي ح(٥٧، ٢/ ٤٠١).

(٤) سبق تخريجه ص(١٣٥).

(٥) سبق تخريجه ص(١٣٣).

(٦) سورة النساء، الآية: ٤٨.

الذي سمي به المنافقون والفاسقون... وكل هذه التأويلات حسنة والحديث قابل لها وتأويل ابن عباس هذا أحسنها»[١].

ولا شك أن حديث عبادة بن الصامت صريح في رد مذهب المكفرة بالذنوب، وقد قال عند شرحه: «وهذا تصريح بأن ارتكاب الكبائر ليس بكفر؛ لأن الكفر لا يغفر لمن مات عليه بالنص والإجماع، وهو حجة لأهل السُّنَّة على المكفرة للذُّنوب وهم الخوارج وأهل البدعة»[٢].

وكذلك حديث الشفاعة أيضًا، حيث قال فيه: «وهذا الحديث ردٌّ على الخوارج والمعتزلة حيث حكمُوا بخلود أهل الكبائر في النار وأنهم لا يخرجون منها أبدًا»[٣].

وحمل جميع ما يرد من هذه الأحاديث الدالة بظاهرها على تكفير أهل الكبائر على هذه المحامل مع تخريج كل حديث بما يناسب سياقه، وقد قال عند شرحه لحديث: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»[٤] بعد أن بين مفهوم الحديث على ضوء معتقد أهل السنة والجماعة قال: «وعلى هذا القانون ينبغي أن يحمل ما في هذا الباب مما قال فيه النبي ﷺ إن فاعله لا يدخل الجنة مما ليس بشرك للأدلة المتقدمة، ولما يأتي في أحاديث الشفاعة»[٥].

والمازري أيضًا وافق أهل السنة بقولهم هذا ورد على الخوارج والمعتزلة والمرجئة فيما ذهبوا إليه، وإن كان نسب هذا القول إلى الأشعرية، فقال عند شرحه لحديث: «**من مات وهو يعلمُ أنَّهُ لا إله إلَّا الله دخل الجنة**»[٦]: «اختلف الناس فيمن عصى من أهل الشهادتين فقالت

---

(١) المفهم (١/ ٢٤٧).

(٢) المفهم (٥/ ١٤٢).

(٣) المفهم (١/ ٤٥٢).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان باب تحريم إيذاء الجار ح(٤٦) (٢/ ٣٧٦).

(٥) المفهم(١/ ٢٢٨) وانظر على سبيل المثال (١/ ١٩٩، ٢٠١، ٢٢٨، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٨٩، ٢٩٩، ٣١٠، ٣٤٧، ٣٥٤، ٣/ ٧٢٥، ٤٠/ ٦٠، ٦/ ٥٢٧، ٦٠٧).

(٦) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على أنَّ من مات على التوحيد دخل الجنة =

المرجئة: «لا تضره المعصية مع الإيمان، وقالت الخوارج: تضره المعصية ويكفر بها، وقالت المعتزلة يخلد في النار إذا كانت معصيته كبيرة ولا يوصف بأنه مؤمن ولا كافر ولكن يوصف بأنه فاسق. وقالت الأشعرية: بل هو مؤمن وإن لم يغفر له وعذب، فلابد من إخراجه من النار وإدخاله الجنة وهذا الحديث حجة على الخوارج والمعتزلة. وأما المرجئة فإن احتجت بظاهره على صحة ما قالت به قلنا: محمله على أنه غُفِرَ له وأُخرِجَ من النار بالشفاعة ثم أدخل الجنة فيكون المعنى في قوله: «دخل الجنة» أي دخلها بعد مجازاته بالعذاب وهذا لابد من تأويله لما جاءت به ظواهر كثيرة من عذاب بعض العصاة، فلابد من تأويل هذا الحديث على ما قلناه لئلا تتناقض ظواهر الشرع»[١].

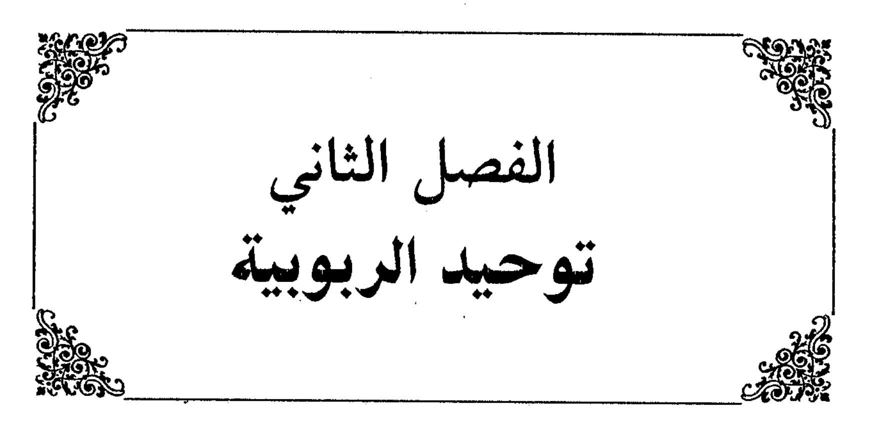
وبين في شرحه لمثل هذه الأحاديث أنها لا تحمل على ظاهرها بمعزل عن الأحاديث الأخرى المبينة لها دفعًا لمذهب الخوارج فقال عند شرحه لحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[٢]: «قيل معنى مؤمن أي آمن من عذاب الله ويحتمل أن يحمل على أن معناه: أن يكون مستحلاً لذلك، وقد قيل: معناه أي كامل الإيمان، وهذا على قول من يرى أن الطاعات تسمى إيمانًا. وهذه التأويلات تدفع قول الخوارج أنه كافر بزناه، وقول المعتزلة أن الفاسق الملّيّ لا يسمى مؤمنًاتعلقًا من الطائفتين بهذا الحديث، وإذا احتمل ما قلناه لم تكن لهم فيه حجة»[٣].

= قطعًا ح/٢٦ (١/ ٣٣١).

(١) المعلم (١/ ١٩٤).

(٢) سبق تخريجه ص(١٣٦).

(٣) المعلم (١/ ١٩٧) وانظر أيضًا (١/ ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠).



الفصل الثاني
توحيد الربوبية

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهـــيد : علم الكلام وموقف السلف منه

المبحث الأول: **أول واجب على المكلف والرد على المتكلمين.**

المبحث الثانـي: **معنى توحيد الربوبية وأدلته**

المبحث الثالث: **الإيمان بالقدر**

التمهيد

علم الكلام وموقف السلف منه

مما لا شك فيه أن علم الكلام الذي خاض فيه من خاض، فقعَّدوا له القواعد، وبنوا عليه المسائل، وألزموا الناس من خلاله بمنهج لم يأت في كتابٍ ولا سنة، ولا عرفه سلف هذه الأمة، وقد ترتب عليه من المحاذير ما الله به عليم، خصوصًا ما يتعلق بتوحيد الربوبية، ومعرفة الله تعالى، لذا وضعت هذا التمهيد لهذا الفصل في ذم الكلام وأهله وموقف السلف منه.

لقد أمر الله تعالى بلزوم الكتاب والسنة، ونهى عن الخصومات في الدين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[(١)]، وقال ﷺ: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعضوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة»**[(٢)].

وقد حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على الالتزام بالكتاب والسنة، والتحذير من البدع والكلام المذموم، والمجادلة بالباطل. وما قصة عمر رضي الله عنه مع صبيغ بن عسل[(٣)] وتأديبه، والنهي عن مجالسته ـ بسبب كثرة أسئلته ومجادلاته بالباطل[(٤)] ـ إلاَّ نموذجًا على حرص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على إقفال هذا الباب، والتحذير من هذا المسلك.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا

(١) سورة النساء، الآية: ١١٥.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/١٢٦)، وأبوداود في كتاب السنة، باب لزوم السنة، والترمذي في كتاب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/٣٤٢).

(٣) صبيغ بن عسل ويقال صبيغ بن شريك التميمي البصري: استمر في منهجه هذا حتى قتل في بعض الفتن. تاريخ دمشق (٢٣/٤٠٨).

(٤) وردت القصة بعدة روايات انظر: الشريعة للآجري (١/٤٨٣)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي(٤/٧٠٢).

نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر»[١].

وقد سار التابعون، ومن بعدهم من السلف، على هذا المنهج، وازداد تحذيرهم من هذا المسلك بعدما أحدث المتكلمون المسائل الكلامية البدعية، وما صاحبها من الألفاظ المحدثة الموهمة.

قيل لأبي حنيفة: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام والأعراض والأجسام؟ فقال: «مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة»[٢].

وقال الإمام مالك: «لو كان الكلام علمًا، لتكلم فيه الصحابة والتابعون، كما تكلموا في الأحكام والشرائع، ولكنه باطلٌ، يدل على باطلٍ»[٣].

وقال الإمام الشافعي: «لأن يُبْتَلىٰ المرءُ بكل ما نهى اللهُ عَنه ـ ماعدا الشرك به ـ خيرٌ من النظر في الكلام»[٤].

وقال الإمام أحمد: «لا يفلح صاحب كلام أبدًا، ولا تكاد ترى أحدًا نظر في الكلام إلاَّ وفي قلبه دغل»[٥].

وقال أبويوسف[٦]: «من طلب الدين بالكلام تزندق»[٧].

وقال البربهاري[٨]: «اعلم أنها لم تكن زندقة ولا كفر ولا شكوك ولا

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي(١/ ١٦٦).

(٢) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة للأصبهاني (١/ ١١٥).

(٣) شرح السنة للبغوي (١/ ١٤٩).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٦٥) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني(١/ ١١٥).

(٥) صحيح جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر تحقيق أبو الأشبال الزهيري ص (٣٦٧).

(٦) هو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري مولاهم الشهير بأبي يوسف صاحب أبي حنيفة أثبت أصحاب الرأي في الحديث وأحفظهم له، توفي سنة (١٨٢هـ). سيرأعلام النبلاء (٨/ ٥٣٥)، طبقات الحفاظ ص(١٣٦) ترجمة (٢٦٠).

(٧) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني(١/ ١١٧)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي(١/ ١٦٦).

(٨) هو الحسن بن علي بن خلف البربهاري شيخ الحنابلة كان قوّالاً للحق، لا تأخذه في =

بدعة ولا ضلالة ولا حيرة في الدين إلاَّ من الكلام وأهل الكلام، والجدال والمراء، والخصومة والعجب»(١).

وهكذا تضافرت نصوص السلف في التحذير من علم الكلام وذمه. وهذا التحذير ينصب على علم الكلام المخالف للكتاب والسنة، مما أُدْخِلَ في العقيدة من الدلائل والمسائل المبتدعة، التي تكون سببًا في ضعف الإيمان، وقلة تعظيم الكتاب والسنة.

والقرطبي ـ رحمه الله ـ له كلامٌ قويٌّ جميلٌ في الرد على المتكلمين، وذم ما هم فيه، وبيان المحاذير المترتبة على الكلام، نقله الإمام الحافظ ابن حجز بطوله في الفتح ـ كما تقدم ذكره ـ خصوصًا أنَّ القرطبي أخذ علم الكلام في بداية طلبه، كما قال ابن مسدي عنه: «أخذ نفسه بعلم الكلام وأن الجوهر الفرد لا يقبل الانقسام وتغلغل في تلك الشعاب عدة أحقاب»(٢). وقال المقري: «وكان يشتغل أولاً بالمعقول»(٣).

فنقده لعلم الكلام نقد المجرب الخبير، حيث قال عند شرحه لحديث: «**إنَّ أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِمُ**»(٤): «وهذا الخصم المبغوض عند الله تعالى هو الذي يقصد بخصومته مدافعة الحق، ورده بالأوجه الفاسدة، والشبه الموهمة، وأشد ذلك؛ الخصومة في أصول الدين، كخصومة أكثر المتكلمين المعرضين عن الطرق التي أرشد إليها كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وسلف أمته إلى طرق مبتدعة واصطلاحات مخترعة، وقوانين جدلية، وأمور صناعية، مدار أكثرها على مباحث سوفسطائية، أو مناقشات لفظية ترد بشبهها على الآخذ فيها شبه ربما يعجز

= الله لومة لائم أوذي وامتحن بسب ذلك حتى توفي مستترًا سنة(٣٢٨هـ). سير أعلام النبلاء (١٥/ ٩٠). البداية والنهاية (١١/ ٢١٣).

(١) شرح السنة للبربهاري ص(٣٨).

(٢) توضيح المشتبه (٨/ ١٣٩).

(٣) نفح الطيب لابن ناصرالدمشقي (٢/ ٦١٥).

(٤) رواه البخاري في كتاب المظالم باب قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤﴾ [البقرة/ ٢٠٤] ح(٢٤٥٧) (٥/ ١٢٧)، ومسلم في كتاب العلم باب في الألد الخصم ح(٢٦٦٨) (١٦/ ٤٥٩).

عنها وشكوك يذهب الإيمان معها، وأحسنهم انفصالاً عنها أجدلهم لا أعلمهم، فكم من عالم بفساد الشبهة لا يقوى على حلها، وكم من منفصل عنها لا يدرك حقيقة علمها! ثم إن هؤلاء المتكلمين قد ارتكبوا أنواعًا من المحال لا يرتضيها البله ولا الأطفال،لما بحثوا عن تحيز الجواهر والأكوان والأحوال، ثم إنهم أخذوا يبحثون فيما أمسك عن البحث فيه السلف الصالح، ولم يوجد عنهم فيه بحث واضح، وهو كيفية تعلقات صفات الله تعالى وتقديرها، واتخاذها في أنفسها، وأنها هي الذات أو غيرها، وأن الكلام هل هو متحد أو منقسم؟ وإذا كان منقسمًا فهل ينقسم بالأنواع أو بالأوصاف؟ وكيف تعلق في الأزل بالمأمور؟ ثم إذا انعدم المأمور فهل يبقى ذلك التعلق؟ وهل الأمر لزيد بالصلاة مثلاً هو عين الأمر لعمرو بالزكاة؟ إلى غير ذلك من الأبحاث المبتدعة التي لم يأمر الشرع بالبحث عنها، وسكت أصحاب النبي ﷺ ومن سلك سبيلهم عن الخوض فيها، لعلمهم بأنها بحث عن كيفية ما لا تعلم كيفيته، فإن العقول لها حدٌّ تقف عنده، وهو العجز عن التكييف لا يتعداه، ولا فرق بين البحث في كيفية الذات وكيفية الصفات، ولذا قال العليم الخبير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[1]، ولا تبادر بالإنكار فعل الأغبياء الأغمار، فإنك قد حُجبت عن كيفية حقيقة نفسك مع علمك بوجودها وعن كيفية إدراكاتك مع أنك تدرك بها، وإذا عجزت عن إدراك كيفية ما بين جنبيك فأنت عن إدراك ما ليس كذلك أعجز. وغاية علم العلماء وإدراك عقول الفضلاء، أن يقطعوا بوجود فاعل هذه المصنوعات، منزه عن صفاتها، مقدَّس عن أحوالها، موصوف بصفات الكمال اللائق به. ثم مهما أخبرنا الصادقون عنه بشيء من أوصافه وأسمائه، قبلناه، واعتقدناه، وما لم يتعرضوا له سكتنا عنه، وتركنا الخوض فيه، هذه طريقة السلف، وما سواها مهاوٍ وتلف، ويكفي في الردع عن الخوض في طرق المتكلمين ما قد ورد في ذلك عن الأئمة المتقدمين...».

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

ثم ذكر أقوالاً في ذم الكلام لعمر بن عبدالعزيز(١)، ومالك، والشافعي، وأحمد، وابن عقيل(٢) سبق بعضها، ثم بيَّن رجوع كثير من أئمة المتكلمين عن الكلام، كإمام الحرمين، والوليد بن أبان الكرابيسي(٣)، وأبي الوفا بن عقيل، والشهرستاني(٤) وذكر أقوالهم في ذلك، ثم قال: «. . . ولو لم يكن في الكلام شيءٌ يُذَمُّ به إلاَّ مسألتان هما من مبادئه، لكان حقيقًا بالذم، وجديرًا بالترك:

إحداهما: قول طائفة منهم: إن أول الواجبات: الشك في الله تعالى. والثانية: قول جماعة منهم: إن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها والأبحاث التي حرروها فلا يصح إيمانه، وهو كافر، فيلزمهم على هذا تكفير أكثر المسلمين من السلف الماضين، وأئمة المسلمين. . . عصمنا الله من بدع المبتدعين، وسلك بنا طريق السلف الماضين، وإنما طوَّلت في هذه المسألة الأنفاس، لما قد شاع من هذه البدع في الناس، ولأنه قد اغتر كثيرٌ من الجُهَّال بزخرف تلك الأقوال، وقد بذلت ما وجب عليَّ من النصيحة، والله تعالى يتولى إصلاح القلوب الجريحة»(٥).

وسبب ذم السلف لعلم الكلام، وتشديدهم في النكير على أهله، إنما

---

(١) هو الإمام الراشد القدوة العادل المصلح أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز مروان الأموي تولى الخلافة سنتين وأشهر رد فيها المظالم إلى أهلها وسعى في الإصلاح وفعل الخير من الحفاظ المجتهدين والعباد الزاهدين. تاريخ الخلفاء ص (٢٦١) وطبقات الحفاظ ص(٥٧) ترجمة(١٠١).

(٢) أبوالوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الحنبلي المتكلم صاحب التصانيف من الأذكياء المتبحرين توفي سنة(٥١٣هـ). سير أعلام النبلاء(١٩/ ٤٤٣)، الكامل في التاريخ (٩/ ١٩٠).

(٣) الوليد بن أبان الكرابيسي المعتزلي المتكلم قيل: إنه رجع عند وفاته عن الكلام وأوصى بما عليه أهل الحديث توفي سنة(٢١٤هـ). سير أعلام النبلاء(١٠/ ٥٤٨)، معجم المؤلفين(٤/ ٧٦).

(٤) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني الشافعي المتكلم الأشعري، من تصانيفه: «الملل والنحل»، «نهاية الإقدام» وغيرها توفي سنة(٥٤٨هـ). سير أعلام النبلاء(٢٠/ ٢٨٦)، معجم المؤلفين(٣/ ٤٢٢).

(٥) المفهم (٦/ ٦٩٠ـ ٦٩٤).

كان لعلمهم أن الكتاب والسنة يفيان بما يحتاجه الناس، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[١].

وقد وسع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعين ذلك، فلم يخوضوا في علم الكلام، والحق في الاتباع وترك الابتداع. إضافة إلى أن علم الكلام يؤدي بأهله إلى الشك والحيرة؛ لاشتماله على مسائل مبتدعة، ومعاني باطلة، بنيت على أصول فاسدة، حيث عظموا العقل، وجعلوه حاكمًا على الكتاب والسنة، فضعف خضوعهم للكتاب والسنة، وقلّت عنايتهم بهما، فعرضوا مسائل العقيدة وفق منهج كلامي، وقالب فلسفي جدلي، مما يؤدي إلى صرف الناس عن إدراك حقيقة العقيدة الصافية السهلة الواضحة. ثم إنهم أفنوا أعمارهم في توحيد الربوبية، وإثبات أدلة وجود الله تعالى، وهو أمرٌ فطري، لا يحتاج إلى كل ذلك، وأغفلوا توحيد الألوهية، الذي خُلِقَ الناس لأجله، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[٢]. فلم يكن ما خاضوا فيه علمًا نافعًا، ولا منهجًا صائبًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية عنهم: «من أعظم الناس حشوًا وقولاً للباطل وتكذيبًا للحق»[٣].

على أن من خاض من السلف في بعض المسائل التي لم تكن معروفة عند المتقدمين منهم، إنما فعل ذلك مضطرًا مجبرًا للدفاع عن الإسلام، ودفع شبه الملحدين والزنادقة، الذين يدَّعون علم المعقول، ويطعنون في الكتاب والسنة، كما قال الإمام الدارمي[٤] ـ رحمه الله ـ: «وقد كان من مضى من السلف يكرهون الخوض في هذا وما أشبهه، وقد كانوا رُزِقُوا

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٣) الفتاوى(٤/ ٢٧).
(٤) هو عثمان بن سعيد الدارمي الإمام الحافظ المحدث صاحب المسند طاف الأقاليم في طلب الحديث كان قويًا على المبتدعة وله مصنفات في الرد عليهم توفي سنة(٢٨٠هـ). سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣١٩)، تاريخ دمشق (٣٨/ ٣٦١).

العافية منهم، وابتُلِيْنَا بهم عند دروس الإسلام، وذهاب العلماء، فلم نجد بُدًّا من أن نرد عليهم ما أتوا به من الباطلِ بالحق»(١).

وقال ابن تيمية: «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه»(٢).

وكذلك ينبغي أن يُعلم أن الذين خاضوا في علم الكلام، وأخذوا بأقوال المتكلمين ليسوا على درجة واحدة، ولا يلحق الذم المذكور عن السلف جميع هؤلاء، بل هم درجات وبعضهم أقرب إلى السنة من بعض، إذ منهم من تابع أهل الكلام، وانخدع بأقوالهم؛ لعدم معرفته بالحق في بعض المسائل، مع تعظيمه لنصوص الشرع، ونصرته للحق، فهذا لا يقارن بمن حرَّف الكَلِمَ عن مواضعه، وأصَّل أصولاً من عقله، وجعلها حاكمًا على شرع الله»(٣).

---

(١) الرد على الجهمية للدارمي ص(٢٣).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٥٧).

(٣) انظر: النبوات ص(١٥٩)، الاستقامة(١/ ٣٧)، درء التعارض (٢/ ٣١٥،٧/ ٩٨) وكلها لابن تيمية.

المبحث الأول
أول واجب على المكلف والرد على المتكلمين

لقد سلك المتكلمون في معرفة الله تعالى، والاستدلال على وجوده طرقًا ملتوية، ما أنزل الله بها من سلطان، وليس لهم في ذلك دليل من كتاب أو سنة، أو فهم سلف الأمة. وقد ترتب على ما ذهبوا إليه من المفاسد ما لا يحصى كثرةً، وقولهم هذا راجع إلى اعتقادهم بأن معرفة الله تعالى نظرية وليست فطرية، أي لا يوجد في القلوب معرفة للخالق سبحانه قبل النظر، لذا اعتبروه أول الواجبات على العبد. قال الباقلاني: «أول ما فرض الله عز وجل على العباد النظر في آياته، والاعتبار بمقدوراته، والاستدلال عليه بآثار قدرته، وشواهد ربوبيته؛ لأنه سبحانه غير معلوم باضطرار، ولا مُشاهد بالحواس، إنما يُعْلَم وجوده وكونه على ما تقتضيه أفعاله، بالأدلة الظاهرة والبراهين الباهرة»(١).

وقال الجويني: «أول ما يجب على العاقل البالغ باستكمال سن البلوغ أو الحُلم شرعًا القصد إلى النظر الصحيح»(٢).

وقد ذكر الباجوري(٣) الأقوال في أول واجب على المكلف، ثم قال بعد ذلك في محاولة للجمع بينها: «الأصح أن أول واجب قصدًا: المعرفة، وأول واجب وسيلة قريبةً: النظر. ووسيلة بعيدة: القصد إلى النظر وبهذا يجمع بين الأقوال الثلاثة»(٤).

وهذا القول هو الذي عليه عامة الأشاعرة، وقد أخذوه عن المعتزلة. قال أبوجعفر السمناني(٥): «إن هذه المسألة بقيت في مقالة الأشعري من

---

(١) الإنصاف للباقلاني ص(٢٢).
(٢) الإرشاد للجويني ص(٢٥).
(٣) إبراهيم بن محمد الباجوري أو البيجوري الشافعي الأشعري شيخ الأزهر في زمنه توفي سنة(١٢٧٧هـ). معجم المؤلفين (١/٥٧)، هدية العارفين(٥/٤١).
(٤) تحفة المريد على جوهرة التوحيد للباجوري ص(٣٨).
(٥) هو محمد بن أحمد بن محمد السمناني القاضي الحنفي أحد المتكلمين لازم القاضي أبابكر الباقلاني حتى برز في علم الكلام، كان حامل لواء الأشعرية في زمنه توفي =

مسائل المعتزلة، وتفرع عليها أن الواجب على كل أحد معرفة الله بالأدلة الدالة عليه، وأنه لا يكفي التقليد في ذلك»[(١)].

ويترتب على قولهم هذا إخراج لعامة المسلمين من الإسلام، بل تكفير لسلف الأمة وَخَلَفِها، وقد بيَّنوا أن هذه الطريقة لا يعرفها كل أحد، فجعلوا الإيمان بالله والدخول في دينه لا يستطيعه إلاَّ من رسخ في العلم بزعمهم. ولهذا لما عدَّد شارح «الجوهرة» المطالب السبعة التي يتوصل بها إلى إثبات وجود الله تعالى قال: «وهذه المطالب لا يعرفها إلاَّ الراسخون في العلم» ثم قال: «قال السنوسي[(٢)]: وبها ينجو المكلف من أبواب جهنم السبعة»[(٣)].

فانظر كيف جعل السنوسي عاقبة ترك هذه المطالب على المكلف سواء كان من العوام أو من العلماء الراسخين في العلم، وانظر كيف اعترف الباجوري بأنه لا يعلمها إلاَّ الراسخون في العلم، فيكونون على هذا هم الناجين فقط دون من سواهم، ويكون العوام وهم أكثر المسلمين ليسوا بناجين من النار، بل حتى العلماء الذين ليسوا براسخين في العلم، وهذا تحجير لواسع، وتضييق لرحمة الله، وابتداع لقول لم يسبقوا إليه»[(٤)].

ولا شك أن في الكتاب والسنة تعريفًا للناس بخالقهم بطرق سهلة ميسرة لا تخفى على أحد، ولا تحتاج لرسوخٍ في العلم، ودقةٍ في النظر، مع ما في فِطَرِ الناس من معرفة لله تعالى. والرسول ﷺ ما أمر الناس بالنظر أو طلب منهم ذلك، أو سأل من دخل في الإسلام عنه، إنما كانت الدعوة إلى الشهادتين فمن فعل ذلك دخل في الإسلام وحكم له به.

قال ابن تيمية: «والنبي ﷺ لم يدع أحدًا من الخلق إلى النظر ابتداءً

= سنة(٤٤٤هـ). سير أعلام النبلاء(١٧/ ٦٥١)، البداية والنهاية(١٢/ ٦٨).

(١) نقله عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٣٦١).

(٢) محمد بن يوسف السنوسي سبقت ترجمته.

(٣) تحفة المريد للباجوري ص(٤٢).

(٤) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله الخالق، عبد اللطيف محمد نور(١/ ٣١٦).

ولا إلى مجرد إثبات الصانع، بل أول ما دعاهم إليه الشهادتان، وبذلك أمر أصحابه(١).

وقال ابن حزم: «وقال سائر أهل الإسلام: كل من اعتقد بقلبه اعتقادًا، لا يشك فيه، وقال بلسانه: لا إله إلاَّ الله، وأن محمدًا رسول الله وأن كل ما جاء به حق وبريء من كل دين سوى دين محمد ﷺ فإنه مسلم مؤمن ليس عليه غير ذلك»(٢).

وقال أبوالمظفر السمعاني(٣): «إنما أنكرنا طريقة أهل الكلام على ما أسسوا فإنهم قالوا: أول ما يجب على الإنسان النظر المؤدي إلى معرفة الباري. وهذا قول مخترع لم يسبقهم إليه أحد من السلف وأئمة الدين ولو أنك تدبرت جميع أقوالهم وكتبهم لم تجد هذا في شيء منها منقولاً عن النبي ﷺ، ولا من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وكذلك من التابعين بعدهم»(٤).

والرد على هؤلاء من وجهين:

أولاً: أن معرفة الله تعالى ليست نظرية، بل فطرية، وسيأتي بيان ذلك.

ثانيًا: أن أول الواجبات على العبد النطق بالشهادتين، كما جاءت بذلك النصوص من الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾(٦).

وقول الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ حينما بعثه إلى

---

(١) درء تعارض العقل والنقل(٨/ ٦).

(٢) الفصل في الملل والنحل(٤/ ٢٩).

(٣) هو منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني مفسر أُصولي متكلم، له عدة مصنفات منها: «منهاج أهل السنة» توفي سنة(٤٨٩هـ). طبقات المفسرين للأدنه وي ص(١٤٥)، البداية والنهاية (١٢/ ١٦٤).

(٤) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني (٢/ ١٢٠).

(٥) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

اليمن: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمدًا رسُولُ الله...**»[١]. وقوله ﷺ: «**أمرتُ أن أُقاتل الناسَ حتى يشهدُوا أن لا إله إلاَّ الله وأن محمدًا رسُولُ الله...**»[٢].

وهذا متفق عليه بين السلف، كما تبين من النصوص السابقة. والقرطبي ـ رحمه الله ـ نصر قول أهل السنة والجماعة في هذه المسألة، وخالف الأشاعرة ومن وافقهم في قولهم هذا، حيث قال بعد ذكره لأركان الإيمان: مذهب السلف وأئمة الفتوى من الخلف، أن من صدق بهذه الأمور تصديقًا جزمًا لا ريب فيه، ولا تردد ولا توقف كان مؤمنًا حقيقة وسواء كان ذلك عن براهين ناصعة، أو عن اعتقادات جازمة.

على هذا انقرضت الأعصار الكريمة، وبهذا صرحت فتاوى أئمة الهدى المستقيمة حتى حدثت مذاهب المعتزلة المبتدعة، فقالوا: إنه لا يصح الإيمان الشرعي، إلاَّ بعد الإحاطة بالبراهين العقلية والسمعية وحصول العلم بنتائجها ومطالبها ومن لم يحصل إيمانه كذلك، فليس بمؤمن ولا يجزئ إيمانه بغير ذلك وتبعهم على ذلك جماعة من متكلمي أصحابنا كالقاضي أبي بكر، وأبي إسحاق الإسفراييني، وأبي المعالي في أول قوليه، والأول هو الصحيح، إذ المطلوب من المكلفين ما يقال عليه: إيمان كقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٣]، ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٤].

والإيمان: هو التصديق لغة وشرعًا، فمن صدق بذلك كله ولم يجوز نقيض شيء من ذلك، فقد عمل بمقتضى ما أمره الله به، على نحو ما أمره الله تعالى ومن كان كذلك فقد تقصَّى عن عهدة الخطاب، إذ قد عمل بمقتضى السنَّة والكتاب، ولأنَّ رسول الله ﷺ وأصحابه بعده حكمُوا بصحَّة

---

(١) رواه البخاري كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ح(٧٣٧٢) (١٣/ ٣٥٩). ومسلم في كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ح(١٩) (١/ ٣١٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب قتال الناس حتى يقولوا لاإله إلاَّ الله محمد رسول الله ﷺ ح(٢٢) (١/ ٣٢٥).

(٣) سورة النساء، آية: ١٣٦.

(٤) سورة الفتح، آية: ١٣.

إيمان كلّ من آمن وصدق بما ذكرناه، ولم يفرقوا بين من آمن عن برهان، أو عن غيره، ولأنهم لم يأمروا أجلاف العرب بترديد النظر ولا سألوهم عن أدلَّة تصديقهم، ولا أرجؤوا إيمانهم حتى ينظروا وتحاشوا عن إطلاق الكفر على أحد منهم، بل سموهم المؤمنين والمسلمين، وأجروا عليهم أحكام الإيمان والإسلام؛ ولأن البراهين التي حررها المتكلمون ورتبها الجدليون إنما أحدثها المتأخرون ولم يخض في شيء من تلك الأساليب السلف الماضون فمن المحال والهذيان أن يشترط في صحة الإيمان ما لم يكن معروفًا ولا معمولاً به لأهل ذلك الزمان، وهم من هم فهمًا عن الله وأخذًا عن رسول الله ﷺ وتبليغًا لشريعته وبيانًا لسُنَّته وطريقته»[١].

وبيَّن في موضع آخر فساد ما ذهبوا إليه، وخطورة ما يترتب عليه، فقال: «ولو لم يكن في الكلام شيءٌ يُذَمُّ به إلاَّ مسألتان، هما من مبادئه، لكان حقيقًا بالذم، وجديرًا بالترك.

إحداهما: قول طائفة منهم: إن أول الواجبات الشك في الله تعالى.

والثانية: قول جماعة منهم: إن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها، والأبحاث التي حرروها فلا يصح إيمانه وهو كافر.

فيلزمهم على هذا تكفير أكثر المسلمين، من السلف الماضين، وأئمة المسلمين، وأن من يبدأ بتكفيره أباه وأسلافه، وجيرانه، وقد أُورد على بعضهم هذا فقال: لا يُشَنِّع علي بكثرة أهل النار... ومن شك في تكفير من قال: إن الشك في الله تعالى واجب، وأن معظم الصحابة والمسلمين كفار، فهو كافر شرعًا، أو مختل العقل، وضعًا إذ كل واحدة منها معلومة الفساد بالضرورة الشرعية، الحاصلة بالأخبار المتواترة القطعية، وإن لم يكن كذلك، فلا ضروري يصار إليه في الشرعيات ولا العقليات»[٢].

ولا شك أن من ذهب إلى هذا القول ليس له حجة في ذلك، وما تمسكوا به في حديث معاذ لا يسلم لهم، بل هو حجة عليهم، وقد بيَّن القرطبي هذا فقال: «قوله: «فإذا عرفوا الله فأخبرهم». أي: إن أطاعوا

---

(١) المفهم (١/ ١٤٥).

(٢) المفهم(٦/ ٦٩٣).

بالنطق بذلك أي: بكلمتي التوحيد كما قال في الرواية الأخرى: «فإن هم أطاعوا بذلك فأعلمهم» فسمى الطواعية بذلك والنطق به: معرفة؛ لأنه لا يكون غالبًا إلاَّ عن المعرفة، وهذا الذي أمر النبي ﷺ به معاذًا هو الدعوة قبل القتال التي كان النبي ﷺ يوصي بها أمراءه، وقد اختلف في حكمها على ما يأتي في الجهاد، وعلى هذا فلا يكون في حديث معاذ حجة لمن تمسك به من المتكلمين، على أن أول واجب على كل مكلف معرفة الله تعالى بالدليل والبرهان، بل هو حجة لمن يقول: إن أول الواجبات التلفظ بكلمتي الشهادة مصدقًا بها»(١).

قال الشوكاني(٢) ـ رحمه الله ـ رادًّا على المتكلمين في قولهم في هذه المسألة، مبينًا ما يترتب عليها من النتائج الفاسدة: «فيا لله العجب من هذه المقالة التي تقشعر لها الجلود، وترجف عند سماعها الأفئدة، فإنها جناية على جمهور هذه الأمة المرحومة وتكليف لهم بما ليس في وسعهم ولا يطيقونه، وقد كفى الصحابة الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد ولا قاربوها، الإيمان الجملي، ولم يكلفهم رسول الله ﷺ وهو بين أظهرهم بمعرفة ذلك، ولا أخرجهم عن الإيمان بتقصيرهم عن البلوغ إلى العلم بذلك بأدلته»(٣).

---

(١) المفهم (١/ ١٨١).
(٢) محمد بن علي الشوكاني الإمام العالم المجتهد أكثر من التصنيف منها: «فتح القدير» في التفسير، «نيل الأوطار» في فقه الحديث، وغيرها كثير توفي سنة(١٢٥٠هـ). معجم المؤلفين (٣/ ٥٤١)، الأعلام(٦/ ٢٩٨).
(٣) إرشاد الفحول ص(٣٩٣).

المبحث الثاني
معنى توحيد الربوبية وأدلته

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: **تعريفه لغة**

المطلب الثانـي: **تعريفه شرعًا**

المطلب الثالث: **أدلته:**

أ ـ دليل الفطرة.

ب ـ دليل الخلق.

جـ ـ دليل المعجزة.

المطلب الأول : تعريف توحيد الربوبية لغة :

قال الجوهري: «رب كل شيء مالكُهُ. والربُّ: اسم من أسماء الله عز وجل»[١].

وقال ابن فارس[٢]: «رب: الراء والباء يدل على أصول، فالأول: إصلاح الشيء، والقيام عليه، فالربُّ: المالكُ والخالقُ، والصَّاحب. والرّبُّ: المُصْلح للشَّيء. يُقال: رَبَّ فلانٌ ضَيعته، إذا قام على إصلاحها... والله جلَّ ثناؤُه الرَّبُّ؛ لأنه مصلحُ أحوال خلقه»[٣].

وقال ابن قتيبة[٤]: «الرب: المالك، يقال: هذا رب الدار ، ورب الضيعة، ورب الغلام، أي مالكه، قال الله سبحانه: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[٥] أي: إلى سيدك. ولا يقال لمخلوق: هذا الرب، معرَّفًا بالألف واللام، كما يقال لله، إنما يقال، هذا رب كذا، فيعرف بالإضافة؛ لأن الله مالك كل شيء، فإذا قيل: الرب، دلَّت الألف واللام على معنى العموم، وإذا قيل لمخلوق: رب كذا ورب كذا، نسب إلى شيء خاص»[٦].

وقال القرطبي: «وأصل رب: اسم فاعل من رب الشيء يربه إذا أصلحه وقام عليه، ثم إنه يقال على السيد والمالك»[٧].

---

(١) الصحاح للجوهري(١/ ١٣٠).

(٢) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني المعروف بالرازي أبو الحسين لغوي مشارك في سائر العلوم توفي سنة(٣٩٥هـ). طبقات المفسرين للأدنه وي ص(٩٢). معجم المؤلفين(١/ ٢٢٣).

(٣) معجم مقاييس اللغة(٢/ ٣٨١، ٣٨٢).

(٤) هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري إمام مشارك في سائر العلوم له العديد من المصنفات في التفسير واللغة والحديث منها: «تأويل مختلف الحديث» «مشكل القرآن» وغيرها توفي سنة(٢٧٦هـ). طبقات المفسرين للأدنه وي ص(٤٤). سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٩٦).

(٥) سورة يوسف، أية: ٥٠.

(٦) تفسير غريب القرآن ص(٩).

(٧) المفهم (٧/ ٤٢).

المطلب الثاني: تعريف توحيد الربوبية شرعًا :

هو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه، وخالقه، ورازقه، وأنه المحيي والمميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر[١].

قال ابن القيم: «فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السموات والأرض عبدٌ له في قبضته، وتحت قهره»[٢].

وهذا هو الذي قرره القرطبي ـ رحمه الله ـ وأشار إليه في أكثر من موضع حيث قال: «إن الله تعالى يفعل ما يريد ويحكم في خلقه بما يشاء فلا مدخل لعقولنا في أفعاله، ولا معارضة لأحكامه، بل يجب علينا الرضا والتسليم، فإن إدراك العقل لأسرار أحكام الربوبية قاصر سقيم»[٣].

وقال أيضًا: «الإيمان بالله هو التصديق بوجوده تعالى، وأنه لا يجوز عليه العدم، وأنه تعالى موصوفٌ بصفات الجلال والكمال... وأنه واحد، صمد، فرد، خالق جميع المخلوقات، متصرف فيها بما يشاء من التصرفات، يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه ما يشاء»[٤].

وهذا التوحيد هو أساس أنواع التوحيد الأخرى؛ لأن الخالق المالك الرازق المدبر هو المستحق للعبادة والخضوع، وهو المستحق لأوصاف الجلال والكمال.

وقد زعم أهل الكلام ومن وافقهم أن هذا التوحيد هو الذي جاءت به الرسل، وأُنزلت لأجله الكتب، فأطالوا في إثباته، وتوسعوا في تقريره.

قال شارح الطحاوية في تعريفه لتوحيد الربوبية: «الإقرار بأنه خالق

---

(١) تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ ص(٣٣).
(٢) مدارج السالكين(١/ ٣٤).
(٣) المفهم (٦/ ٢١٦).
(٤) المفهم (١/ ١٤٤).

كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام، وطائفة من الصوفية، وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات»[(١)].

ولا شك أن التوحيد الذي جاءت بالدعوة إليه الرسل هو توحيد العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[(٢)].

وهو الذي أنكره كفار قريش، فما نفعهم إيمانهم بتوحيد الربوبية ـ مع كفرهم بتوحيد الألوهية ـ كما قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾[(٣)].

فهم عبدوا الأصنام، وأشركوها مع الله تعالى في العبادة، مع إقرارهم بتفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة.

المطلب الثالث: أدلة توحيد الربوبية:

تبين مما سبق أن الاعتقاد بوجود الله سبحانه أمرٌ فطريٌّ، لا يحتاج إلى دليل، ولكن انحراف بعض طوائف الملحدين، أوجد الحرص على إبراز الأدلة التي جاءت في الكتاب والسنة، والعقل السليم، والتي تدل على وجود الله سبحانه وتعالى، لرد أولئك إلى الفطر السليمة التي فطر الله الناس عليها.

قال شيخ الإسلام: «الإقرار بالخالق وكماله يكون فطريًّا ضروريًّا في

---

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العزالحنفي (١/ ٢٥).
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦.
(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ٨٤ـ ٨٩.

حق من سلمت فطرته، وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة، وقد يحتاج إلى الأدلة عليه كثير من الناس عند تغير الفطرة وأحوال تعرض لها»[(١)].

فهذه القضية مع وضوحها تخبط فيها بعض الناس، فأكثروا فيها من القيل والقال، واشتد النزاع وطال الجدال.

فأهل الكلام من المعتزلة وغالب الأشاعرة أنكروا المعرفة الفطرية التي في قلب العبد، وأوجبوا النظر لمعرفة الله تعالى ـ كما سبق ـ.

وأما أهل السنة والجماعة فقد استدلوا على وجود الله بعدة أدلة جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كدليل الفطرة، ودليل الخلق ودليل المعجزة، وهو ما ذهب إليه القرطبي ـ رحمه الله ـ موافقًا فيه السلف معرضًا عن منهج أهل الكلام.

وأما المازري فله كلام في دليل الفطرة يفهم منه ميله إلى إثبات أن الفطرة هي دين الإسلام كما سيأتي مفصلاً.

أ ـ دليل الفطرة :

ذكر القرطبي تعريف الفطرة لغة وشرعًا. فقال في تعريفها اللغوي: «أصل الفطرة ابتداء الخلقة، ومنه فطر ناب البعير إذا ابتدأ خروجه. ومنه قول الأعرابي المتحاكم إلى ابن عباس في البئر «أنا فطرتها» أي ابتدأت حفرها»[(٢)].

وقال في تعريفها شرعًا: «أي جبلة الله التي جبلهم عليها من التهيؤ لمعرفته والإقرار به»[(٣)].

ودليل الفطرة من كتاب الله تعالى قوله جل وعلا: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ

---

(١) الفتاوى (٦/ ٧٣).
(٢) المفهم (١/ ٣٨٨).
(٣) المفهم (١/ ٣٨٨).

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[(١)].

ومن السنة قوله ﷺ: «**ما من مولُود إلاَّ يُولَدُ على الفطرة، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه، ويُنصِّرَانه ويُمَجسانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تحسُّون فيها من جدعاء**»[(٢)].

وقوله ﷺ في الحديث القدسي فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: «**إنِّي خلقتُ عبادي حُنَفَاء كُلَّهُم وإنَّهُم أتتهُم الشياطينُ فاجْتَالَتْهُم عن دينِهِم وحرَّمت عليهم ما أَحْلَلَتُ لهُم**»[(٣)].

وقد اختلف في الفطرة الواردة في الآية والحديثين على أقوال:

قيل: الفطرة هي الإسلام، وقيل: قدرة العبد على معرفة الله تعالى بعد بلوغه فهو يولد سالمًا ليس في قلبه شيء، وقيل: هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها من الحياة والموت والسعادة والشقاوة.

وقيل: ما أخذ عليهم من الميثاق قبل خروجهم إلى الدنيا.

وقيل: هي ما كتب عليهم فمنهم من فطر على الإيمان ومنهم من فطر على الكفر[(٤)].

والقول الراجح الذي تؤيده الأدلة هو القول الأول الذي فسر الفطرة بالإسلام وهو الذي عليه عامة السلف وأكثر المفسرين.

قال مجاهد: «فطرة الله: أي الإسلام»[(٥)].

وقال البخاري: «باب لا تبديل لخلق الله»: لدين الله، والفطرة: الإسلام»[(٦)].

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير باب تفسير سورة الروم ح(٤٧٧٥) (٨/ ٣٧٢)، ومسلم في كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ح(٢٦٥٨) (١٦/ ٤٤٦).

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ح(٢٨٦٥) (١٧/ ٢٠٣).

(٤) انظر: فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها للدكتور أحمد حمدان ص(١٦٦).

(٥) تفسير الطبري (١٠/ ١٨٣).

(٦) صحيح البخاري مع الفتح(٨/ ٣٧٢).

وقال ابن عبدالبر: «أجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الإسلام وهو المعروف عند عامة السلف»[١].

وهو الذي رجَّحه القرطبي، ورد الأقوال الأخرى لمخالفتها للأدلة، فقال عند شرحه لحديث: «**ما من مولود إلَّا يولد على الفطرة**»[٢]: «اختلف الناس في الفطرة المذكورة في هذا الحديث، وفي الآية فقيل: هي سابقة السعادة والشقاوة وهذا إنما يليق بالفطرة المذكورة في القرآن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[٣] وأما في الحديث فلا؛ لأنه قد أخبر في بقية الحديث بأنها تبدل وتغير، وقيل: هي ما أخذ عليهم من الميثاق، وهم في أصلاب أبائهم، وهذا إنما يليق بالرواية التي جاء فيها: «**كل مولود يولد على الفطرة**» ويبعد في رواية من رواه «**على هذه الملة**» وهي إشارة إلى ملة الإسلام.

وقال بظاهر هذه الآية طائفة من المتأولين، وهذا القول أحسن ما قيل في ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ لصحة هذه الرواية، ولأنها مبينة لرواية من قال: على الفطرة. ومعنى الحديث: إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فمادامت باقية على ذلك القبول، وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام هو الدين الحق، وقد جاء ذلك صريحًا في الصحيح: «**جبل الله الخلق على معرفته فاجتالتهم الشياطين**»[٤] وقد تقدم هذا المعنى وقد دلَّ على صحة هذا المعنى بقية الخبر حيث قال: «**كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟**» يعني: أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلق سليمًا من الآفات، فلو نزل على أصل تلك الخلقة لبقي كاملاً بريئًا من العيوب، لكن يُتصرفُ فيه، فتجدع أذنه ويوسم وجهه فتطرأ عليه

---

(١) انظر: التمهيد (١٨/ ٧٢).

(٢) سبق تخريجه ص(١٥٨).

(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٤) سبق تخريجه ص(١٥٨).

الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل، وكذلك الإنسان وهو تشبيه واقع ووجهه واضح»(١).

وقول القرطبي السابق موافقٌ للقول الصحيح في هذه المسألة، أما قوله: «إن الله خلق بني آدم مؤهلة لقبول الحق»، وقوله في تعريف الفطرة: «أي جبلة الله التي جبلهم عليها من التهيؤ لمعرفته والإقرار به» والتي نقلتها سابقًا فلا يفهم منه مخالفته للقول الصحيح، فقد نقل الحافظ ابن حجر عن الطيبي(٢) قوله: إن المراد بالفطرة: تمكن الناس من الهدى من أصل الجبلة، والتهيؤ لقبول الدين، فلو ترك المرء عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها؛ لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية، كالتقليد. ثم قال الحافظ: وإلى هذا مال القرطبي في المفهم(٣).

فقول القرطبي موافق للمشهور عن السلف؛ لأن السلف الذين فسَّروا الفطرة بالإسلام لم يقصدوا أن المولود يولد عالمًا بأحكام الدين، وإنما قصدوا أن الفطرة تستلزم معرفة الله تعالى وتوحيده من غير سبب خارجي(٤).

ولذا نقل الحافظ ابن حجر عقب نقله لقول القرطبي السابق قول ابن القيم الذي يوضح هذا المعنى حيث قال: «ليس المراد بقوله: «يولد على الفطرة» أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين؛ لأن الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾(٥) ولكن المراد أن الفطرة مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته... كل مولود يولد على إقراره بالربوبية، فلو خُلِّيَ

---

(١) المفهم (٦/ ٦٧٥).

(٢) هو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي شرف الدين عالم مشارك في شتى العلوم له «التبيان في المعاني والبيان» وغيرها، توفي سنة(٧٤٣هـ). الدرر الكامنة (٢/ ٦٨)، معجم المؤلفين (١/ ٦٣٩).

(٣) فتح الباري (٣/ ٢٩٣).

(٤) انظر: دلائل التوحيد لمحمد جمال الدين القاسمي ص (٢٢).

(٥) سورة النحل، الآية: ٧٨.

وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره»[١].

وأما المازري فقد ذكر الأقوال التي قيلت في الفطرة، ولم يرجح، لكن رده للأقوال الأخرى المخالفة لتفسير الفطرة بالإسلام يدل على ترجيحه لهذا القول، وسياق كلامه يظهر ذلك، حيث قال عند شرحه لحديث: «**ما من مولود إلَّا يولد على الفطرة**»[٢]: «ذهب بعض الناس إلى أن المراد بالفطرة المذكورة في الحديث ما أُخذ عليهم وهم في أصلاب آبائهم، وأن الولادة تقع عليها حتى يقع التغير بالأبوين. وذهب بعض الناس إلى أن الفطرة هي ما قضي عليه من سعادة أو شقاوة يصير إليها، وهذا التأويل إنما يليق بما في بعض الطرق، وهو قوله: «على الفطرة مطلقًا»، وأما ما وقع في بعض الطرق وهو قوله: «على هذه الفطرة» وقوله في أخرى: «إلاَّ وهو على هذه الملة» فإن هذه الإشارة إلى فطرة معينة وملة معينة تمنع هذا التأويل وقد يتعلق هؤلاء بقوله: «**إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرًا**»[٣] وظاهر هذا يمنع من كون كل مولود يولد على هذه الفطرة، وقد ينفصل الأخرون عنه بأن المراد به حالة ثانية طرأت عليه من التهيؤ للكفر وقبوله عليه، غير الفطرة التي ولد عليها، وقال آخرون: يحتمل أن يريد بالفطرة ما هيء له وكان مناسبًا لما وضع في العقول، وفطرة الإسلام صوابها كالموضوع في العقل، وإنما يدفع العقل عن إدراكه آفة وتغيير من قبل الأبوين وغيرهما»[٤].

فذكره الأقوال السابقة، والرد عليها، ثم ذكر تفسير الفطرة بالإسلام، ووجه ذلك، وعدم إعقابه بالرد يدل على اختياره لهذا القول.

وقد وجَّه أيضًا الحديث القدسي الذي قال فيه الله تعالى فيما يرويه

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢٩٣).

(٢) سبق تخريجه ص(١٥٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير باب: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ ح(٤٧٢٦) (٨/ ٢٧٤).

(٤) المعلم (٣/ ١٧٩).

عنه رسوله ﷺ: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كُلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديتُهُ**»[١] فقال: «ظاهره أن الناس على الضلال يخلقون إلاَّ من هداه سبحانه، وقد ذكر في الحديث الآخر أنهم على الفطرة يولدون وقد يراد بهذا هاهُنا وصفهم بما كانوا عليه قبل بعثة النبي ﷺ، أو أنهم إن تركوا وما في طباعهم من إيثار الراحة وإهمال النظر ضلوا إلاَّ من هداه الله سبحانه»[٢].

وقد جمع القرطبي بين الحديثين، وبيَّن أنه لا تعارض بينها، فقال: «لا معارضة بين قوله تعالى: «**كلكم ضال إلَّا من هديته**» وبين قوله: «**كل مولود يولد على الفطرة**»؛ لأن هذا الضلال المقصود في هذا الحديث هو الطارىء على الفطرة الأولى المغير لها الذي بينه النبي ﷺ بالتمثيل في بقية الخبر حيث قال: «**كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء**»»[٣].

ب ـ دليل الخلق:

إن المتأمل في هذا الكون العظيم الصنع في أجرامه السماوية ومخلوقاته الأرضية في الليل والنهار في سائر الكائنات والمخلوقات وما تدل عليه من بديع الصنع، وقمة الإعجاز، فهي آيات باهرة ودلالات واضحة تدل على أن لهذا الكون خالقًا مدبرًا أوجده وأبدعه، وأحكم صنعه، وهذا يعرفه كل من نظر في هذه المخلوقات وتدبر في هذه الكائنات[٤].

ولذا عندما سئل أحد الأعراب بما عرف الله؟

قال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا تدل على العليم الخبير؟!.

ولهذا قالت الرسل عليهم الصلاة والسلام لقومهم ـ كما حكى الله تعالى عنهم ـ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٥] فقولهم فاطر

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم ح(٢٥٧٧) (١٦/ ٣٦٨).
(٢) المعلم (٣/ ١٦٥).
(٣) المفهم (٦/ ٥٥٢).
(٤) انظر: دلائل التوحيد للقاسمي ص (٣٥).
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.

السموات والأرض إشارة إلى استنكار الشك فيمن هذا صنعه وأثره.

والقرآن مليء بالآيات التي تدعو الإنسان إلى التفكر في خلق الله تعالى، والنظر في ملكوت السموات والأرض؛ لأن ذلك سببٌ لإيمان من طمست فطرته، فجحد الله تعالى، وسببٌ لزيادة إيمان المؤمن وقوة يقينه بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[٤].

وغيرها من الآيات الكثيرة الدالة على ذلك.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دلَّ القرآن عليها، وهدى الناس إليها، وبيَّنها وأرشد إليها... هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول أم لم يخبر، لكن الرسول أمر أن يستدل به ودل به، وبيَّنه واحتج به، فهو دليلٌ شرعيٌّ؛ لأن الشارع استدل به، وأمر أن يستدل به، وهو عقلي؛ لأنه بالعقل تُعلم صحته»[٥].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر والتفكر في نفسه، فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية، وسطعت

(١) سورة يونس، الآية: ١٠١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٣) سورة فصلت ،الآية: ٥٣.
(٤) سورة الذاريات، الآيتان: ٢٠،٢١.
(٥) النبوات (١/ ٥٢).

له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب»[١].

وقال أيضًا: «وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله، ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه، ، وكمال حكمته وإحسانه، وبره ولطفه، وعدله، ورضاه، وغضبه، وثوابه وعقابه، فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته»[٢].

ولقد عقد الإمام ابن منده ـ رحمه الله ـ في كتابه «التوحيد» عدة فصول تدل عى هذا المعنى، وساق تحتها الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وفهم السلف لتلك النصوص[٣].

وقد بيَّن القرطبي أن هذه المخلوقات تدل على وجود الله سبحانه وتعالى، فما ترى من الشمس والقمر والنجوم والجبال وغيرها من المخلوقات العظيمة دالة على ذلك حيث قال: «الشمس والقمر دليلان على وجود الحق سبحانه وقهره وكمال إلهيته»[٤].

وأشار ـ رحمه الله ـ إلى أن النظر في هذه المخلوقات يؤدي بالعبد إلى الإيمان بالله تعالى، واليقين به سبحانه، وأن العاقل هو الذي يقوده هذا التفكر إلى الإيمان بالله تعالى والدخول في دينه، فعند شرحه لحديث أنس الذي قال فيه: «**جاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك. قال: صدق، قال: فمن خلق السماء؟ قال: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قال: الله. قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟ قال: الله. قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: نعم. . .**»[٥].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١/ ١٩٠).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).
(٣) التوحيد لابن منده (١/ ١١٣) فما بعدها.
(٤) المفهم (٢/ ٥٥٢).
(٥) رواه البخاري في كتاب العلم باب ما جاء في العلم وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ح(٦٣) (١/ ١٧٩) ومسلم في كتاب الإيمان باب السؤال عن أركان الإسلام =

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: هذا الرجل كان كامل العقل، وقد كان نظر بعقله في المخلوقات فدله ذلك على أن لها خالقًا خلقها، ألا ترى أنه استفهم النبي ﷺ عن خالق المخلوقات استفهام تقرير للقاعدة التي لا يصح العلم بالرسول إلاَّ بعد حصولها، وهي التي تفيد العلم بالمرسل، ثم إنه لما وافقه على ما شهد به العقل وأن الله تعالى هو المنفرد بخلق هذه المخلوقات أقسم عليه، وسأله به هل أرسله؟»[١].

وهذا دليلٌ عقليٌّ على إثبات الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فهذه المخلوقات لا شك أنها تدل على الخالق بالنظر والتفكر فيها، ووجود هذه المخلوقات من غير خالق أمرٌ يحيله العقل، فهذه الموجودات محدثة، فهي موجودة بعد أن لم تكن، فهي إما أن تكون وجدت من عدم أو من محدث لها.

والأول معلوم البطلان عقلاً، فلابد إذًا من محدث لها. فإما أن تكون أحدثت نفسها، وهذا معلوم البطلان أيضًا، وإما أن يكون المُحْدِثُ مُحَدثًا لمُحدثٍ آخر، وهذا الأخيرُ مُحْدَث لمُحْدِثٍ آخر أيضًا إلى ما لا نهاية. وهذا باطلٌ؛ لأنه يؤدي إلى الدور أو التسلسل، فلابد أن تحتاج إلى محدث أول لها قديم أزلي لا يحتاج إلى غيره، وهو واجب الوجود[٢] وهو الله سبحانه وتعالى.

وهذا الاستدلال يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ

= ح(١٢) (١/ ٢٨٣).

(١) المفهم (١/ ١٦٣).

(٢) قال الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله: لفظ الوجود ومعناه المطلق يشترك فيهما كل من الممكن والواجب والحادث والقديم الأزلي فالله يوصف بأنه موجود والحادث يقال له أيضًا: إنه موجود. ولكن للممكن وجود يخصه فإنه حادث سبق وجوده عدم ويلحقه الفناء وهو في حاجة دائمة ابتداءً ودوامًا إلى من يكسبه ويعطيه الوجود بل يحفظه عليه ولله تعالى وجود يخصه فهو سبحانه واجب الوجود لم يسبق وجوده عدم ولا يلحقه فناء ووجوده من ذاته لم يكسبه من غيره وذلك لأنه تعالى الغني عن كل ما سواه. الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي لمحمد أحمد سيد(٢/ ٤٠٨).

ﭐﻟۡﺨَٰﻠِﻘُﻮﻥَ ﴿٣٥﴾﴾[١].

قال ابن القيم في تفسيره لهذه الآية: «فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة، يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خُلقوا من غير خالق خلقهم، فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل... ثم قال: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وهذا أيضًا من المستحيل أن يكون العبد موجدًا خالقًا لنفسه... وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقًا خلقهم، وفاطرًا فطرهم، فهو الإله الحق الذي يستحق العبادة»[٢].

وقد استدل القرطبي بهذ الدليل العقلي فقال: «العقل الصريح قد دلَّ على أن كل ما نشاهده من هذه الموجودات ممكن في نفسه متغير في ذاته، وكل ما كان كذلك كان مفتقرًا إلى غيره، وذلك الغير إن كان ممكنًا متغيرًا كان مثل الأول، فلابد أن يستند إلى موجود لا يفتقر إلى غيره يستحيل عليه التغير[٣]، وهو المعبر عنه بلسان النظار بواجب الوجود، وفي لسان الشرع بالصمد، المذكورفي قوله تعالى ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[٤]»[٥]

وهذا الدليل يعرفه كل أحد إذ مخلوقات الله سبحانه وتعالى ظاهرة واضحة وفيها دلالة بينه، ولكن يؤكد على هذا الدليل ويوجَهُ إليه خاصة من انقدحت الشبُه في قلبه، فتمكنت منه فأفسدته حتى أنكر الخالق أوشك فيه.

وقد بيّن القرطبي هذا عند شرحه لقول الرسول ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته**»[٦] حيث قال: «قوله في الحديث الآخر: «قل

---

(١) سورة الطور، الآية: ٣٥.
(٢) بدائع التفسير(٤/ ٢٦٨).
(٣) هذه جعلها المتكلمون قاعدة فاسدة لنفي صفات الله سبحانه وتعالى الفعلية كالاستواء والمجيء والنزول إلى السماء الدنيا ونحو ذلك.
(٤) سورة الإخلاص، الآية: ١ـ ٢.
(٥) المفهم (٥/ ٥٢٨).
(٦) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده ح(٣٢٧٦) (٦/ ٣٨٧). ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ح(١٣٤)=

آمنت بالله» أمرٌ بتذكر الإيمان الشرعي واشتغال القلب به لتمحى تلك الشبهات وتضمحل تلك الترهات وهذه كلهاأدوية للقلوب السليمة الصحيحة المستقيمة التي تعرضُ الترهات لها ولا تمكث فيها، فإذا استعملت هذه الأدوية على نحو ما أمر به بقيت القلوب على صحتها وانحفظت سلامتها، فأما القلوب التي تمكنت أمراض الشُّبه فيها ولم تقدر على دفع ما حل بها بتلك الأدوية المذكورة فلابد من مشافهتها بالدليل العقلي والبرهان القطعي كما فعل النبي ﷺ مع الذي خالطته شبهة الإبل الجرب حين قال النبي ﷺ: «**لا عدوى**»(١) فقال أعرابي: فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فإذا دخل فيها البعير الأجرب أجربها؟ فقال النبي ﷺ: «**فمن أعدى الأول**» فاستأصل الشبهة من أصلها وتحرير ذلك على طريق البرهان العقلي أن يقال: إن كان الداخل أجربها فمن أجربه، فإن كان أجربه بعير أخر كان الكلام فيه كالكلام في الأول، فإما أن يتسلسل أو يدور وكلاهما مخال، فلابد أن نقف عند بعير أجربه الله من غير عدوى»(٢).

ووجدت للمازري كلامًا في هذا الدليل ذهب فيه إلى قريب مما ذكره القرطبي حيث قال في شرحه للحديث السابق: «أمره عليه السلام لهم عند وجود ذلك أن يقول: «آمنت بالله»: فإن ظاهره أنه أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها، والرد لها من غير استدلال ولا نظر في إبطالها والذي يقال في هذا المعنى: إن الخواطر على قسمين: فأما التي ليست بمستقره ولا اجتلبتها شبهة طرأت، فهي التي تدفع بالإعراض عنها، وعلى هذا يحمل الحديث وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة، فكأنه لما كان أمرًا طارئًا على غير أصل دفع بغير نظر في دليل إذ لا أصل له ينظر فيه، وأما الخواطر المستقرة التي أوجبتها الشبهة فإنها لا تدفع إلاَّ باستدلال ونظر في إبطالها، ومن هذا المعنى حديث: «**لا عدوى**» مع قول الأعرابي: فما بال

= (٢/ ٥١٣).

(١) رواه البخاري في كتاب الطب باب لاصَفَرَوهو داء يأخذ البطن ح(٥٧١٧) (١٠/ ١٨٠). ومسلم في كتاب السلام باب لاعدوى ولا طيرة ولا هامة... ح(٢٢٢٠) (١٤/ ٤٦٤).

(٢) المفهم (١/ ٣٤٥).

الإبل الصحاح تجرب بدخول الجمل الأجرب فيها، وعلم ﷺ أنه اغتر بهذا المحسوس وأن الشبهة قدحت في نفسه فأزالها عليه السلام من نفسه بالدليل فقال له: «فمن أعدى الأول»(١). ثم فصَّل في شرح كيفية ذلك كما فعل القرطبي.

جـ ـ دليل المعجزة:

إن المعجزات التي يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله عليهم الصلاة والسلام وتصديقًا لهم، هي من دلائل ربوبيته وإثبات وحدانيته. ذلك أنه إذا ثبتت نبوة الرسول ﷺ بحصول المعجزة، وجب تصديقه في كل ما يخبر به، والاستجابة لكل ما يدعو إليه، وأعظم ذلك إثبات ربوبية الله تعالى ووحدانيته والدعوة إلى توحيده.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة، وذلك لأن المعجزة ـ التي هي فعلٌ خارقٌ للعادة ـ تدل بنفسها على ثبوت الصانع كسائر الحوادث بل هي أخص من ذلك؛ لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة، ولهذا يسبح الرب عندها ويمجد ويعظم ما لا يكون عند المعتاد، ويحصل في النفوس ذلة من ذكر عظمته ما لا يحصل للمعتاد إذ هي آيات جديدة فتعطى حقها، وتدل بظهورها على الرسول، وإذا تبين أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله فتتقرر بها الربوبية والرسالة»(٢).

وكذلك ابن القيم ـ رحمه الله ـ يرى أن دلالة المعجزة من أقوى الطرق التي يستدل بها على وجود الله تعالى وتوحيده، حيث قال: «وهذه الطريق من أقوى الطرق وأصحها، وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل، ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله سبحانه آيات بينات، وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى

(١) المعلم (١/ ٢١٠).
(٢) الفتاوى (١١/ ٣٧٩).

منها، فإن انقلاب عصا تقلها اليد ثعبانًا عظيمًا يبتلع ما يمر به ثم يعود عصا كما كانت، من أدل الدليل على وجود الصانع وحياته وقدرته، وإرادته، وعلمه بالكليات والجزئيات، وعلى رسالة الرسول، وعلى المبدأ والمعاد، فكل قواعد الدين في هذه العصا، وكذلك اليد، وفلق البحر... وكذلك سائر آيات الأنبياء... من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله وصدق رسله واليوم الآخر، وهذه من طرق القرآن التي أرشد إليها عباده ودلهم بها»[١].

وقد وقف القرطبي وقفات كثيرة عند معجزاته عليه الصلاة والسلام ودلائل نبوته مبينًا أن ذلك علامةٌ على صدقه وآيةٌ لرسالته والتي لا شك أنها تتضمن الدعوة إلى وحدانيته والإقرار بربوبيته، والدعوة إلى عبادته تعالى. حيث قال: «قوله عليه الصلاة والسلام: «**الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله**»[٢] عند وقوع ما أخبر به من الغيب، دليلٌ على أن ذلك من جملة معجزاته، وإن لم يقترن بها في تلك الحال تحد قولي، وهذا على خلاف ما يقوله المتكلمون: إن من شروط المعجزة اقتران التحدي القولي بها، فإن لم تكن كذلك، فالخارق كرامة لا معجزة والذي ينبغي أن يقال: إن ذلك لا يشترط بدليل: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا كلما ظهر لهم خارق للعادة على يدي النبي ﷺ استدلوا بذلك على صدقه وثبوت رسالته»[٣].

والتفصيل في معجزاته ﷺ يأتي في مبحث دلائل النبوة في الفصل الثالث من هذه الرسالة.

على أنه صرّح في موضع آخر على أن هذا الدليل ـ أي المعجزة ـ علامة على ربوبية الله سبحانه وإثبات وحدانيته، فعند شرحه لحديث أنس رضي الله عنه الذي سبق ذكره بسؤال الأعرابي للرسول ﷺ عن خلق السماء

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة(٣/ ١١٩٧، ١١٩٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب «إنَّ الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر ح(٣٠٦٢) (٦/ ٢٠٧). ومسلم في كتاب الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ح(١١١) (٢/ ٤٨٢).

(٣) المفهم (١/ ٣١٩).

والأرض والجبال، قال القرطبي بعد ذلك: «ثم إن الرجل استمر على أسئلته إلى أن حصل على طلبته فانشرح صدره للإسلام، وزاحت عنه الشكوك والأوهام، وذلك ببركة مشاهدته أنوار رسول الله ﷺ، فقد كان كثير من العقلاء يحصل لهم العلم بصحة رسالته بنفس رؤيته ومشاهدته، قبل النظر في معجزته... والحاصل: من حال هذا السائل أنه حصل له العلم بصدق رسول الله ﷺ وبصحة رسالته لمجموع قرائن لا تتعين إحداها ولا تنحصر أعدادها، ويستفاد من هذا الحديث: أن الشرع إنما طلب من المكلفين التصديق الجزم بالحق كيفما حصل وبأي وجه ثبت، ولم يقصرهم في ذلك على النظر في دلالة معينة، ولا معجزة ولا غيرها، بل كل من حصل له اليقين بصدقه، بمشاهدة وجهه، أو بالنظر في معجزته، أو بتحليفه، أو بقرينة لاحت له كان من المؤمنين، ومن جملة عباد الله المخلصين، لكن دلالات المعجزات هي الخاصة بالأنبياء، والطرق العامة للعقلاء»[١].

وبهذا يتبين لنا أن هذه الأدلة التي ذكرها القرطبي لإثبات ربوبية الله تعالى تدل على أنه يرى أن معرفة الله تعالى لا تنحصر في طريقة معينة لا يعرف إلاَّ بها، فالمعرفة بالله تعالى أعظم المعارف وأوضحها، والطرق المؤدية إليها كثيرة، وهذا هو المنهج الصحيح الذي سلكه السلف الصالح، ودلَّت عليه نصوص الكتاب والسنة.

---

(١) المفهم (١/ ١٦٣).

المبحث الثالث
الإيمان بالقدر

وفيه عشرة مطالب:

المطلب الأول: **تعريفه لغة وشرعًا**

المطلب الثاني: **هل يقع في القدر تغيير وتبديل**

المطلب الثالث: **القدر وفعل الأسباب**

المطلب الرابع: **الاحتجاج بالقدر على المعاصي**

المطلب الخامس: **أفعال العباد**

المطلب السادس: **الحكمة والتعليل في أفعال الله**

المطلب السابع: **تكليف ما لا يطاق**

المطلب الثامن: **معنى الظلم**

المطلب التاسع: **الواجب على الله**

المطلب العاشر: **التحسين والتقبيح**

المطلب الأول : تعريف القضاء والقدر لغة وشرعًا :

(أ) لغة :

قال الجوهري: «القضاء: الحكم، وأصله قضاي؛ لأنه من قضيت، إلاَّ أن الياء لما جاءت بعد الألف همزت، والجمع أقضية، وقضى أي حكم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[(١)]، وقد يكون بمعنى الفراغ تقول: قضيت حاجتي، وضربه فقضى عليه أي قتله كأنه فرغ منه. وقد يكون بمعنى الأداء والإنهاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾[(٢)]. وقد يكون بمعنى الصنع والتقدير... ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[(٣)] ومنه القضاء والقدر»[(٤)].

وقال الزهري: «القضاء في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه وكل ما أحكم عمله أو أُتمَّ أو خُتِم أو أُدِّي أداء، أو أوجب، أو أُعْلِمَ، أو أُنْفِذَ، أو أُمْضِيَ فقد قُضِي. وقد جاءت هذه الوجوه كلها في الحديث ومنه القضاء المقرون بالقدر»[(٥)].

وقال ابن فارس: «القاف والضاد والحرف المعتل أصلٌ صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته»[(٦)].

هذا في تعريف القضاء لغةً. وأما القدر فقال ابن سيده[(٧)]: القَدْرُ والقَدَرُ: القضاءُ والحُكم وهو ما يُقَدِّره الله عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾[(٨)] أي

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤.
(٣) سورة فصلت، الآية: ١٢.
(٤) الصحاح (٦/ ٢٤٦٣).
(٥) لسان العرب (١٥/ ١٨٦).
(٦) معجم مقاييس اللغة (٥/ ٩٩).
(٧) علي بن إسماعيل المرسي الشهير بابن سيدة إمام في اللغة له كتاب «المحكم والمحيط الأعظم» و«شواذ اللغة» وغيرها توفي سنة (٤٥٨هـ) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٤٤)، الديباج المذهب ص(٢٩٩).
(٨) سورة القدر، الآية: ١.

الحكم... وفي الحديث ذكر ليلة القدر، وهي الليلة التي تقدر فيها الأرزاق»[١].

والقَدَر والقَدْر بسكون الدال وفتحها، قال صاحب اللسان: «قال اللحياني: القَدَرُ الاسم والقَدْرُ المصدر»[٢].

قال القرطبي: القَدَر: مصدر قَدَرْتُ الشيءَ خفيفة الدال أَقْدِرُه وأَقْدُرُه قَدْرًا وقَدَرًا إذا أحطْتَ بمقداره ويقال فيه: قدَّرْتُ أُقدِّرُ تقديرًا مشدّد الدال للتضعيف»[٣].

«وهناك تلازم بين القضاء والقدر بحيث إن أحدهما لا ينفك عن الآخر»[٤].

قال الخطابي: «وجماع القول في هذا الباب أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينها، فقد رام هدم البناء ونقضه»[٥].

(ب) تعريفه شرعًا:

اختلفت عبارات السلف في تعريف القدر، وهي تدل على تقدير الله تعالى للأشياء في القدم وعلمه سبحانه بوقوعها في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة.

وكتابة ذلك ومشيئته لها، ووقوعها على حسب ما قدرها تعالى.

قال الإمام أحمد: «القدر قدرة الله على العباد»[٦].

---

(١) لسان العرب (٥/ ٧٤).

(٢) لسان العرب (٥/ ٧٤).

(٣) المفهم (١/ ١٣٢).

(٤) انظر القضاء والقدر لعبدالرحمن المحمود ص(٤٤).

(٥) معالم السنن (٤/ ٢٩٧).

(٦) مسائل ابن هانيء (٢/ ١٥٥). وقال ابن القيم عن قول أحمد: واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدًا وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد وتبصره في معرفة أصول الدين وهو كما قال أبو الوفاء فإنَّ إنكار القدر إنكار لقدرة الرب الذي خلق أعمال العباد، وكتابتها وتقديرها. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (١/ ١٣٠).

وقال النووي: «واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه أنه الله تبارك وتعالى قدَّر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى»[١].

وقال السفاريني[٢]: «القدر عند السلف ما سبق به العلم، وجرى به القلم، مما هو كائن إلى الأبد، وأن الله عز وجل قدَّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها»[٣].

وهكذا عرفه القرطبي ـ رحمه الله ـ إذ قال: فإذا قلنا: إن الله تعالى قدر الأشياء، فمعناه أنه تعالى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا محدث في العالم العلوي والسفلي إلاَّ وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته، هذا هو المعلوم من دين السلف الماضين، والذي دلَّت عليه البراهين»[٤].

والإيمان بالقدر ركنٌ من أركان الإيمان، كما جاء في حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عندما سأل جبريل عليه السلام الرسولَ ﷺ عن الإيمان فقال ﷺ: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[٥].

والأدلة عليه من الكتاب والسنة كثيرة، منها:

---

(١) شرح مسلم للنووي(١/ ٢٦٩).
(٢) محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي محدث فقيه مكثر من التصنيف له«الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية» و«البحور الزاخرة في علوم الآخرة». وغيرها توفي سنة(١١٨٨هـ). سلك الدرر(٤/ ٤٧)، معجم المؤلفين (٣/ ٦٥).
(٣) لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٣٤٨).
(٤) المفهم (١/ ١٣٢).
(٥) سبق تخريجه ص (١٠٦).

ـ قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾(١) أي: جعلنا الماء في مقر يتمكن فيه، وهو الرحم مؤخر إلى مقدار معلوم قد علمه الله، وحكم به، فقدرنا ذلك تقديرًا، فنعم المقدرون له نحن، أو فقدرنا على ذلك، فنعم القادرون عليه نحن، والأول أحق(٢)

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾(٣).

قال ابن كثير: «أي قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية الكريمة وما شاكلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتة على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عهد الصحابة»(٤).

ومن السنة قوله ﷺ: **«لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بالقدر، خيره وشره من الله، وحتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه»**(٥).

ـ وقوله ﷺ: **«كل شيءٍ بقدرٍ، حتَّىٰ العَجْزُ والكَيْسُ»**(٦).

وقول أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: **«جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر، فنزلت:** ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾(٧)»(٨).

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ٢١، ٢٣.
(٢) تفسير النسفي (٢/ ٧٦٣).
(٣) سورة القمر، الآية: ٤٩.
(٤) تفسير ابن كثير(٤/ ٢٨٦).
(٥) رواه الترمذي في كتاب القدر باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره وقال«حديث غريب لانعرفه إلاَّ من حديث عبد الله بن ميمون وهو منكر الحديث». قال الألباني بعد ذكره لقول الترمذي السابق: لكن الحديث صحيح فإنه جاء مفرقًا في أحاديث ثم ساقها. سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/ ٥٦٦) حديث(٢٤٣٩).
(٦) رواه مسلم في كتاب القدر باب كل شيء بقدر ح(٢٦٥٥) (١٦/ ٤٤٤).
(٧) سورة القمر، الآية: ٤٨، ٤٩.
(٨) رواه مسلم في كتاب القدر باب كل شيء بقدر ح(٢٦٥٦) (١٦/ ٤٤٤).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في هذه الآية: «خلق الله الخلق كلهم بقدر، وخلق لهم الخير والشر بقدر، فخير الخير السعادة، وشر الشر الشقاء»(١).

وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتقديره لأعمال الخلائق وآجالهم، والسعيد منهم والشقي، قبل خلقهم، فهو سبحانه العالم بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما قال السلف «سابق لا سائق» بمعنى: أنه علم تعالى ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، ومنحهم سبحانه القدرة على سلوك طريق الخير أو الشر، وعلم من يسلك طريق الخير، فيهتدي فيسعد، ومن يسلك طريق الشر فيضل فيشقى.

وقد بيَّن العلماء مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب، فقال الطحاوي: «خلق الخلق بعلمه، وقدَّر لهم أقدارًا، وضرب لهم آجالاً، لم يَخْف عليه شيءٌ قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وكل شيء يجري بتقديره، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلاَّ ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن، يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي عدلاً... لا راد لقضائه، ولا مُعقِّب لحكمه، ولا غالب لأمره، آمنَّا بذلك كله، وأيقنَّا أن كلا من عنده»(٢).

وقال الآجري: «مذهبنا في القدر أنا نقول إن الله عز وجل خلق الجنة، وخلق النار، وخلق لكل واحدة منهما أهلاً... لا معارض لله في حكمه، يفعل في خلقه ما يريد عدلاً، من ربنا قضاؤه وقدره... خلق الخلق كما شاء لما شاء فجعلهم شقيًّا وسعيدًا قبل أن يخرجهم إلى الدنيا، وهم في بطون أمهاتهم، وكتب آجالهم، وكتب أرزاقهم، وكتب أعمالهم، ثم أخرجهم إلى الدنيا، وكل إنسان يسعى فيما كتب له وعليه... لا يسأل

(١) تفسير الطبري (١١/ ٥٦٩).
(٢) الطحاوية مع شرحها (١/ ١٢٥ـ ١٣٩).

عما يفعل وهم يسألون، الخلق كلهم له، يفعل في خلقه ما يريد، غير ظالم لهم. . . أحب الطاعة من عباده، وأمر بها فجرت ممن أطاعه بتوفيقه لهم، ونهى عن المعاصي، وأراد كونها من غير محبة منه لها، ولا أمر بها تعالى عز وجل أن يأمر بالفحشاء أو يحبها، وجل الله تعالى ربنا من أن يجري في ملكه ما لم يرد أن يجري أو شيء لم يحط به علمه قبل كونه قد علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم وبعد أن خلقهم قبل أن يعملوا قضاء وقدرًا، قد جرى القلم بأمره تعالى في اللوح المحفوظ بما يكون من بر وفجور. . . يضل من يشاء ويهدي من يشاء»[١].

وبيَّن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مذهب أهل السنة والجماعة في القدر، فقال: «مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان: وهو أن الله خالق كل شيء ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها، من أفعال العباد، وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون شيء إلاَّ بمشيئته وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءه، بل هو القادر على كل شيء، ولا يشاء شيئًا إلاَّ وهو قادر عليه، وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها، وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم: قدَّر آجالهم، وأرزاقهم، وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء ومشيئته لكل ما كان وعلمه بالأشياء قبل أن تكون وتقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون»[٢].

وقال أيضًا: «ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأن العباد لهم مشيئة وقدرة، يفعلون بقدرتهم ومشيئتهم ما أقدرهم الله عليه، مع قولهم: إن العباد لا يشاؤون إلاَّ

(١) الشريعة (٢/ ٦٩٩، ٧٠٢).
(٢) الفتاوى (٨/ ٤٤٩).

أن يشاء الله»[١].

وقد قال القرطبي في بيانه لمعنى الإيمان بالقدر: «الإيمان بالقدر هو التصديق بما تقدم ذكره، وحاصله: هو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾[٣]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٤]. وإجماع السلف والخلف على صدق قول القائل: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**كل شيء بقدر حتى العَجْز والكيس**»[٥]»[٦].

والقرطبي والمازري على مذهب الأشاعرة في القدر، وقد صرَّح المازري في ذلك فقال في معرض رده على المعتزلة في قولهم في القدر: «... هذا أيضًا مطابق لقول الأشعرية أهل السنة في أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن المعاصي قضاها الله وقدَّرها، ألاَ ترى قول السائل أرأيت ما يعمله الناس اليوم ويكدحون فيه؟ ولم يفرق بين خير وشرٍ، ولا طاعة ومعصية، وكذلك جوابه ﷺ لم يفرق فيه بل قال: بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتلا كتاب الله مصدقًا لما قال ومسويًا بين الفجور والتقوى بقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[٧] فأخبر سبحانه عن النفس وما فعل فيها، وكذلك قوله ﷺ في كتاب مسلم: «**كل شيء بقدر حتى العَجْز والكَيْس**» مطابقٌ أيضًا لقول الأشعرية في هذا، وكذلك قوله: «**جاء قوم مشركون يخاصمون النبي ﷺ في القدر فنزل:** ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ **إلى قوله عز وجل:** ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾[٨]»[٩] وهكذا

(١) المرجع السابق (٨/ ٤٥٩).
(٢) سورة الصافات، الآية: ٩٦.
(٣) سورة القمر، الآية ٤٩.
(٤) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.
(٥) رواه مسلم في كتاب القدر، باب كل شيء بقدر ح ٢٦٥٥ (١٦/ ٤٤٤).
(٦) المفهم (١/ ١٤٥).
(٧) سورة الشمس، الآية: ٨.
(٨) سورة القمر، الآية: ٤٩.
(٩) سبق تخريجه ص(١٧٥).

الأحاديث كلها مطابقة لقول أهل الحق»[١].

ويتبين متابعة المازري والقرطبي للأشاعرة في القدر، والذي يميل إلى مذهب الجبرمن خلال الحديث عن المسائل المتعلقة بالقدر، كأفعال العباد، والتحسين والتقبيح العقليين، وتكليف مالا يطاق وغيرها من المسائل. وإلاَّ فالأشاعرة يوافقون أهل السنة في الإيمان بمراتب القدر الأربع التي هي:

- الإيمان بعلم الله الأزلي: إذ علم سبحانه ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾[٢].

- والإيمان بأن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلائق فما من شيء في الكون إلاَّ وقد علمه سبحانه، وكتبه قبل حدوثه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾[٣].

- والإيمان بمشيئة الله الشاملة، وقدرته تعالى التامة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤].

- والإيمان بخلقه سبحانه وإيجاده للأشياء، فلا خالق غيره، ولا رب سواه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾[٥].

قال الدكتور عبدالرحمن المحمود: القدر له أربع مراتب، هي العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق. فأما مرتبتا العلم والكتابة، فلم ينكرهما إلاَّ غلاة القدرية... وأما مرتبتا المشيئة والإرادة والخلق فقد وقع فيهما الخلاف على قولين:

أحدهما: إنكار هاتين المرتبتين، وهذا مذهب المعتزلة...

---

(١) المعلم (٣/ ١٧٦).
(٢) سورة الحج، الآية: ٧٠.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٣.
(٤) سورة التكوير، الآية: ٢٩.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٦٢.

الثاني: الإقرار بهاتين المرتبتين بإثبات الإرادة والمشيئة الشاملة، والقول بأن الله خالق كل شيء، ومن ذلك أفعال العباد. وهذا قول الجمهور من أهل السنة والجهمية والأشاعرة والماتريدية ومن وافق هؤلاء.

ولكن أفعال العباد لها متعلقان: أحدهما: بالخالق تعالى، فهذا قد اتفق فيه أهل السنة والأشاعرة على أن الله خالق أفعال العباد.

والثاني: بالعبد، وهل له قدرة أو لا؟ وهل قدرته مؤثرة أم غير مؤثرة؟ وقع فيها الخلاف بين الطوائف إلى حدٍ كبيرٍ(١).

والأقوال في القدر ترجع إلى ثلاثة أقوال:

الأول: قول أهل الجبر الذين يقولون إن الإنسان مجبور على أفعاله، وليس له إرادة ولا قدرة، وهو مذهب الجهمية ومن وافقهم.

الثاني: قول القدرية الذين قالوا إن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله من غير إرادة الله تعالى أو علمه، ويمثل هذا المذهب المعتزلة ومن وافقهم.

الثالث: من توسط فأثبت القدر وأن الله خالق كل شيء، وأن للإنسان مع ذلك إرادة ومشيئة، ولكنه خاضعة لمشيئة الله تعالى، كما أن للإنسان قدرة يفعل بها الفعل، ولكنه هو وأفعاله مخلوق لله تعالى، وهذا هو مذهب السلف.

وبين هذه الطوائف الثلاث ظهرت فرق تميل في بعض المسائل إلى طائفة، وفي المسائل الأخرى إلى طائفة ثانية، ويكون الحكم عليها حسب ما يغلب على مذهبها، فقد يقال: إنها مائلة إلى مذهب الجبر، أو إلى مذهب السلف، أو إلى مذهب القدرية، ومن أشهر هذه الطوائف طائفة الأشعرية، حيث يغلب عليهم مخالفة المعتزلة، والميل إلى مذهب الجبرية، وإن لم يصلوا إلى حد موافقة الجهم(٢) في أقواله(٣). فغلوهم في مخالفة

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ١٣٣٠).

(٢) الجهم بن صفوان الراسبي السمرقندي أبو محرز رأس الضلالة وإمام الجهمية أجمع السلف على ذمه لما زرع من الشر والفساد بأقواله قتل سنة(١٢٨هـ). سير أعلام النبلاء(٦/ ٢٦). البد اية والنهاية(١٠/ ٢٨).

(٣) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ١٣٠٨).

المعتزلة أوصلهم إلى موافقة الجبرية في بعض مسائل القدر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن الأشعرية وبعض المثبتين للقدر وافقوا الجهم بن صفوان في أصل قوله في الجبر، وإن نازعوه في بعض ذلك نزاعًا لفظيًّا أتوا بما لا يعقل... وبالغوا في مخالفة المعتزلة في مسائل القدر حتى نسبوا إلى الجبر»(١).

المطلب الثاني: هل يقع في القدر تغيير وتبديل أو محو وإثبات؟

دلَّت ظواهر بعض النصوص على أن القدر يمكن أن يقع فيه تغيير وتبديل أو محو وإثبات، كقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾(٢)، وقوله ﷺ: «**من سرَّه أن يُبْسَطَ له في رزقه، وأن يُنْسَأ له في أثره فليَصِلْ رَحمه**»(٣).

فهذان النصَّان وما يماثلهما تُشْكِل مع ما سبق من أن القدر لا يتغير وأن القلم قد جفَّ بما هو كائن.

وقد أورد القرطبي والمازري بعض صور الجمع بين هذه النصوص واتفقا على أن ما في علم الله سبحانه وتعالى ثابت لا يتغير ولا يتبدل.

قال القرطبي في شرحه للحديث السابق: «معنى التأخير هنا في الأجل ـ وإن كانت الآجال مقدرة في علم الله لا يزاد فيها ولا ينقص ـ: أنه يبقى بعده ثناء جميل، وذكر حميد، وأجر متكرر، فكأنه لم يمت، وقيل معناه: يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ والذي في علم الله ثابت لا تبديل فيه، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: أصل المكتوب في اللوح المحفوظ، وهو علم الله الذي لا يقبل المحو ولا التغيير، وحكي معناه عن عمر ـ رضي الله عنه ـ في الآية»(٤).

---

(١) منهاج السنة (١/ ٤٦٣، ٤٦٤).

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم ح(٥٩٨٥) (١٠/ ٤٢٩). ومسلم في كتاب البر والصلة والأداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ح(٢٥٥٧) (١٦/ ٣٥٠).

(٤) المفهم (٦/ ٥٢٨) وانظر أيضًا(٦/ ٦٥٤).

وأطال المازري ـ على غير عادته ـ في هذه المسألة، وذكر عدة صور للجمع بين النصوص، فقال: قد أُثبت في هذا الحديث أن الأجل لا يزاد فيه، ولا ينقص، وقد قال في حديث آخر: إن صلة الرحم تزيد في العمر، فكيف الجمع بين الحديثين؟

قلنا: أول ما يجب أن تعلم أن الأجل عبارة عن الوقت الذي قدر موت الإنسان فيه، والباري سبحانه يعلمه، فما علمه الباري من الآجال لا يتبدل ولا يتغير، فالزيادة في الأجل الذي علمه الله سبحانه وتعالى لا تصح. وإن كان في غير الأجل الذي عند الله تعالى في غيبه، فهذا غير ممتنع، وقال الحذاق من أهل العلم: ما وقع من الظواهر في الزيادة في العمر والنقصان منه، فيحمل على ما عند ملك الموت، أو من وكله الباري بقبض الأرواح، وأمره فيها بآجال محدودة، فإنه سبحانه بعد أن يأمره بذلك أو يثبته في اللوح المحفوظ لملك الموت فينقص منه أو يزيد فيه، على حسب ما شاء الله حتى يقع الموت على حسب ما علم الله تعالى في الأزل، وقد قال عز وجل: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾[١] وهذا تنبيهٌ إلى ما قلناه، وإن كان قيل في الآية: محو الليل بالنهار، والنهار بالليل، وقيل: محو الأحكام المنسوخة بالناسخة لها. وقيل: معنى ذلك أن الله علم أن يعمره مائة عام؛ لأنه يَصِلُ رَحِمَهُ، وعلم أنه لو لم يصل رحمه لعمَّره ثمانين، والباري سبحانه موصوف بأنه يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون، وهذا أمثل ما ذكرنا من التأويلات، أو ما قلناه من أن الزيادة والنقصان يرجعان إلى المَلَك»[٢].

وقد أشار الحافظ ابن حجر إلى هذه المسألة وذكر أن فيها خلافًا بين الأشعرية والحنفية «الماتريدية» حيث قال: «قد اشتهر الخلاف في ذلك بين الأشعرية والحنفية، وتمسَّك الأشاعرة بمثل هذا الحديث[٣]، وتمسك

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٢) المعلم (٣/ ١٨٤) بتصرف.

(٣) وهو حديث ابن مسعود رضي الله عنه في خلق الجنين وما يؤمر به الملك من كتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد. أخرجه البخاري في كتاب القدر باب(١) =

الحنفية بمثل قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾[(١)] وأكثر كل من الفريقين الاحتجاج لقوله، والحق أن النزاع لفظي، وأن الذي سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل، وأن الذي يجوز عليه التغير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما في علم الحفظة الموكلين بالآدمي، فيقع فيه المحو والإثبات، كالزيادة في العمر والنقص، وأما ما في علم الله فلا محو فيه ولا إثبات، والعلم عند الله»[(٢)].

ونرى القرطبي والمازري لم يخرجا عما ذكره العلماء في هذه المسألة من صور الجمع بين هذه الأحاديث حيث ذكر العلماء أن الله قدَّر السبب والمسبب، فقدَّر أن هذا يصل رحمه فيزيد الله في عمره بهذا السبب، ولو لم يصل لما زاد.

وقال آخرون: الزيادة والنقصان تكون في الصحف التي في أيدي الملائكة، فالمكتوب غير المعلوم، فما علمه الله من نهاية العمر لا يتغير، وما كتبه قد يمحى ويثبت، وعلى هذا يحمل قول عمر ـ رضي الله عنه ـ الذي أشار إليه القرطبي وهو قوله: «اللهم إن كنت كتبتني من أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبت عليَّ الذنب والشقوة فامحني وأثبتني في أهل السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب»[(٣)].

ومن العلماء من قال: إن الزيادة والنقصان على سبيل المجاز، فيحمل على البركة في العمر والسعة في الرزق، والزيادة في العمل ونحوها[(٤)].

وقد ردَّ شيخ الإسلام على هذا القول فقال: «يُقال لهؤلاء: تلك البركة وهي الزيادة في العمل والنفع هي أيضًا مقدَّرة مكتوبة، وتتناول لجميع

= ح(٦٥٩٤) (١١/ ٤٨٦) ومسلم في كتابه القدر باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ح(٢٦٤٣) (١٦/ ٤٢٩).

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٢) فتح الباري (١١/ ٤٩٧).

(٣) تفسير الطبري(٧/ ٤٠١) وقد ذُكر هذا القول عن ابن مسعود وغير واحد من الصحابة.

(٤) وقد ذكر القرطبي هذا القول، وقال به أيضًا: ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (٢٣٨) والنووي في شرحه لصحيح مسلم(١٦/ ٣٤٩) والقاضي عياض في إكمال المعلم(٨/ ٢١) وغيرهم.

الأشياء ـ ثم بيَّن شيخ الإسلام المذهب الصحيح في ذلك فقال: ـ والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلاً في صحف الملائكة، فإذا وَصَلَ رَحِمَهُ زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يُوجب النقص نقص من ذلك المكتوب... والله سبحانه عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إياه بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إلاَّ ما علَّمهم الله. والله يعلم الأشياء قبل كونها، وبعد كونها، فلهذا قال العلماء: إن المحو والإثبات في صحف الملائكة، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالمًا به، فلا محو فيه ولا إثبات»(١).

وقال أيضًا: «الأجل أجلان: (أجلٌ مطلق) يعلمه الله(٢)، و(أجل مقيد)، وبهذا يتبين معنى قوله ﷺ: «**من سرَّه أن يُبْسَط له في رزقه، وأن يُنْسَأ له في أثرِه فليصل رحمه**»(٣) فإن الله أمر الملك أن يكتب أجلاً، وقال: إن وصل رحمه زده كذا وكذا، والملك لا يعلم أيزداد أم لا، لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء ذلك لا يتقدم ولا يتأخر»(٤).

ولكن ما في اللوح المحفوظ هل يتغير ويتبدل؟

أشار شيخ الإسلام إلى ذلك وذكر أن الخلاف فيها على قولين لكنه لم يرجِّح(٥).

والقرطبي يرى أن المحو والإثبات يكونان فيما في اللوح المحفوظ كما يتبين من قوله السابق، فالتغير الذي نفاه هو ما في علم الله سبحانه، وهذا أمرٌ متفق عليه.

والراجح في هذه المسألة أن ما في اللوح المحفوظ لا يتغير ولا يتبدل، وإنما التغير والتبدل يكون في الصحف التي في أيدي الملائكة. فقد نقل ابن الجوزي عن الزَّجَّاج في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾

---

(١) الفتاوى (١٤/ ٤٩٠).
(٢) أي يعلمه الله وحده.
(٣) سبق تخريجه ص(١٨١).
(٤) الفتاوى (٨/ ٥١٧).
(٥) المرجع السابق (١٤/ ٤٩٢).

قال المفسرون: وهو اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما يكون ويحدث».

ثم قال ابن الجوزي: «وروى عكرمة عن ابن عباس قال: هما كتابان: كتاب سوى أم الكتاب يمحو منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب لا يغير منه شيء»(١).

وقال الشيخ السعدي عند تفسيره للآية السابقة: «يمحو الله ما يشاء من الأقدار، ويثبت ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع وشعب، فالتغير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابًا، ولمحوها أسبابًا لا تتعدى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببًا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببًا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببًا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ»(٢).

وقد رجَّح هذا القول أيضًا الحافظ ابن حجر حيث قال: «المحو والإثبات بالنسبة لما في علم الملك، وما في أم الكتاب هو الذي في علم الله تعالى، فلا محو فيه البتة، ويقال له: القضاء المبرم، ويقال للأول: القضاء المعلق»(٣).

وقال به السفاريني في لوامع الأنوار(٤). وهو مفهوم كثير من العلماء الذين تكلموا في هذه المسألة.

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢٥٩).
(٢) تفسير السعدي ص(٤٤٥).
(٣) فتح الباري(١٠/ ٤٣).
(٤) لوامع الأنوار للسفاريني (١/ ٣٤٩).

المطلب الثالث: القضاء والقدر وفعل الأسباب :

إن الإيمان بالقضاء والقدر، واعتقاد أن الأمور جميعها تسير وفق ما سبق فيه القضاء، وجرت به المقادير، لا يقتضي من العبد ترك العمل ـ المفضي إلى الخمول والدعة والبطالة ـ اتكالاً على ذلك، بل هذا ينافي حقيقة التوكل. فلابد مع التوكل على الله من مباشرة الأسباب المأمور بها شرعًا وعقلاً وفطرة. وقد اقتضت حكمة الله تعالى تعلق الأشياء بمسبباتها وارتباطها بها، وبناءها عليها.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول السرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال، ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب... وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر، والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة مصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال»(١).

وقد قال بعض العلماء كلامًا سديدًا في هذه المسألة، وهو قوله: «الالتفات إلى الأسباب شركٌ في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا، نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية، قدحٌ في الشرع، ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب، فإن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافيًا في حصول النبات، بل لابد من ريح مربية بإذن الله، ولابد من صرف الانتفاء عنه، فلابد من تمام الشروط، وزوال الموانع وكل ذلك بقضاء الله وقدره»(٢).

وهذا ما قرره القرطبي فقال: «استعمل الحرص والاجتهاد في تحصيل ما تنتفع به في أمر دينك ودنياك التي تستعين بها على صيانة دينك، وصيانة عيالك ومكارم أخلاقك، ولا تفرط في طلب ذلك، ولا تتعاجز عنه متكلاً على القدر، فتنسب للتقصير، وتُلام على التفريط شرعًا وعادة، ومع إنهاء

---

(١) الجواب الكافي ص(٩، ١٠).

(٢) الفتاوى لابن تيمية (٨/ ٧٠).

الاجتهاد نهايته وإبلاغ الحرص غايته، فلابد من الاستعانة بالله والتوكل عليه، والالتجاء في كل الأمور إليه، فمن سلك هذين الطريقين حصل على خير الدارين»[١].

وردَّ على الذين يتركون العمل احتجاجًا بالقدر، فقال: «وقوله: «**أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل**»؟ وفي الرواية الأخرى: «**أفلا نتَّكل على كتابنا؟**»[٢] حاصل هذا السؤال أنه إذا وجبت السعادة والشقاوة، بالقضاء الأزلي، والقدر الإلـٰهي، فلا فائدة للتكليف ولا حاجة بنا إلى العمل، فنتركه، وهذه أعظم شبه النافين للقدر، وقد أجابهم ﷺ بما لا يبقى معه إشكال فقال: «**اعملوا فكلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له**» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾[٣] ووجه الانفصال: أن الله تعالى أمرنا بالعمل فلابد من امتثال أمره، وغيَّب عنَّا المقادير لقيام حجته وزجره، ونصب الأعمال علامة على ما سبق في مشيئته وحكمته وعزه»[٤].

والرسول ﷺ وهو إمام المتوكلين، لم يكن ليترك الأسباب، مع توكله على الله، بل كانت أقواله وأفعاله ﷺ تدل على أن فعل الأسباب من التوكل على الله.

وهذا أمرٌ معلوم لا يحتاج إلى بيان، فقد شارك ﷺ أصحابه في حفر خندق حول المدينة في غزوة الأحزاب عملاً بالأسباب، وقد ردَّ القرطبي على جهلة الصوفية ـ الذين يجعلون الأخذ بالأسباب من قوادح التوكل ـ عند شرحه لهذا الحديث فقال: «وغير خَافٍ ما في هذا الحديث من الفقه، من جواز التحصن والاحتراز من المكروهات، والأخذ بالحزم، والعمل في العادات بمقتضاها، وأن ذلك كله غير قادح في التوكل، ولا منقص فيه،

---

(١) المفهم (٦/ ٦٨٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير سورة الليل: باب ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾ ح(٤٩٤٧) (٨/ ٥٧٩)، ومسلم في كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ح(٢٦٤٧) (١٦/ ٤٣٤).

(٣) سورة الليل، الآيتان: ٥، ٦.

(٤) المفهم(٦/ ٦٥٨).

فقد كان النبي ﷺ على كمال المعرفة بالله تعالى، والتوكل عليه، والتسليم لأمره، ومع ذلك لم يطرح الأسباب، ولا مقتضى العادات، على ما يراه جهال المتزهدين أهل الدعاوي الممخرقين»[١].

ومن اتخاذ الأسباب التي أمر بها تعالى: الدعاء، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[٤].

«فإن قالوا إن هذا الدعاء الذي أمرنا الله عز وجل به وأرشدنا إليه، وجعل تركه استكبارًا وتوعَّد عليه بدخول النار، مع الذل، وأنكر عليهم أن غيره يجيب المضطر، إن كان ذلك كله لا فائدة فيه للعبد، فقد نسب إلى الرب ـ عز وجل ـ ما لا يجوز عليه، ولا تحل نسبته إليه بإجماع المسلمين، فإنه عز وجل لا يأمر إلاَّ بما فيه فائدة للعبد، دنيوية وأخروية، إما جلب نفع أو دفع ضر»[٥].

لكن المعتزلة قالوا: لا فائدة في الدعاء، مع سابق القدر، وغلاة الصوفية قالوا: إن الدعاء قادح في التوكل. وهذا كلامٌ باطلٌ، مردود على أصحابه بالشرع والعقل إذ الدعاء من الأسباب التي جعلها الله موصلة للمراد.

قال ابن تيمية: الدعاء في اقتضائه الإجابة، كسائر الأعمال الصالحة في اقتضائها الإثابة، وكسائر الأسباب في اقتضائها المسببات، ومن قال: إن الدعاء علامة ودلالة محضة على حصول المطلوب المسؤول ليست بسبب أو هو عبادة محضة لا أثر له في حصول المطلوب وجودًا ولا عدمًا، بل ما

---

(١) المفهم(٣/ ٦٤٥) وانظر ايضا (٣/ ٤٩٣).

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٣) سورة النمل، الآية: ٦٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٥) انظر: قطر الولي على حديث الولي للشوكاني ص(٥١٢).

يحصل بالدعاء يحصل بدونه، فهما قولان ضعيفان، فإن الله علَّق الإجابة به تعليق المسبب بالسبب، كقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(١) وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلَّا أعطاه بها إحدى خصال ثلاث: إما أن يعجِّل له دعوته، وإما أن يدَّخر له من الخير مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها قالوا: يارسول الله إذًا نُكثر، قال: الله أكثر**»(٢) فعلَّق العطايا بالدعاء، تعليق الوعد والجزاء بالعمل المأمور به»(٣).

وقال ابن القيم: «إن هذا المقدور قدر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدر مجردًا عن سببه، ولكن قدر بسببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور، وهكذا، كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب، وقدر الولد بالوطء، وقدَّر حصول الزرع بالبذر... فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قدَّر وقوع المدعو به بالدعاء لا يصح أن يُقال لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال لا فائدة في الأكل والشرب، وجميع الحركات والأعمال، وليس شيءٌ من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب»(٤).

وهذا هو الذي قرَّره القرطبي، فردَّ على المعتزلة والصوفية فيما ذهبوا إليه في مسألة الدعاء إذ قال عند شرحه لحديث الرسول ﷺ الذي دعا فيه عليه السلام بنقل الحمى من المدينة إلى الجحفة(٥): «هذا وما في معناه من

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٢) أخرجه أحمد في المسند(٣/ ١٨)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب في انتظار الفرج وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وأخرجه الحاكم في المستدرك، وقال: هذا صحيح الاسناد إلاَّ أنَّ الشيخين لم يخرجاه(١/ ٩٨٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير(٢/ ٩٨٥)، برقم (٥٦٣٧).
(٣) الفتاوى (٨/ ١٩٢).
(٤) الجواب الكافي ص(٩).
(٥) رواه البخاري في كتاب فضائل المدينة باب (١٢) ح (١٨٨٩) (٤/ ١٢٩) ومسلم في كتاب الحج باب الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها ح(١٣٧٦) (٩/ ١٥٨).

أدعية النبي ﷺ التي تفوق الحصر حجة على بعض المعتزلة القائلين: لا فائدة في الدعاء مع سابق القدر، وعلى غلاة الصوفية القائلين: إن الدعاء قادح في التوكل، وهذه كلها جهالات لا ينتحلها إلاَّ جاهل لظهور فسادها وقبح ما يلزم عليها»[١].

المطلب الرابع : الاحتجاج بالقدر على المعاصي :

إن الاحتجاج بقدر الله تعالى على الوقوع في المعاصي، واقتراف المنكرات مذهب باطلٌ شرعًا وعقلاً، وهو حجة المشركين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[٢].

قال الشيخ السعدي في تفسير هذه الآية: «الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة، يتمكن بها من فعل ما كُلِّف به، فما أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرَّم على أحد ما لا يتمكن من تركه، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر ظلم محض، وعناد صرف... فالمحتجُّون على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك، فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا في ذلك بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر لما قبلوا منه هذا الاحتجاج»[٣].

فبطلان الاحتجاج بالقدر أمرٌ واضح؛ لأنه يلزم منه تعطيل الشرع وجريان الأحكام على العباد، وهذا معلوم بطلانه بالضرورة[٤].

وقد بيَّن شيخ الإسلام بطلان هذه الحجة عقلاً، فقال: «إن الواحد من هؤلاء إما أن يرى القدر حجة للعبد، وإما أن لا يراه حجة للعبد، فإن كان القدر حجة للعبد فهو حجة لجميع الناس، فإنهم كلهم مشتركون في القدر،

---

(١) المفهم (٣/ ٤٩٣).
(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ١٤٨، ١٤٩.
(٣) تفسير السعدي ص(٢٨٢).
(٤) انظر الفتاوى لابن تيمية(٨/ ٢٦٤).

وحينئذ فيلزم أن لا ينكر على من يظلمه ويشتمه ويأخذ ماله ويفسد حريمه، ويضرب عنقه، ويهلك الحرث والنسل، وهؤلاء جميعهم كذَّابون متناقضون، فإن أحدهم لايزال يذم هذا ويبغض هذا، ويخالف هذا، حتى إن الذي ينكر عليهم يبغضونه ويعادونه وينكرون عليه، فإن كان القدر حجة لمن فعل المحرمات وترك الواجبات، لزمهم أن لا يذموا أحدًا ولا يبغضوا أحدًا، ولا يقولوا في أحدٍ: إنه ظالم، ولو فعل ما فعل، ومعلوم أن هذا لا يمكن لأحدٍ فعله، ولو فعل الناس هذا لهلك العالم، فتبين أن قولهم فاسد في العقل»(١).

وهؤلاء قد يستدلون بحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في احتجاج آدم وموسى ـ عليهما السلام ـ حيث قال ﷺ: **«احتجَّ آدمُ وموسى فقال له موسى: يا آدمُ أنت أبُونا خيَّبْتَنَا وأخرجْتَنَا من الجنة، قال لهُ آدمُ: أنت موسى اصطفاك الله بكلامِه وخطَّ لك بيده أتلُومني على أمر قد قدَّره الله عليَّ قبل أن يخلُقني بأربعين سنة؟ فقال ﷺ: فحجَّ آدمُ موسى فحجَّ آدمُ موسى»**(٢).

وقد كان للعلماء أجوبة كثيرة على هذا الحديث تخرجه عن الاستدلال به في هذا المذهب الباطل في القدر.

وكذا فعل القرطبي حيث أبطل الاستدلال بهذا الحديث على فعل المعاصي، وذكر بعض صور توجيه الحديث، وبيَّن ضعف بعضها، ورجَّح ما يراه، حيث قال: «ظاهر هذا أن آدم إنما غلب موسى بالحجة؛ لأنه اعتذر بما سبق له من القدر، عما صدر عنه من المخالفة، وقبل عذره، وقامت بذلك حجته، فإن صح هذا لزم عليه أن يحتج به كل من عصى ويعتذر بذلك، فيُقبل عذره، وتثبت حجته، فحيئنذ تكون للعصاة على الله حجة، وهذا مناقض لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾(٣) وقد اختلف العلماء في

---

(١) الفتاوى (٨/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب وفاة موسى وذكره بعدُ ح(٣٤٠٩) (٦/ ٥٠٨) ومسلم في كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى ـ عليهما السلام ـ ح(٢٦٥٢) (١٦/ ٤٣٩).

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

تأويل هذا الحديث:

فقيل: إما غلبه آدم بالحجة؛ لأن آدم أبوموسى، وموسى ابن، ولا يجوز لوم الابن أباه، ولاعتبه. قلت: وهذا نأي عن الحديث، وعما سيق له.

وقيل: إنما كان ذلك لأن موسى قد كان علم من التوراة أن الله تعالى قد جعل تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة وسكناه الأرض، ونشر نسله فيها، ليكلفهم ويمتحنهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي. قلت: وهذا إبداء حكمة تلك الأكلة لا انفصال عن إلزام تلك الحجة، والسؤال باقٍ لم ينفصل عنه.

وقيل: إنما توجهت حجته عليه؛ لأنه قد علم من التوراة ما ذكروا: أن الله تاب عليه واجتباه وأسقط عنه اللوم والعتب، فلوم موسى وعتبه له ـ مع علمه بأن الله تعالى قدر المعصية، وقضى بالتوبة وبإسقاط اللوم والمعاتبة حتى صارت تلك المعصية كأن لم تكن ـ وقع في غير محله، وعلى غير مستحقه، وكان هذا من موسى نسبة جفاء في حال الصفاء، كما قال بعض أرباب الإشارات: ذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء، وهذا الوجه إن شاء الله أشبه ما ذكروا، وبه يتبين أن ذلك الإلزام لا يلزم»[1].

والمازري كذلك رجَّح ما ذهب إليه القرطبي من أن اللوم لا ينبغي وقوعه بعد التوبة، حيث قال: قال بعض أهل العلم: لما كان الله سبحانه قد تاب على آدم عليه السلام من معصيته، لم يجب لومه عليها، وإلاَّ فالعاصي منا لا ينجيه من اللوم والعقاب، وقوله: «إن الله قدَّر ذلك عليَّ» لأنه أيضًا قد قدَّر عليه العقوبة واللوم إذا وقعا به، ولما كان الله تعالى تاب على آدم ﷺ صار ذكر ذلك له إنما يفيد إذًا مباحثته عن السبب الذي دعاه إلى ذلك، فأخبر آدم أن السبب قضاء الله وقدره، وهذا جوابٌ صحيح إذا كانت المباحثة عن الموقع في ذلك ولم يكن عند آدم سبب موقع فيه على الحقيقة إلاَّ قضاء الله وقدره، ولهذا قال ﷺ: **«فحجَّ آدم موسى»** ولهذا قال آدم لموسى صلى الله عليهما: **«أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه»** وذكر

---

(١) المفهم (٦/ ٦٦٧).

فضائله التي أعطاه يريد بذلك أن الله سبحانه قدَّر ذلك وقضى به، فنفذ ذلك كما قدر علي ما فعلت فنفذ فيَّ»[١].

وقد نقل الحافظ ابن حجر كلام القرطبي السابق، وقال:هو محصل ما أجاب به المازري، واختاره الحافظ وقال:هو المعتمد[٢].

واختار ابن القيم رحمه الله هذا الجواب وأيَّد هذا التوجيه، فقال: «الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع، ويضر في موضع، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه، وترك معاودته، كما فعل آدم فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع؛ لأنه لا يدفع بالقدر أمرًا ولا نهيًا، ولا يبطل به شريعة، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة يوضحه أن آدم قال لموسى: أتلومني على أن عملت عملاً كان مكتوبًا عليَّ قبل أن أُخلق؟ فإذا أذنب الرجل ذنبًا ثم تاب منه توبة، وزال أمره، حتى كأن لم يكن فأنَّبهُ مؤنِّبٌ عليه، ولاَمَه، حَسُنَ منه أن يحتجَّ بالقدر بعد ذلك، ويقول: هذا أمر كان قد قدِّرَ عليَّ قبل أن أُخلق، فإنه لم يدفع بالقدر حقًّا، ولا ذكره حجة على باطل، ولا محذور في الاحتجاج به، وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل بأن يرتكب فعلاً محرمًا، أو يترك واجبًا فيلومه عليه لائم، فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره، فيبطل بالاحتجاج به حقًّا، ويرتكب باطلاً»[٣].

على أن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ له جوابٌ آخر غير هذا، فهو يرى أن الحديث ليس واردًا في الاحتجاج بالقدر على المعصية أصلاً، فلا يكون دليلاً على ذلك، فالقدر حجة لآدم على موسى ـ عليهما السلام ـ لأنه لامَه لأجل المصيبة التي حصلت بفعل ذلك، وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه، فيكون الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب، فيكون لوم موسى لآدم على الإخراج من الجنة لا على الأكل من الشجرة؛

(١) المعلم (٣/ ١٧٧).
(٢) فتح الباري (١١/ ٥١٨).
(٣) شفاء العليل (١/ ٩٤).

لأن موسى ـ عليه السلام ـ أعرف بالله وبأمره ودينه من أن يلوم على ذنب أخبره الله تعالى أنه قد تاب على صاحبه واجتباه بعده وهداه. وآدم عليه السلام أعلم بالله من أن يحتج بالقدر على الذنب، وموسى عليه السلام أعلم بالله من أن يقبل هذه الحجة»(١).

وهذا توجيه قوي سديد، وقد نقله ابن القيم في شفاء العليل ملخصًا، وقال: هذا جواب شيخنا رحمه الله(٢).

المطلب الخامس : أفعال العباد :

أفعال العباد هي لب مسائل القدر، فهي التي من أجلها صار الناس فرقًا وأحزابًا.

فهل أفعال العباد هي خلق الله تعالى أم أنها خلق العبد؟

وقع الخلاف في هذه المسألة على أقوال:

الأول: أن الله وحده هو خالق أفعال العباد وأعمالهم، إنما تنسب لهم مجازًا، فالعباد مجبورون على أفعالهم، لا قدرة لهم ولا إرادة، فحركاتهم وإراداتهم كورق الشجر، تحركه الرياح، وكحركة الشمس والقمر والأفلاك، وهذا مذهب الجبرية(٣).

الثاني: القول بأن العباد هم الخالقون لأفعالهم، فليست أفعالهم مخلوقة لله تعالى، فهم يقولون: إن الله لا يريد المعاصي والكفر، فكيف يخلقها ويعذب عليها، فلو فعل ذلك كان ظالمًا والله منزه عن الظلم، وهذا قول المعتزلة(٤).

الثالث: قول جمهور الأشاعرة، وهم يقولون إن الله خالق أفعال العباد، وهي كسب لهم، والمراد بالكسب الذي أثبتوه للمكلف مقارنة وجود الفعل لقدرة المكلف، واختياره من غير أن يكون ثمة تأثير

---

(١) انظر: الفتاوى (٨/ ١٠٨، ١٧٨، ١٧٩، ٣٠٤ ـ ٣٠٧).
(٢) شفاء العليل (١/ ٩٢ـ٩٤).
(٣) انظر الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٨٧) ومقالات الإسلاميين للأشعري (١/ ٣٤٠).
(٤) انظر الملل والنحل (١/ ٤٥). ومقالات الإسلاميين (١/ ٢٧٠، ٢٧٤، ٢٩٨).

منه، أو مدخل في وجوده سوى كونه محلاً لظهور الفعل. فأثبتوا للعبد قدرة غير مؤثرة في المقدور، وقال بعضهم: إن للعبد نوع تأثير في المقدور، ولكن الذي عليه جمهورهم ومتأخروهم أن قدرة العبد غير مؤثرة في المقدور[(١)].

وللكسب عندهم تعريفات أهمها:

١ـ ما يقع به المقدور من غير صحة انفراد القادر به.

٢ـ ما يقع به المقدور في محل قدرته.

٣ـ ما وجد بالقادر وله عليه قدرة محدثة[(٢)].

وهذا الكسب الذي أثبته هؤلاء لا حقيقة له، وقد قيل ثلاثة لا حقيقة لها: طفرة النظَّام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري[(٣)].

والقرطبي والمازري على مذهب الأشاعرة في أفعال العباد إذ أثبتوا أن الله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد وأن للعبد قدرة غير مؤثرة، وسموا ذلك كسبًا.

قال القرطبي: «إن عدم الاستقلال بإيجاد الأعمال لا يناقض خطاب التكليف بها إقدامًا عليها، وإحجامًا عنها، فنحن ـ وإن كنا نعلم أنَّا لا نستقل بأفعالنا ـ نحس بوجدان الفرق بين الحركة الضرورية والاختيارية، وتلك التفرقة راجعة إلى تمكن محسوس، وتأتٍّ معتاد، يوجد مع الاختيارية، ويفقد مع الضرورية، وذلك هو المعبر عنه بالكسب، وهو مورد التكليف، فلا تناقض ولا تعنيف»[(٤)].

وقال أيضًا: قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[(٥)] دليلٌ على صحة

---

(١) انظر: اللمع للأشعري ص(٦٩)، وانظر: الإنصاف للباقلاني ص (١٤٤، ١٥٧) والقضاء والقدر للمحمود ص (٣٦٥).

(٢) انظر: اللمع للأشعري ص(٧٣). شفاء العليل لابن القيم (١/ ٣٦٣)، والقضاء والقدر للمحمود ص(٢٠٩).

(٣) الفتاوى لابن تيمية(٨/ ١٢٨).

(٤) المفهم (٦/ ٥٥٤).

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

إطلاق أئمتنا على أفعال العباد: كسبًا واكتسابًا، ولذلك لم يطلقوا على ذلك: لا خلق ولا خالق، خلافًا لمن أطلق ذلك من مجترئة المبتدعة، ومن أطلق من أئمتنا على العبد فاعل، فالمجاز المحض كما يعرف في علم الكلام»[(١)].

وقال المازري: «الإنسان عندنا مكتسب لفعله، لا مجبور عليه، وتحقيق القول في الكسب يتسع، وموضعه كتب الأصول ولا يبعد في العقل أن يجعل الله سبحانه وتعالى هذه الأعمال أمارة على استحقاق الجنة والنار، ويسهل لكل عبد ما قضي له، أو عليه من ذلك»[(٢)].

والأشاعرة هربوا من قول المعتزلة فوقعوا في الجبر، إذ أثبتوا للعبد قدرة غير مؤثرة، فأصبح العبد عندهم مجبورًا على فعله، ولذا بيَّن القرطبي أن الهداية هي خلق القدرة على الطاعة حيث قال: «الهداية الحقيقية هي خلق القدرة على الطاعة، وقبولها، وليس ذلك إلاَّ لله تعالى»[(٣)].

فالعاصي على هذا غير قادر على الطاعة ولا مستطيع لها؛ لأن الله لم يخلق له القدرة على ذلك.

وهذا خلاف قول أهل السنة والجماعة الذين أثبتوا للعبد قدرة على فعله، والله سبحانه لم يخلق للمطيع قدرة على الطاعة، لم يخلقها للعاصي، بل القدرة ثابتة للجميع، وأما قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[(٤)] وما شابهها من الآيات، فالمراد بعدم الاستطاعة فيها مشقة ذلك وصعبوته عليهم، فنفوسهم لا تستطيع إرادته، وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوه[(٥)].

ومذهب أهل السنة والجماعة في أفعال العباد أن الله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد كلها، والعباد فاعلون حقيقة، ولهم قدرة حقيقية على

---

(١) المفهم (٧/ ٣٢٢).
(٢) المعلم (٣/ ١٧٥).
(٣) المفهم (١/ ١٩٦).
(٤) سورة هود، الآية: ٢٠.
(٥) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٦١).

أعمالهم، وقدرتهم مؤثرة في المقدور، فهم يقولون إن العبد فاعل حقيقة، وهو الذي يوصف بفعله، فهو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم، والله خالقه، وخالق فعله؛ لأنه هو الذي خلق فيه القدرة والإرادة اللتين بهما يفعل، فلا منافاة بين عموم خلقه تعالى لجميع الأشياء، وبين كون العبد فاعلاً لفعله حقيقة(١).

فأهل السنة وسط بين القدرية الذين يجعلون العبد خالقًا لأفعاله الاختيارية، وبين الجبرية الذين يجعلون العبد مجبورًا في أفعاله لا قدرة له، ولا إرادة ولا اختيار(٢).

وأما قول الأشاعرة فهو في الحقيقة لا يختلف عن قول الجبرية، فالجبرية قالوا: إن فعل العبد ينسب إليه مجازًا(٣)، والأشاعرة يقولون ينسب إليه عادة.

والنتيجة بهذا واحدة، وهو نفي الفعل عن العبد، وإن كان بعض الأشاعرة أثبت للعبد نوع تأثير وهؤلاء أقرب إلى أهل السنة.

قال الجويني ـ وهو من أئمة الأشاعرة الذين خالفوهم في هذه المسألة ـ: «أما نفي هذه القدرة والاستطاعة فمما يأباه العقل والحس، وأما إثبات قدرة لا أثر لها بوجه فهو كنفي القدرة أصلاً»(٤).

وقد بيَّن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن سبب قولهم هذا يرجع إلى عدم تفريقهم بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق، وعدم تفريقهم بين ما يقوم بالله من الأفعال وما هو منفصل عنه، وجعلهم كل أفعال الله مفعولة له منفصلة عنه.

فلما جاءوا إلى مسألة القدر، وأفعال العباد، واعتقدوا أنها مفعولة لله

---

(١) انظر: الفتاوى لابن تيمية(٨/ ١١٧، ٤٥٩)، وشفاء العليل لابن القيم(١/ ٣٣٣)، وشرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد العثيمين (٢/ ٢١٠).

(٢) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق للدكتور محمد باكريم ص(٣٧٩).

(٣) الملل والنحل(١/ ٨٧)، وقد قال القرطبي بذلك كما سبق بيانه فوافق الجبرية وإن كان ليس هناك فرق في الحقيقة بين نسبته إليه مجازًا أو عادة.

(٤) الملل والنحل (١/ ٩٨).

قالوا: هي فعله، لأن الفعل عندهم هو المفعول فقيل لهم في ذلك: أهي فعل العبد؟ فاضطربوا في الإجابة[١].

قال ـ رحمه الله ـ: «والتحقيق الذي عليه أئمة السنة، وجمهور الأمة من الفرق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق، فأفعال العباد هي كغيرها من الحدثان مخلوقة مفعوله لله كما أن نفس العبد وسائر صفاته مخلوقة مفعولة لله، وليس ذلك نفس خلقه وفعله بل هي مخلوقة ومفعولة، وهذه الأفعال هي فعل العبد القائم به ليست قائمة بالله، ولا يتصف بها فإنه لا يتصف بمخلوقاته ومفعولاته، وإنما يتصف بخلقه، وفعله كما يتصف بسائر ما يقوم بذاته، والعبد فاعل لهذه الأفعال، وهو المتصف بها وله قدرة عليها، وهو فاعلها باختياره ومشيئته وذلك كله مخلوق لله فهي فعل العبد، وهي مفعول الرب»[٢].

المطلب السادس: الحكمة والتعليل في أفعال الله:

الله سبحانه وتعالى حكيم لا يفعل جل وعلا عبثاً، ولا بغير معنى ومصلحة وحكمة، فأفعاله تعالى صادرة عن حكمة بالغة. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾[٣] وقال تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾﴾[٤]، فالله سبحانه وتعالى أنكر أن يسوى بين المختلفين أو يفرق بين المتماثلين فقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾[٦].

ولذا فأثبت أهل السنة والجماعة الحكمة في أفعال الله تعالى، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قال الجمهور من أهل السنة وغيرهم: بل هو حكيم في خلقه وأمره، والحكمة ليست مطلق المشيئة، إذ لو كان كذلك

---

(١) انظر الفتاوى (٢/ ١١٩).
(٢) المرجع السابق.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.
(٤) سورة القمر، الآية: ٥.
(٥) سورة القلم، الآية: ٣٥.
(٦) سورة القمر، الآية: ٤٣.

لكان كل مريد حكيمًا، ومعلوم أن الإرادة تنقسم إلى محمودة ومذمومة بل الحكمة تتضمن ما في خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة، والقول بإثبات هذه الحكمة ليس قول المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة فقط، بل هو قول جماهير طوائف المسلمين من أهل التفسير والفقه والحديث والتصوف والكلام وغيرهم»[(١)].

وظاهر كلام القرطبي في هذه المسألة موافقة أهل السنة في إثبات الحكمة لأفعال الله تعالى، حيث قال: «إن الله تعالى فيما يجريه حكمًا وأسرارًا راعاها، ومصالح راجعة إلى خلقه اعتبرها، كل ذلك بمشيئته وإرادته من غير وجوب عليه، ولا حكم عقليٍّ يتوجَّه إليه[(٢)] بل ذلك بحسب ما سبق في علمه، ونافذِ حكمه، فما أُطلع عليه من تلك الأسرار عُرِفَ، وما لا، فالعقل عنده يقف، وحذار من الاعتراض والإنكار، فإن مآل ذلك إلى الخيبة وعذاب النار»[(٣)].

وقال أيضًا: «الحكيم: المحكم للأمور أو الكثير الحكمة»[(٤)].

المطلب السابع: تكليف ما لا يطاق:

الطاقة: هي الاستطاعة[(٥)]. والإجماع على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما كلَّف العباد إلاَّ بما يستطيعون، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[(٦)].

قال شيخ الإسلام في بيان ذلك: «ما قال أحد من أئمة المسلمين، لا

---

(١) منهاج السنة (١/ ١٤١) وانظر الفتاوى (٨/ ٩٢).

(٢) أراد بهذا الاستثناء الاحتراز من قول المعتزلة الذين أوجبوا على الله تعالى بمقتضي الحكمة أمورًا ومنعوا أمورًا لمخالفتها لمقتضى الحكمة بزعمهم وبمحض عقولهم.

(٣) المفهم (٦/ ٢١٦).

(٤) المفهم (١/ ٤٠٥).

(٥) قال الجرجاني: الاستطاعة: هي عرض يخلقه الله تعالى في الحيوان يعقل به الأفعال الاختيارية والاستطاعة والقدرة والقوة والوسع متقاربة في المعنى في اللغة وأما في عرف المتكلمين فهي عبارة عن صفة بها يتمكن الحيوان من الفعل والترك. التعريفان للجرجاني ص(٣٥).

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

الأئمة الأربعة ولا غيرهم، لا مالك ولا أبوحنيفة، ولا الشافعي، ولا أحمد، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، ولا الليث(١)، ولا أمثال هؤلاء أن الله يكلف العباد ما لا يطيقونه»(٢).

وهذا الذي قرَّره القرطبي عند ذكره للآية السابقة حيث قال: «هذا خبرٌ من الله تعالى أنه لا يأمرنا إلاَّ بما نطيقه، ويمكننا إيقاعه عادة، وهو الذي لم يقع في الشريعة غيره، ويدل على ذلك تصفحها، وقد حكي الإجماع على ذلك»(٣).

ولكن هل يصح التكليف بما لا يُطاق؟.

هذا موطن خلاف بين الطوائف.

والتكليف بما لا يُطاق على قسمين:

الأول: ما لا يطاق للعجز عنه عادة: كتكليف الإنسان بالطيران في الهواء، أو المشي فوق الماء. وما لا يطاق للعجز عنه عقلاً: كالجمع بين الضدين.

الثاني: ما لا يطاق، لا للعجز عنه، لكن لتركه والاشتغال بضده: كتكليف الكافر الإيمان في حال كفره.

والأشاعرة اتفقوا على جواز النوع الثاني، واختلفوا في النوع الأول، فمن مجيز ومانع(٤).

وقد حكى القرطبي هذا الخلاف دون ترجيح فقال: «إنما الخلاف في جواز التكليف بما لا يمكننا إيقاعه: عقلاً كالجمع بين الضدين، أو عادة: كالطيران في الهواء، والمشي فوق الماء، فمن مجوز ومن مانع»(٥).

---

(١) هو الليث بن سعد بن عبدالرحمن الاصبهاني ثقة ثبت فقيه إمام مقدم شيخ الديار المصرية في زمنه كان من الأثرياء الأجواد توفي سنة(١٧٥هـ) حلية الأولياء (٧/ ٣١٨). صفة الصفوة(٤/ ٣٠٩).

(٢) الفتاوى (٨/ ٤٧٩).

(٣) المفهم (٧/ ٣٢١).

(٤) انظر: اللمع للأشعري ص(٩٨)، والمستصفى للغزالي (١/ ١٦٣).

(٥) المفهم (٧/ ٣٢١).

ولكنه في موضع آخر وافق الأشاعرة في قولهم، فرجَّح جواز التكليف بما لا يطاق، فقال: «قوله: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾[١] ما: هذه أيضًا على عمومها، فتتناول كل ما يقع في نفس الإنسان من الخواطر، ما أُطيق دفعه منها، وما لا يُطاق، ولذلك أشفقت الصحابة من محاسبتهم على جميع ذلك، ومؤاخذتهم به، فقالوا للنبي ﷺ: كُلِّفنا ما نطيق بالصلاة والصيام، وهذه الآية لا نطيقها... فأقرهم النبي ﷺ على ما فهموه، وبيَّن لهم أن الله تعالى أن يكلف عباده بما يطيقونه وبما لا يطيقونه»[٢].

وقال في استخراجه لفوائد من قوله ﷺ: «**من صَوَّرَ صورةً في الدُّنيا كلِّف أن ينفُخ فيها الرُّوح يوم القيامة وليس بنافخ**»[٣]: ويُستفاد منه جواز التكليف بالمحال في الدنيا، كما جاز في الآخرة[٤].

والمازري لم يصرح بهذا فعند شرحه لحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ الذي قال فيه: «**لما نزلت على رسول الله** ﷺ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾[٥] **قال: فاشتدَّ ذلك على أصحاب رسول الله** ﷺ **فأَتَوْا رسول الله** ﷺ **ثمَّ بركُوا على الرُّكَب فقالوا: لا نطيقها**»[٦]: قال: إشفاقهم وقولهم: «لا نطيقها» يحتمل أن يكون أنهم اعتقدوا أنهم يؤاخذون بما لا قدرة لهم على دفعه من الخواطر التي لا تكتسب، فلهذا رأوه من قبيل ما لا يطاق... فإن كان المراد هذا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

(٢) المفهم (١/ ٣٣٦).

(٣) رواه البخاري في كتاب التعبير باب من كذب في حلمه ح(٧٠٤٢) (١٢/ ٤٤٦)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة باب تحريم تصوير صورة الحيوان ح(٢١١٠) (١٣/ ٣٣٨).

(٤) المفهم (٥/ ٤٣٣).

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

(٦) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلاَّ مايطاق ح(١٢٥) (٢/ ٥٠٤).

كان الحديث دليلاً على أنهم كلفوا ما لا يطاق، وعندنا أن تكليفه جائزٌ عقلاً»[١].

والقول بتكليف ما لا يطاق بناه الأشاعرة على ما في مذهبهم من أنه لا يجب على الله شيء ولا يقبح منه شيء.

وأما أهل السنة فاتفقوا على عدم جواز التكليف بما لا يطاق، وهو النوع الأول، وقد ذكر شيخ الإسلام الإجماع على ذلك[٢].

وأما النوع الثاني فقالوا بجواز التكليف به للاتفاق على وقوعه في الشريعة، ولكنهم خالفوا في إطلاق ذلك عليه، فمنعوه لأن مضمونه أن فعل ما لا يفعله المكلف لا يطيقه، وإن كان بعض المنتسبين إلى السنة قد أطلقه في رده على القدرية[٣].

المطلب الثامن : معنى الظلم :

لا شك أن الله سبحانه وتعالى حكمٌ عدلٌ، لا يظلم الناس شيئًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٤]، وكقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[٥]، وكقوله تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلتُهُ بينكم مُحرَّمًا، فلا تظالموا**»[٦].

ولكن ما هو الظلم الذي ينزه عنه سبحانه وتعالى؟

وقع الخلاف في معنى الظلم، بناءً على مسألة التحسين والتقبيح، على ثلاثة أقوال:

الأول: من عرَّف الظلم بأنه التصرف في ملك الغير أو مخالفة الآمر الذي

---

(١) المعلم (١/٢٠٨).

(٢) الفتاوى (٨/٣٠١).

(٣) المرجع السابق(٨/٢٩٨، ٢٩٩).

(٤) سورة يونس، الآية: ٤٤.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٦) سبق تخريجه ص(١٦٢).

تجب طاعته، فيقولون: الظلم بالنسبة لله غير ممكن الوجود. فالظلم منه ممتنع غير مقدور، كالجمع بين الضدين، ولو قدر وجوده، فإنه عدل. فلو عذَّب الله المطيعين من الأنبياء والمرسلين، ونعَّم العاصين من الكافرين والظالمين لم يكن ظالمًا؛ لأنه يتصرف في ملكه، وليس فوقه آمر حتى يخالفه.

وهذا هو قول الجهمية وعامة الأشاعرة، ومن تابعهم من بعض أتباع مالك والشافعي وأحمد[1].

الثاني: قول المعتزلة، وهو أن الظلم مقدور لله عز وجل، ولكنه منزه عنه لقبحه، ولكنهم يجعلون الظلم الذي حرَّمه الله، وتنزَّه عنه نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض، فشبَّهوه في الأفعال ما يحسن منها وما لا يحسن بعباده، فضربوا له من أنفسهم الأمثال، ولذلك فهم يسمون مشبهة الأفعال. فالله عندهم عدل لا يظلم؛ لأنه لم يرد وجود شيء من الذنوب، لا الكفر، ولا الفسوق، بل العباديفعلون ذلك بغير مشيئته، فليس بخالق لأفعال العباد؛ لأنه لو كان خالقًا لها، ثم عاقب عليها، لكان ظالمًا للعباد[2].

وقد ذكر القرطبي القولين السابقين، وارتضى القول الأول الذي عليه عامة الأشاعرة، وأعرض عن القول الثالث الذي عليه أهل السنة، فلم يذكره ولم يشر إليه، حيث قال: «اتفق العقلاء على أن الظلم على الله تعالى مُحال، وإنما اختلفوا في الطريق، فالقائلون بالتحسين والتقبيح عقلاً يقولون: يستحيل عليه لقبحه، ومن لا يقول بذلك يقولون: يستحيل عليه لاستحالة شرطه في حقه تعالى، وذلك أن الظلم إنما يتصور في حق من حدَّت له حدود، ورسمت له مراسم، فمتى تعداها كان ظالمًا، والله تعالى هو الذي حدَّ الحدود، ورسم الرسوم، إذ لا حاكم فوقه، ولا حاجز عليه، ولا يجب عليه حكم، ولا يترتب عليه حق، ولا يتصور الظلم في

---

(١) انظر منهاج السنة(٣/ ٢٩). وجامع الرسائل رسالة في كون الرب عادلاً وتنزهه عن الظلم (١/ ١٢١).

(٢) انظر إنعام الباري في شرح حديث أبي ذر الغفاري لابن تيمية (٢٩_ ٤٤).

حقه»[١].

وقال أيضًا: «الظلم لا يتصور من الله تعالى، فإن الكل خلقه وملكه، لا حجر عليه ولا حكم، فلا يتصور في حقه الظلم لاستحالة شرطه»[٢].

وبيَّن أنَّ لله تعالى أن يعذب من غير تكليف، كالصبي والمجنون، ولا يكون ظالمًا، موافقًا للأشاعرة فيما ذهبوا إليه، حيث قال: ثم لله تعالى أن يعذب من شاء ابتداءً من غير تكليف، من صبي أو مجنون، أو غير ذلك، بحكم المالكية، وأنه لا حجر عليه، ولا حكم، فلا يكون ظالمًا بشيء من ذلك إن فعله»[٣].

وكذلك المازري أخذ بهذا القول موافقًا عامة الأشاعرة على ذلك حيث قال: الظلم مستحيل منه سبحانه وتعالى جده؛ لأنه إنما يكون إذا تعديت الحدود وتجوَّزت المراسم، والباري جلَّت قدرته ليس فوقه أحد يحد له حدًّا، أو يرسم له رسمًا، حتى يكون متجاوزًا لذلك ظالمًا، ولا فوقه من يستحق أن يطيعه حتى يحلل له الحلال ويحرِّم عليه الحرام، ولكن تحريم الشيء يقتضي المنع منه، والكف عنه، فسمي الباري سبحانه تقدسه عن الظلم بهذا اللفظ، فقال «**حرَّمت على نفسي**»»[٤].

والصحيح في هذه المسألة ما عليه عامة أهل السنة وهو أن حقيقة الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهذا الذي حرَّمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن، فلا يجازيه عليها، أو يعاقب البريء على ما لم يفعل من السيئات، ونحو ذلك من الأفعال التي يُنزَّه عنها الرب ـ سبحانه وتعالى ـ لقسطه وعدله، وهو قادر عليها، وإنما استحق الحمد والثناء؛ لأنه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه، وكما أن الله منزَّه عن صفات النقص والعيب فهو أيضًا منزه عن أفعال النقص والعيب[٥].

---

(١) المفهم (٦/ ٥٥٢).
(٢) المفهم (٦/ ٦٦٢).
(٣) المفهم (٦/ ٦٧٨). وانظر أيضًا(٦/ ٢١٢).
(٤) المعلم (٣/ ١٦٥) وانظر أيضًا (٣/ ١٩٨، ١٩٩).
(٥) انظر الفتاوى لابن تيمية (١٨/ ١٤٥)، مفتاح دار السعادة لابن القيم(٢/ ١٠٧)، القضاء =

المطلب التاسع : الواجب على الله تعالى :

خالف المعتزلة جماهير المسلمين في مسألة وجوب شيء على الله تعالى، وذلك بناءً على قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين حيث أوجبوا على الله أمورًا وحرموا عليه أخرى بمحض عقولهم قياسًا لله تعالى على عباده. حيث أوجبوا عليه رعاية مصالح العباد وثوابهم على الطاعة، ومعاقبتهم على المعصية وسموا ذلك عدلاً[١].

وجماهير المسلمين من أهل السنة وغيرهم قالوا: لا يجب على الله شيء، بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية:

ما للعباد عليه حق واجب   هو أوجب الأجر العظيم الشان
كلا ولا عمل لديه ضائع   إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عذبوا فبعد له أو نعموا   فبفضله والحمد للمنان[٢]

قال الشيخ محمد خليل هراس[٣] في شرح هذه الأبيات: «في هذه الأبيات الثلاثة بيان لمذهب أهل السنة في أنه ليس للعباد حق واجب على الله وأنه مهما يكن من حق فهو الذي أحقه، وأوجبه ولذلك لا يضيع عنده عمل قام على الإخلاص والمتابعة، فإنهما الشرطان الأساسيان لقبول الأعمال فإذا توفرا في عمل ما كان مقبولاً بمقتضى وعده سبحانه وإيجابه واستحق صاحبه الأجر المقدر له، فهو إن عذب العباد فبعدله، فإنه لا يجزي على السيئة إلاَّ سيئة مثلها، فلا يظلم أحدًا مثقال ذرة، وإن أنعم وأثاب فبفضله، فله الحمد أولاً وآخرًا»[٤].

= والقدر للمحمود ص(١٨٨).

(١) الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٤٥)، والفتاوى لابن تيمية (٨/ ٩١).

(٢) القصيدة النونية المسماة «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية»، مع شرحها للشيخ محمد خليل هراس (٢/ ٩١).

(٣) محمد خليل هراس المصري عالم قضى حياته في التعليم والتأليف والدفاع عن العقيدة السلفية توفي سنة(١٣٩٥هـ). انظر: مقدمة شرحه للعقيدة الواسطية، تحقيق علوي السقاف ص(٤١).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٩٢).

والقرطبي نصر هذا القول ورد على المعتزلة فيما ذهبوا إليه، فقال: «إن الله تعالى الفعال لما يريد القادر على ما يشاء لا يتوجه عليه وجوب ولا حق ولا يثبت عليه لوم ولا حكم، وأما على أصول أهل البدع القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين، وما يتولد على ذلك من الأصول الفاسدة من التجويز والتعديل والإيجاب على الله تعالى فلا يلتفت إليها ولا يعرج عليها لظهور فسادها»[١].

وقال المازري في شرحه لحديث معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: «قوله ﷺ في حديث معاذ: «**هل تدري ما حق العباد على الله؟**»[٢] **يحتمل وجهين**:

أحدهما: أن يكون أراد حقًّا شرعيًّا لا واجبًا بالعقل، كما تقول المعتزلة، وكأنه لما وعد به تعالى ووعده الصدق صار حقًّا من هذه الجهة.

والوجه الثاني: أن يكون خرج مخرج القابلة للفظ الأول؛ لأنه قال في أوله: «ما حق الله على العباد؟» ولا شك أن لله على عباده حقًّا فاتبع اللفظ الثاني الأول»[٣].

المطلب العاشر: التحسين والتقبيح:

أول من اشتهر عنه القول بالتحسين والتقبيح الجهم بن صفوان الذي وضع قاعدته «إيجاب المعارف بالعقل قبل ورود الشرع» وبنى على ذلك أن العقل يوجب ما في الأشياء من صلاح وفساد وحسن وقبح، قبل نزول الوحي، ثم جاء الوحي مصدقًا لما قال به العقل من حسن بعض الأشياء، وقبح بعضها، وقد أخذ المعتزلة بهذا القول، واشتهر عنهم فقالوا: إن العباد يعاقبون على أفعالهم القبيحة ولو لم يبعث إليهم رسول»[٤].

---

(١) المفهم (٦/ ٢١٢)، وانظر أيضًا(٦/ ٢١٦).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب إرداف الرجل خلف الرجل ح(٥٩٦٧) (١٠/ ٤١٢). ومسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على: أنَّ من مات على التوحيد دخل الجنة ح(٣٠) (١/ ٣٤٣).

(٣) المعلم (١/ ١٩٥)، وانظر أيضًا (١/ ٣٢٥).

(٤) نشأة الفكر الفلسفي للنشار (١/ ٣٤٦).

وقابل هذا القول قول الأشاعرة، ومن تابعهم الذين قالوا: إن الفعل لا يدل على حسن شيء، ولا قبحه، قبل ورود الشرع، فلا يعرف الحسن والقبح إلاَّ بالشرع، فلو عكس الشرع، فحسن ما قبحه وقبح ما حسنه لم يكن ممتنعًا[(١)].

ولم يجعلوا أحكام الشرع معللة بناء على مذهبهم في التعليل، فلا فرق عندهم بين السجود للشيطان والسجود للرحمن في نفس الأمر، ولا بين الصدق والكذب، إلاَّ أن الشارع حرم هذا وأوجب، هذا فمعنى حسنه كونه مأمورًا به، لا أنه منشأ مصلحة، ومعنى قبحه كونه منهيًا عنه، لا أنه منشأ مفسدة ولا فيه صفة اقتضت حسنه أو قبحه»[(٢)].

وهذا ما سلكه القرطبي في هذه المسألة حيث قال: «الله تعالى جبل القلوب الكاملة على القيام بحق الأمانة من حفظها واحترامها وأدائها لمستحقها، وعلى النفرة من الخيانة فيها لتنتظم المصالح بذلك، لا لأنها حسنة في ذاتها كما يقوله المعتزلة»[(٣)].

وقال أيضًا: «إن أعمال العباد الصالحة ليست مما تقتضي دخول الجنة إذ ليست في أنفسها على صفات تقتضي ذلك، ولا يستحق المكلف على الله بسببها شيئًا[(٤)]، إذ لا منفعة له فيها، ولا غرض، فإنه الغني بذاته الذي لا

---

(١) انظر: اللمع للأشعري ص(١١٦) والتبصير في الدين لأبي المظفر الإسفراييني ص(١٠٣).

(٢) مدراج السالكين لابن القيم (١/ ٢٣٠).

(٣) المفهم (١/ ٣٥٦).

(٤) العمل سبب لدخول الجنة كما قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ النحل: (٣٢) وقوله تعالى: ﴿أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾، الأعراف: (٤٣). قال ابن كثير: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٦)، وقال السعدي: العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة. تفسير السعدي ص(٤٦٧) وفي الجمع بين قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾، وبين قوله ﷺ **«لن ينجو أحد بعمله»** مسلم في كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ح(٢٨١٦) (١٧/ ١٦٤) قال ابن القيم: الأعمال سبب لدخول الجنة مقتضية له كاقتضاء سائر الأسباب مسبباتها، وأما الحديث فأخبر فيه أنَّ دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد وأنه لولا رحمة الله بعبده لماأدخله الجنة لأنَّ العمل بمجرده =

يُستغنى عنه، وكأن هذا نص في الرد على أهل البدع والمعتزلة في قولهم في قاعدة التحسين والتقبيح والاستحقاق العقليين»(١).

وصرَّح في موضع آخر «أن الحسن والقبح لا يعرفان إلاَّ من قبل الشرع، فما حسنه بالثناء عليه، فهو حسن، وما قبحه بالذم عليه فهو القبيح»(٢).

وهذا القول نقله الحافظ ابن حجر وارتضاه(٣).

والمازري ورد عنه ما يشير إلى أخذه بهذا القول إذ رد على المعتزلة قولهم في التحسين والتقبيح، فحاصله الأخذ بالرأي المقابل لهم، خصوصًا إذا علمنا أن المازري أشعري خالص لا يكاد يخرج عن رأي الأشاعرة في جميع مسائل العقيدة. حيث قال في هذه المسألة: «لا يقال أن قولهم:

= ولو تناهى لا يوجب دخول الجنة ولا أن يكون عوضًا لها لأنه ولو وقع على الوجه الذي يحبه الله لايقاوم نعمة الله بل جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة، مفتاح دار السعادة (١/ ٨) بتصرف، وبيَّن رحمه الله في شفاء العليل أنَّ هذا مذهب الجبرية حيث قال: وسلكت الجبرية وادي الجبر وطريق المشيئة المحضة... قالوا ولما كان الأمر راجعًا إلى محض المشيئة لم تكن الأعمال سببًا للنجاة فكانت رحمته للعباد هي المستقلة بنجاتهم لا أعمالهم فكانت رحمته خيرًا من أعمالهم وهؤلاء راعوا جانب الملك وعطلوا جانب الحمد ولله سبحانه له الملك وله الحمد. شفاء العليل(١/ ٢٤٤). وقول القرطبي السابق مبالغة في مخالفة المعتزلة وإلاَّ فالله تعالى جعل الأعمال من الأسباب الموصلة إلى الجنة فعلق الجزاء على الأعمال وهو ماقرره القرطبي في موضع آخر من المفهم حيث قال: لم يجعل الله التمسك بسابق القدر حجة للمقصرين ولا عذرًا للمعتذرين وعلق الجزاء على الأعمال وجعلها له سببًا فقال تعالى: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية/ ٢٢] وبـ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ [النحل: ١١١]، وقال في أهل الجنة ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة/ ١٧]، وقال في أهل النار: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٢٨﴾ [فصلت/ ٢٨]، وقال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾ [النجم/ ٣١]، وقال على لسان نبيه ﷺ: **«ياعبادي إنما هي أعمالكم أردها عليكم فمن وجد خيرًا فليحمدالله ومن وجد الأخرى فلا يلومن إلاَّ نفسه»**. سبق تخريجه ص(١٦٢). المفهم (٦/ ٦٦٤).

(١) المفهم (٧/ ١٣٩).

(٢) انظر: المرجع السابق (٧/ ١٣٩).

(٣) انظر: فتح الباري (١/ ٢٦٧).

«أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر»[١] إنما بعُدَ عندهم على طريقة المعتزلة في التقبيح والتحسين من جهة العقول، وأنه لا يؤجر إلاَّ على فعله، بل يحتمل أن يكون إنما بَعُدَ عندهم على ما عهدوه من حكم الشريعة، وتقرر عندهم أن الأجور تكون بقدر المشاق، وهذا مما تدعو إليه الطباع وتستلذه»[٢].

والمذهب الصحيح في هذا ما عليه جمهور أهل السنة والجماعة، وهو وسطٌ بين طرفين، فهم يقولون: إن الحسن والقبح يعرفان بالعقل، ولكن لا يترتب على ذلك ثواب ولا عقاب، قبل ورود الشرع بالأمر والنهي.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة، والفرق بينهما كالفرق بين المطعومات والمشمومات والمرئيات، ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب، إلاَّ بالأمر والنهي، وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون قبيحًا موجبًا للعقاب مع قبحه في نفسه، بل هو في غاية القبح، والله لا يعاقب عليه إلاَّ بعد إرسال الرسل، فالسجود للشيطان والأوثان والكذب والزنا والظلم والفواحش كلها قبيحة في ذاتها، والعقاب عليها مشروط بالشرع»[٣].

وقال الشيخ عبدالعزيز بن باز[٤] ـ رحمه الله تعالى ـ تعليقًا على كلام

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة باب بيان أنَّ اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ح(١٠٠٦)، (٧/ ٩٥).

(٢) المعلم (٢/ ١٧).

(٣) مدراج السالكين (١/ ٢٣١).

(٤) هو الشيخ الإمام العلامة عبد العزيز بن عبدالله بن باز إمام أهل السنة في زمنه تولى القضاء في عدد من البلدان ثم تولى رئاسة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عند إنشائها ثم تولى رئاسة الإدارة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ثم مفتيًا عامًا للمملكة ورئيسًا لهيئة كبار علمائها إضافة إلى اضطلاعه بالعديد من المهام والأعمال الدعوية مع الاجتهاد في نشر العلم والعبادة ونفع الناس، خلَّف عدة مؤلفات منها «الفوائد الجلية في المباحث الفرضية»، «العقيدة الصحيحة وما يضادها»، «نقد القومية العربية» وله حاشية مفيدة على فتح الباري وَصَلَ فِيها إلى كِتَاب الحجِّ إلى غير ذلك من المؤلفات النَّافعة، توفي رحمه الله في يوم الخميس ٢٧/ ١/ ١٤٢٠هـ وصلي =

القرطبي الذي نقله الحافظ ابن حجر وارتضاه: «هذا قول بعض أهل السنة، وذهب بعض المحققين منهم إلى أن العقل يحسن ويقبح لما فطر الله عليه العباد من معرفة الحسن والقبيح، وقد جاءت الشرائع الإلهية تأمر بالحسن وتنهى عن القبيح، ولكن لا يترتب الثواب والعقاب على ذلك، إلاَّ بعد بلوغ الشرع كما حقق ذلك العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «مفتاح دار السعادة»[1] وهذا هو الصواب والله أعلم»[2].

= عليه بعد صلاة الجمعة في المسجد الحرام، وصلِّي عليه صلاة الغائب في جميع مناطق المملكة وبعض الدول الإسلامية.

(١) مفتاح دار السعادة(٢/ ١٤ـ ٦٢).

(٢) فتح الباري (١/ ٢٦٧) الهامش.

الفصل الثالث
توحيد الألوهية

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول: **حقيقته ومكانته**

المبحث الثاني: **العبادة وبعض أنواعها**

المبحث الثالث: **نواقض التوحيد وقوادحه**

المبحث الرابع: **البدع والموقف من الفرق المبتدعة**

المبحث الأول
حقيقته ومكانته

توحيد الألوهية هو إفرادالله تعالى بالعبادة، واستحقاقه لها وحده دون سواه قولاً وفعلاً وقصدًا. ويسمى هذا التوحيد توحيد العبادة، وتوحيد الطلب، وتوحيد القصد والإرادة.

وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أصل دين الرسل، ومفتاح دعوتهم الذي فاتحوا به أقوامهم، فكل رسول أرسل إلى قومه يدعوهم بقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾(١) كما أخبر الله عنهم في كتابه، وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحدٍ سواه، وهو معنى قول: «لا إله إلاَّ الله» وهو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝﴾(٢). بل كل آية في القرآن فهي متضمنة لهذا التوحيد وحقوقه وجزائه، كما دلَّت على ذلك سورة «الفاتحة»، و«قل ياأيها الكافرون»، وأول سورة «الزمر» وآخرها، وأول سورة «يونس» ووسطها وآخرها، وأول سورة «الأعراف» وآخرها، وجملة سورة «الأنعام» وغالب سور القرآن(٣).

فمن أجل هذا التوحيد أنزل الله كتبه، وأرسل رسله، ومن أجله شرع الله الجهاد، ومن أجله خلق الله الجنة والنار، بل هو المقصود الأعظم من خلق الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾(٤)

فهو أول واجب على المكلف، وآخر واجب عليه، وأول ما يدخل به الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، وهذا التوحيد هو الذي وقع فيه النزاع بين الرسل وأممهم، وشاقَّت فيه قريش رسول الله ﷺ، وقالت:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٣) انظر: مدراج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٤٩)، وتيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبدالله آل الشيخ(٣٦).

(٤) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

أجعل الألهة إلهًا واحدًا، فهم أقروا بربوبية الله وقدرته على الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وأنكروا تفرده بالإلهية والعبادة، فقاتلهم رسول الله ﷺ، وأمر بقتالهم حتى يقولوا لا إله إلاَّ الله، ويأتوا بلوازمها ومقتضياتها، ولهذا فإن إقرار المشرك بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، لا ينجيه من عذاب الله إن لم يقترن به إقراره بأنه لا إله إلاَّ الله، فلا يستحق العبادة أحدٌ إلاَّ هو، وأن محمدًا رسول الله، فيجب طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر(١).

وقد جاءت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة في الدعوة إليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾(٦). إلى غير ذلك من الآيات القرآنية.

وفي السنة ما روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا ـ رضي الله عنه ـ إلى اليمن قال: «**إنك تقدمُ على قومٍ أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ـ عز وجل ـ فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها، فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس**»(٧).

---

(١) انظر: التدمرية لابن تيميةص(١٩٦)، وتيسير العزيز الحميد لآل الشيخ ص(٣٧).
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢، ١٦٣.
(٤) سورة النحل، آية: ٣٦.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(٧) سبق تخريجه ص(١٥٠).

وعن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: «**أنا رديف النبي ﷺ فقال: يا معاذ! قلت: لبيك وسعديك، ثم قال مثله ثلاثًا: هل تدري ما حق الله على العباد؟ قلت: لا، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، ثم سار ساعة فقال: يا معاذ! قلت: لبيك وسعديك قال: وهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ ألَّا يعذبهم**»(١). إلى غيرها من الأحاديث الشريفة الدالة على هذا المعنى.

وهذا هو دين الأنبياء جميعًا، كما قال ﷺ: «**الأنبياءُ إخْوةٌ من علاَّت، أمَّهاتُهُم شتَّىٰ، ودينُهُم واحدٌ**»(٢).

قال القرطبي: «**قوله**: «**دينهم واحد**» أي: في توحيدهم وأصول أديانهم»(٣).

وبهذا يتبين فساد ما ذهب إليه المعتزلة والأشاعرة ومن شايعهم في عدم التفريق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فجعلوا توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل عليهم السلام»(٤).

وقد بيَّن القرطبي أن شهادة أن لا إله إلاَّ الله تعني عبادة الله وحده دون سواه، ولم يذكر قول الأشاعرة الذين جعلوا معناها أي لا خالق ولا موجود إلاَّ الله، حيث قال عند شرحه لحديث ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ الذي قال فيه ﷺ: «**بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله...**»(٥): «قد روي من طرق، ففي بعضها «شهادة أن لا إله إلاَّ الله» وفي بعضها: «على أن تعبد الله وتكفر بما دونه» فالأولى نقل للفظ، والأخرى

---

(١) سبق تخريجه ص(٢٠٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله الله﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ ح(٣٤٤٣) (٦/ ٥٥٠)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام ح(٢٣٦٥) (١٥/ ١٢٨).

(٣) المفهم (٦/ ١٧٦).

(٤) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي (١/ ٢٥، ٢٩).

(٥) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس ح(٨، ١/ ٦٤) ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام ح(١٦، ١/ ٢٩٠).

نقل بالمعنى»[١].

وقال في موضع آخر: من مات لا يتخذ معه شريكًا في الإلهية ولا في الخلق، ولا في العبادة دخل الجنة»[٢].

وقد تبين لنا فيما سبق رد القرطبي على المتكلمين في مسألة أول واجب على العبد، وتشنيعه عليهم فيما ذهبوا إليه، وبيَّن أن أول الواجبات النطق بكلمة التوحيد، حيث قال عند شرحه لحديث معاذ ـ رضي الله عنه ـ[٣]: «قوله: «**فإذا عرفوا الله فأخبرهم**» أي: إن أطاعوا بالنطق بذلك، أي: بكلمتي التوحيد كما قال في الرواية: «**فإن هم أطاعوا بذلك فأعلمهم**» فسمى الطواعية بذلك والنطق به: معرفة؛ لأنه لا يكون غالبًا إلاَّ عن المعرفة، وهذا الذي أمر النبي ﷺ به معاذًا هو الدعوة قبل القتال التي كان النبي ﷺ يوصي بها أمراءه، وقد اختلف في حكمها على ما يأتي في الجهاد، وعلى هذا فلا يكون حديث معاذ حجة لمن تمسك به من المتكلمين على أن أول واجب على كل مكلف معرفة الله تعالى بالدليل والبرهان، بل هو حجة لمن يقول: إن أول الواجبات التلفظ بكلمتي الشهادة مصدقًا بها»[٤].

(١) المفهم (١/ ١٦٩).
(٢) المفهم (١/ ٢٩٠).
(٣) سبق تخريجه ص(١٥٠).
(٤) المفهم (١/ ١٨١).

المبحث الثاني
العبادة وبعض أنواعها

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: **تعريفها وشروط صحتها**

المطلب الثاني: **بعض أنواعها:**

١ ـ الدعاء

٢ ـ الخوف والرجاء

٣ ـ التوكل

المطلب الأول : تعريفها وشروط صحتها :

إن توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بالعبادة، وقد وضَّح القرطبي معنى العبادة فقال: «أصل العبادة الخضوع والتذلل، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات؛ لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى»(١).

والعبد الذي خضع لله تعالى، واستسلم، يسعى لأن تكون عبادته وفق ما أمر الله تعالى به لتوافق مرضاة الله، فتكون سببًا لنجاته.

والعبادة الصحيحة المقبولة عند الله تعالى لابد لها من شرطين أساسيين هما: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسوله ﷺ، وقال قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾(٣).

وقد بيَّن القرطبي أن الإخلاص شرطٌ في صحة جميع العبادات فقال: «الإخلاص شرطٌ في جميع العبادات، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، والإخلاص مصدر من أخلصت العسل وغيره، إذا صفيته وأفردته من شوائب كدره، أي: خلَّصته منها. فالمخلص في عباداته هو الذي يخلصها من شوائب الشرك والرياء، وذلك لا يتأتي له إلاَّ بأن يكون الباعث على عملها قصد التقرب إلى الله تعالى، وابتغاء ما عنده، فأما إذا كان الباعث عليها غير ذلك من أعراض الدنيا، فلا يكون عبادة، بل يكون مصيبة موبقة لصاحبها، فإما كفر وهو: الشرك الأكبر، وإما رياء وهو: الشرك الأصغر»(٤).

وأما المتابعة للرسول ﷺ فهو المبلغ عن ربه سبحانه. وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾(٥)، وقال ﷺ: «من

---

(١) المفهم (١/ ١٨١).
(٢) سورة البينة، الآية: ٥.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٤) المفهم (٣/ ٧٤٢).
(٥) سورة الحشر، الآية: ٧.

أَحْدَثَ في أمرنا هذا ما ليسَ فيه فهو رَدٌّ»[١].

قال القرطبي: «سنة الله تعالى في العبادة أنها لا تتلقى إلاَّ من جهة الأنبياء»[٢].

ولا شك أن هذا إقفالٌ لباب الابتداع في الدين، فلا عبادة صحيحة إلاَّ ما جاءت عن طريق الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٣].

قال الفضيل بن عياض[٤]: «أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقْبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقْبَل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة»[٥].

المطلب الثاني: بعض أنواع العبادة:

١ ـ الدعاء:

إن الدعاء من أعظم أنواع العبادة، وأوضح مظاهر الخضوع والتذلل لرب العالمين، لما فيه من الالتجاء والافتقار إلى أرحم الراحمين. وقد كان ﷺ وهو من حقق العبودية على أكمل صورها مظهرًا الحاجة والافتقار إلى الله تعالى، ملتجئًا إليه، كثير الإلحاح في الدعاء.

وقد بيَّن القرطبي أن دعاء الرسول ﷺ في غزوة بدر وغيرها إنما هو من القيام بحق العبودية، وإظهار الفاقة والحاجة إليه تعالى، حيث قال: «قوله: «**فمازال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه**»[٦] هذا منه ﷺ قيام بوظيفة ذلك الوقت من الدعاء والالتجاء إلى الله

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ح(٢٦٩٧) (٥/ ٣٥٥)، ومسلم في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ح(١٧١٨) (١٢/ ٢٥٧).

(٢) المفهم (٣/ ٥٧٤).

(٣) سورة الملك، الآية: ٢.

(٤) هو فضيل بن عياض بن مسعود التميمي أبوعلي الإمام القدوة الزاهد العابد المشهور توفي سنة(١٨٧هـ). تهذيب التهذيب (٣/ ٣٩٩)، صفة الصفوة(٢/ ٢٣٧).

(٥) مدارج السالكين لابن القيم(١/ ٨٣).

(٦) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الجهاد والسير باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ح(١٧٦٣) (١٢/ ٣٢٧).

تعالى، وتعليم لأمته ما يلجؤون إليه عند الشدائد والكرب الواقعة بهم، فإن ذلك الوقت كان وقت اضطرار وشدة، وقد وعد الله المضطر بالإجابة حيث قال: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾(١) يعني عن المضطر عند الدعاء. فقام بعبادة ذلك الوقت، ولا يلزم من اجتهاده في الدعاء ذلك الوقت أن يكون ارتاب في أن الله سينجز له ما وعده به... لكنه قام بحق العبودية وإظهار الفاقة، وامتثال العبادة، فإن الدعاء مخ العبادة، فقلبه ﷺ مستغرق بمعرفة الواعد وإنجاز الموعود ولسانه وجوارحه مستغرقة بالقيام بحق عبادة المعبود، فقام بكل جارحة بوظيفتها، ولكل عبادة بحقيقتها»(٢).

وقال في موضع آخر ـ عن دعاء الرسول ﷺ ببعض الدعوات ـ حاثًّا على الاقتداء به عليه السلام: «إنما دعا النبي ﷺ بهذه الدعوات، وتعوَّذ بهذه التعوذات، إظهارًا للعبودية، وبيانًا للمشروعية ليُقتدي بدعواته ويتعوذ بتعويذاته»(٣).

والدعاء كما أنه عبادة وقربة إلى الله تعالى، وامتثالٌ لأمره تعالى، إذ قال: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾(٤). فالمسلم بدعائه يرجو الإجابة، ولذا فلابد من القيام بهذه العبادة على وجهها الصحيح من الإتيان بشروط الدعاء، والحذر من موانع الإجابة، وقد ذكر العلماء ذلك في كتبهم، وتوسَّعوا ليحقِّقَ العبد العبادة. وقد ذكر القرطبي بعض هذه الشروط والتي منها: العزم في الدعاء وإظهار الحاجة والافتقار حيث قال عن هذا الشرط عند شرحه لقوله ﷺ: «**لا يقُولَنَّ أحدُكُم اللهُمَّ اغفر لي إن شئت! اللهم ارحمني إن شئت! ليعزم في الدعاء فالله صانع ما شاء لا مكره له**»(٥): «إنما نهى الرسول ﷺ عن هذا القول لأنه يدل على فتور الرغبة، وقلة التهمم

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٢.
(٢) المفهم (٣/ ٥٧٤).
(٣) المفهم (٧/ ٣٥).
(٤) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٥) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له ح(٦٣٣٩) (١١/ ١٤٤)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب العزم بالدعاء ح(٢٦٧٩) (١٧/ ٩).

بالمطلوب، وكأن هذا القول يتضمن: أن هذا المطلوب إن حصل وإلاَّ استغني عنه، ومن كان هذا حاله لم يتحقق من حاله الافتقار والاضطرار الذي هو روح عبادة الدعاء، وكان ذلك دليلاً على قلة اكتراثه بذنوبه وبرحمة ربه، وأيضًا فإنه لا يكون موقنًا بالإجابة، وقد قال ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافلٍ لاهٍ**»(١) ثم أن النبي ﷺ لم يكتف بالنهي عن ذلك حتى أمر بنقيضه، فقال: «**ليعزم في الدعاء**» أي ليجزم في طلبته وليحقق رغبته ويتيقن الإجابة»(٢).

وذكر في موضع آخر جملة من شروط الدعاء وآدابه التي بالقيام بها وتحقيقها ترجى الإجابة فقال: «إن إجابة الدعاء لابد لها من شروط في الداعي وفي الدعاء وفي الشيء المدعو به، فمن شرط الداعي أن يكون عالمًا بأنه لا قادر على حاجته إلاَّ الله تعالى، وأن الوسائط في قبضته ومسخرة بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة، وحضور قلب، وأن يكون مجتنبًا لأكل الحرام، وألاَّ يمل من الدعاء فيتركه، ويقول: قد دعوت فلم يستجب لي، كما قال في الحديث، ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعًا... واستدامة الإلحاح في الدعاء، فإن الله يحب الملحين عليه في الدعاء، وكيف لا؟ والدعاء مخ العبادة، وخلاصة العبودية، والقائل قد دعوت فلم أر يستجاب لي، ويترك. قانطًا من رحمة الله وفي صورة الممتن بدعائه على ربه، ثم إنه جاهل بالإجابة، فإنه يظنها إسعافه في عين ما طلب فقد يعلم الله تعالى: أن عين ما طلب مفسدة فيصرفه عنها، فتكون إجابته في الصرف، وقد يعلم الله أن تأخيره إلى وقت آخر أصلح للداعي، وقد يؤخره؛ لأنه سبحانه يحب استماع دعائه ودوام تضرعه، فتكثر أجوره، حتى يكون ذلك أعظم وأفضل من عين المدعو به لو قضى له. وقد قال ﷺ: «**ما من داع يدعو إلَّا كان بين إحدى ثلاث: إما أن**

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب (٦٦) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٤١) برقم(٥٩٤).
(٢) المفهم (٧/ ٢٩).

يستجاب له، وإما أن يدخر له، وإما أن يكفر عنه»[١]. ثم بعد هذا كله فإجابة الدعاء ـ وإن وردت في مواضع من الشرع مطلقة ـ فهي مقيدة بمشيئته، كما قال تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾[٢]»[٣].

٢ ـ الخوف والرجاء :

وهما من أنواع العبادة التي أمر الله تعالى بها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[٥].

فالخوف من الله تعالى دليلٌ على كمال المعرفة به سبحانه، إذ كلما كان المسلم بالله أعرف كان له أخوف، والخوف هو أساس التقوى.

قال القرطبي في هذا: «المتقي شرعًا هو الذي يخاف الله تعالى ويجعل بينه وبين عذابه وقاية من طاعته، وحاجزاً عن مخالفته، فإن أصل التقوى الخوف، والخوف إنما ينشأ عن المعرفة بجلال الله وعظمته وعظيم سلطانه وعقابه»[٦].

والرجاء لابد أن يكون مع إحسان العمل، أما الرجاء مع ترك العمل فهو عجز، قال القرطبي موضحًا هذا المعنى: «استصحبوا الأعمال الصالحة والآداب الحسنة التي يرتجي العامل لها قبولها، ويحقق ظنه برحمة ربه عند فعلها، فإن الله قريب من المحسنين، وعقابه مخوف على العصاة والمذنبين، وقد قلنا: إن حسن الظن بغير عمل غرة، كما قال ﷺ: **«الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله»**[٧] وهذا إنما يكون في حالة الصحة والقوة على العمل، وأما في

---

(١) سبق تخريجه ص(١٨٩).
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤١.
(٣) المفهم (٧/ ٦٢، ٦٣).
(٤) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٥) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.
(٦) المفهم (٦/ ٥٣٧).
(٧) رواه أحمد في مسنده(٤/ ١٢٤) والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٢٥) وقال هذا حديث حسن وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير ص(٦٢٥) =

حال حضور الموت، فليس ذلك الوقت وقتًا يقدر فيه على استئناف غير الفكر في سعة رحمة الله تعالى وعظيم فضله، وأنه لا يتعاظمه ذنب يغفره، وأنه الكريم الحليم الغفور الشكور»[(١)].

وهذا الذي ذكره القرطبي هو الذي عليه عامة سلف الأمة، إذ العبد لابد له من الخوف والرجاء، فيستقيم سلوكه على أمر الله على هذين المسلكين، ويعالج نفسه بالخوف أحيانًا وبالرجاء أحيانًا، حسب ما يصلح به حاله.

قال الإمام أحمد: «ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحدًا»[(٢)] ونقل ابن رجب عن بعض السلف قوله: «من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجىء، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد مؤمن»[(٣)].

ولذا قال القرطبي عند قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[(٤)]: «هكذا حال العارف بالله تعالى بين الرجاء والخوف، لابد منها للمؤمن، ولذا قال بعض السلف: لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا، إلاَّ أن الخوف أولى بالمسيئ، لكن بحيث لا يقنط من رحمة الله، والرجاء أولى بالمحسن لكن بحيث لا يفتر فيكسل عن الاجتهاد في عبادة الله»[(٥)].

٣ ـ التوكل:

التوكل على الله من أصول العبادة التي لا يتم توحيد العبد لله إلاَّ بها، وقد جاءت النصوص في الدعوة إليه والحث عليه. قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[(٦)]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[(٧)]، وقال

= برقم(٤٣٠٥).

(١) المفهم (٧/ ١٤٣).

(٢) مسائل الإمام أحمد لابن هانيء(٢/ ١٧٨).

(٣) التخويف من النار لابن رجب (١٧).

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥٧.

(٥) المفهم (٧/ ٣٥٨).

(٦) سورة هود، الآية ١٢٣.

(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.

تعالى في وصف المؤمنين الصادقين: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[١].

وقد عرَّف القرطبي ـ رحمه الله ـ التوكل، وبيَّن من يستحق أن يطلق عليه هذا الوصف فقال: «التوكل لغة: هو إظهار العجز عن أمر ما، والاعتماد فيه على الغير، والاسم: التكلان يقال منه: اتكلت عليه في أمري وأصله: إوتكلت: قلبت الواو تاءً لانكسار ما قبلها، ثم أبدل منها التاء وأدغمت في تاء الافتعال ويقال: وكَّلته بأمر كذا توكيلاً، والاسم: الوكالة بكسر الواو وفتحها.

واختلف العلماء في التوكل، وفيمن يستحق «اسم المتوكل على الله»، فقالت طائفة من المتصوفة: لا يستحقه إلاَّ من لم يخالط قلبه خوف غير الله من سبع أو غيره، وحتى يترك السعي في طلب الرزق لضمان الله تعالى، وقال عامة الفقهاء: إن التوكل على الله هو الثقة بالله، والإيقان بأن قضاءه ماض، واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لابد، منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدو وإعداد الأسلحة، واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة. . . ثم المتوكلون على حالين:

الحال الأول: حال التمكن في التوكل، فلا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه، ولا يتعاطاها إلاَّ بحكم الأمر.

الحال الثاني: حال غير المتمكن، وهو الذي يقع له الالتفات إلى الأسباب أحيانًا، غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية، والبراهين القطعية»[٢].

وهو وإن ذكر قول غلاة المتصوفة في التوكل الذين يدعون إلى ترك الأخذ بالأسباب، فقد رد عليهم فيما ذهبوا إليه وبين ضلال ما هم عليه فقال: «العمل بالأسباب المعتادة التي يرجى بها دفع مضرة أو جلب منفعة

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٢) المفهم (١/ ٤٦٧/ ٤٦٨).

لا يقدح في التوكل خلافًا لما ذهب إليه جُهَّال المتوكلة»[١].

وبيَّن أن الأخذ بالأسباب ملازم للتوكل على الله، لا ينفك عنه حيث قال: استعمل الحرص والاجتهاد في تحصيل ما تنتفع به في أمر دينك ودنياك التي تستعين بها على صيانة دينك وصيانة عيالك ومكارم أخلاقك، ولا تفرط في طلب ذلك، ولا تتعاجز عنه متكلاً على القدر، فتنسب للتقصير، وتلام على التفريط شرعًا وعادة، ومع إنهاء الاجتهاد نهايته، وإبلاغ الحرص غايته، فلابد من الاستعانة بالله والتوكل عليه، والالتجاء إليه في كل الأمور، فمن سلك هذين الطريقين حصل على خير الدارين»[٢].

ومما يبين أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل ما كان عليه الرسول ﷺ من الأخذ بالأسباب والحزم في جميع الأمور، فقد حمل السلاح، ولبس في الحرب درعين، ومن تتبع سيرته عليه السلام علم منه ذلك علم اليقين، وهو عليه الصلاة والسلام إمام المتوكلين.

وقد بيَّن القرطبي حاله ﷺ من أخذه بالأسباب وتوكله على الله تعالى، فقال في استنباطه لفوائد من غزوة الخندق: «منه جواز التحصن والاحتراز من المكروهات والأخذ بالحزم والعمل في العادات بمقتضاها، وأن ذلك كله غير قادح في التوكل ولا منقص، فقد كان النبي ﷺ على كمال المعرفة بالله، والتوكل عليه، والتسليم لأمره، ومع ذلك فلم يطرح الأسباب ولا مقتضى العادات على مايراه جهال المتزهدين أهل الدعاوي الممخرقين»[٣].

وحث على الاقتداء به عليه الصلاة والسلام فلنا فيه أسوة، حيث قال: «من أهمل شيئًا من الأسباب المعتادة زاعمًا أنه متوكل، فقد غلط، فإن التوكل لا يناقض التحرز، بل: حقيقته لا تتم إلاَّ لمن جمع بين الاجتهاد في العمل على سنة الله، وبين التفويض إلى الله تعالى، كما فعل رسول الله ﷺ»[٤].

---

(١) المفهم (٦/ ١٨٦).
(٢) المفهم (٦/ ٦٨٢).
(٣) المفهم (٣/ ٦٤٥).
(٤) المفهم (٦/ ٥٨).

المبحث الثالث
نواقض التوحيد وقوادحه

وفيه أربعة عشر مطلباً:

المطلب الأول: **الشرك**

المطلب الثاني: **الكفر**

المطلب الثالث: **النفاق**

المطلب الرابع: **الفسق**

المطلب الخامس: **الحلف بغير الله**

المطلب السادس: **الطيرة**

المطلب السابع: **التبرك**

المطلب الثامن: **السحر**

المطلب التاسع: **النشرة**

المطلب العاشر: **الرقى والتمائم**

المطلب الحادي عشر: **التنجيم**

المطلب الثاني عشر: **الكهانة**

المطلب الثالث عشر: **ما جاء في كراهية بعض الألفاظ**

المطلب الرابع عشر: **نسبة الحوادث إلى الدهر**

المطلب الأول : الشرك :

الشرك بالله تعالى هو أكبر الكبائر، وأعظم الظلم؛ لأنه صرفٌ للعبادة والتألُّه لغير مستحقها.

قال القرطبي: «اتخاذ الإنسان إلهًا غير خالقه المنعم عليه مع علمه بأن ذلك المتخذ ليس هو الذي خلقه، ولا الذي أنعم عليه، من أقبح القبائح، وأعظم الجهالات، وعلى هذا فذلك أكبر الكبائر وأعظم العظائم»(١).

وقال أيضًا: «الشرك هو أعظم الظلم، إذ المشرك اعتقد الإلهية لغير مستحقها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾(٢)»(٣).

وبيَّن معنى الشرك فقال: «معناه بحكم أصل الوضع ألا يتخذ معه شريكًا في الألوهية، ولا في الخلق، لكن هذا القول قد صار بحكم العرف عبارة عن الإيمان الشرعي، ألا ترى أن من وحَّد الله تعالى ولم يؤمن بالنبي ﷺ لم ينفعه إيمانه بالله تعالى، ولا توحيده، وكان من الكافرين بالإجماع القطعي؟»(٤).

لكن لا مانع أن يبقى الشرك على أصله، وهو اتخاذ شريك مع الله تعالى، وتكون هذه الصورة التي ذكرها القرطبي وأمثالها من باب الكفر؛ لأن الكفر أعم من الشرك.

فالكفر يدخل تحته الشرك، وجميع الأعمال المناقضة للإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾(٥) حيث فرَّق ـ سبحانه وتعالى ـ بين المشركين وبين الكفار من أهل الكتاب؛ لأن كفر هؤلاء لم يكن من باب الشرك. لكن قد يرد الشرك ويراد به الكفر، كما

---

(١) المفهم (١/ ٢٨٠).
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.
(٣) المفهم (١/ ٣٣٤).
(٤) المفهم (١/ ٢٩١).
(٥) سورة البينة، الآية: ٦.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾[(١)].

قال الحافظ ابن حجر: «المراد بالشرك في هذه الآية الكفر؛ لأن من جحد نبوة محمد ﷺ مثلاً كان كافرًا، ولو لم يجعل مع الله إلهًا آخر، والمغفرة منتفية عنه بلا خلاف»[(٢)].

أنواع الشرك:

ينقسم الشرك بإطلاقه إلى قسمين:

الأول: الشرك الأكبر، وهو جعل مع الله سبحانه شريكًا في الألوهية كفعل الجاهلية، أو صرف العبادة أو بعض أنواعها لغير الله تعالى، أو إشراك معه غيره فيها، وهذا شركٌ أكبر مخرج من الملة.

الثاني: الشرك الأصغر، وهو من كبائر الذنوب، لكنه لا يخرج من الملة، وهو شرك ظاهر يتمثل في بعض الأفعال والألفاظ الشركية، كالحلف بغير الله وغيرها، ومنه الرياء ويسمى: بالشرك الخفي.

قال القرطبي: «أصل الشرك المحرم: اعتقاد شريك لله تعالى في إلهيته، وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية، ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل؛ وهو قول من قال: إن موجودًا ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يعتقد كونه إلهًا، ويلي هذا في الرتبة الإشراك في العبادة، وهو الرياء، وهو أن يفعل شيئًا من العبادات التي أمر الله تعالى بفعلها له لغير الله. . . وهو مبطل للأعمال، لهذا أشار بقوله: «**من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركتُه وشرِيكَهُ**»[(٣)]. وهذا هو المسمى بالرياء، وهو على الجملة مبطل للأعمال»[(٤)].

وقال في موضع آخر: «المخلص في عباداته هو الذي يخلصها من شوائب الشرك والرياء، وذلك لا يتأتى له إلاَّ بأن يكون الباعث له على

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) فتح الباري (١/ ٨٥).

(٣) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله ح(٢٩٨٥) (١٨/ ٣٢٦).

(٤) المفهم (٦/ ٦١٥).

عملها قصد التقرب إلى الله تعالى، وابتغاء ماعنده، فأما إذا كان الباعث عليها غير ذلك من أعراض الدنيا، فلا يكون عبادة، بل يكون مصيبة موبقة لصاحبها، فإماكفر، وهو الشرك الأكبر، وإما رياء وهو: الشرك الأصغر»(١).

من وسائل الشرك :

لقد جاء الإسلام بالتوحيد الخالص والنهي عن الشرك والتحذير منه، وسد جميع الطرق والوسائل المؤدية إليه وحرَّمها. ومن ذلك نهيه عن الصور وتعظيمها، والبناء على القبور وتشييدها؛ لأن ذلك يؤدي إلى الشرك بالله تعالى، حيث يكون سببًا لعبادتها، كما حدث ذلك في الأمم السابقة، لذا حذَّر ﷺ من ذلك، وشدَّد في النهي، فعن عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة ـ فيها تصاوير ـ لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك الصُّور أولئك شرارُ الخلق عند الله يوم القيامة**»(٢). قال القرطبي: «إنما فعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصور، ويتذكروا بها أحوالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم، ويعبدون الله تعالى عند قبورهم، فمضت لهم بذلك أزمان، ثم إنهم خلف من بعدهم خلف جهلوا أغراضهم ووسوس لهم الشيطان: أن آباءهم وأجدادهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فعبدوها. فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، وشدَّد النكير والوعيد على فعل ذلك، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال: «**اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، فلا تتخذوا القبور مساجد**»(٣) أي أنهاكم عن ذلك، وقال: «**لعن الله اليهود والنصارى، اتَّخذوا**

---

(١) المفهم (٣/ ٧٤٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ح(٤٢٧) (١/ ٦٢٤)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها ح(٥٢٨) (٥/ ١٤).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢٤٦) ومالك في الموطأ كتاب قصر الصلاة في السفر باب جامع الصلاة. وقال الألباني: رواه أحمد وابن سعد وأبو يعلى وأبو نعيم بسند صحيح وله شاهد مرسل رواه عبدالرزاق في «المصنف» وكذا ابن أبي شيبة عن زيد بن أسلم وإسناده قوي. انظر: تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد للألباني ص(٢٥).

قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»(١) وقال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**»(٢) ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر رسول الله ﷺ، فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة ـ إذ كان مستقبل المصلين ـ فتتصور الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلث من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره، ولهذا الذي ذكرناه كله قالت عائشة: «**لولا ذلك لأبرز قبره**»(٣)(٤).

المطلب الثاني : الكفر :

تعريفه لغة وشرعًا:

قال القرطبي في تعريف الكفر: «أصل الكفر التغطية والستر، ومنه سمي الزارع: كافرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾(٥) أي الزُّراع. ومنه قول الشاعر:

... ... في ليلةٍ كَفَرَ النجوم غمامها(٦)

أي: ستر وغطى، والغمام: السحاب.

وأما الكفر الواقع في الشرع: فهو جحد المعلوم منه ضرورة شرعية، وهذا هو الذي جرى به العرف الشرعي»(٧).

---

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل ح(٣٤٥٣) (٦/ ٥٧٠) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها ح(٥٣١) (٥/ ١٦).

(٢) سبق تخريجه ص(٢٢٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته ح(٤٤٤١) (٧/ ٧٤٦).

(٤) المفهم (٢/ ١٢٧).

(٥) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٦) البيت للشاعر المخضرم لبيد بن ربيعة وهذا عجز البيت، وصدره:

* يعلو طريقة متنها متواتر *

انظر: ديوان لبيد بن ربيعة ص (١٧٢).

(٧) المفهم (١/ ٢٥٢).

لكن هذا التعريف الذي قاله القرطبي لا يتناول جميع معاني الكفر التي جاءت في الشرع؛ لأن الكفر في الشرع أعم من الجحود، ولذا فإبليس من الكافرين، وهو لم يجحد أمر الله ولم ينكره، بل قابله بالرفض والاستكبار(١).

أنواع الكفر:

الكفر كفران. كفر مخرج من الملة موجب للخلود في النار، وكفر لا يخرج من الملة، وهو كفر النعمة، وصاحبه مستحق للوعيد، دون الخلود في النار، لما ورد في بعض النصوص من إطلاق الكفر على بعض المعاصي وهو مقصود العلماء بقوله: كفر دون كفر. قال القرطبي بعد ذكره للشرك المخرج من الملة: «وقد جاء الكفر بمعنى جحد المنعم وترك الشكر على النعم، وترك القيام بالحقوق، ومنه قوله ﷺ للنساء: «**يكفرن الإحسان ويكفرن العشير**»(٢) أي يجحدن حقوق الأزواج وإحسانهم، ومن هنا صح أن يُقال: كفر دون كفر»(٣).

وفي مثال لذلك قال عمن انتسب لغير أبيه، وما جاء في الحديث من تكفيره: «لا شك أن هذا محرم معلوم التحريم، فمن فعل ذلك مستحلاً فهو كافر حقيقة، فيبقى الحديث على ظاهره، وأما إن كان غير مستحل فيكون الكفر الذي في الحديث محمولاً على كفران النعم والحقوق، فإنه قابل الإحسان بالإساءة، ومن كان كذلك صدق عليه اسم: الكافر، وعلى فعله أنه كفر لغة وشرعًا»(٤).

المطلب الثالث: النفاق:

النفاق لغة: هو مخالفة الباطن للظاهر، وهو من النافقاء، وهو جحر اليربوع(٥). وأُطلق على من يظهر الإسلام ويُبْطِن الكفر.

---

(١) انظر مدراج السالكين لابن القيم (١/ ٣٣٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب كفران العشير وكفر دون كفر ح(٢٩) (١/ ١٠٤)، ومسلم في كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار ح(٩٠٧) (٦/ ٤٦٥).

(٣) المفهم (١/ ٢٥٣).

(٤) المفهم (١/ ٢٥٤) وانظر: أيضًا (١/ ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩).

(٥) لسان العرب (١٠/ ٣٥٨) مادة نفق.

وقد بيَّن المازري سبب تسمية المنافق بهذا الاسم نقلاً عن ابن الأنباري[١] فقال: قال ابن الأنباري في تسمية المنافق منافقًا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يسمى بذلك؛ لأنه يستر كفره، فأشبه الداخل للنفق وهو السرب يستتر فيه.

والثاني: أنه شبه باليربوع الذي له جحر يقال له: النافقاء، وآخر يقال له: القاصعاء، فإذا طُلِبَ من القاصعاء خرج من النافقاء، وكذلك المنافق؛ لأنه يخرج من الإيمان من غير الوجه الذي يدخل فيه.

الثالث: أنه شبه باليربوع أيضًا، ولكن من جهة أن اليربوع يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهرها أرق التراب فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج فظاهره جحره تراب على وجه الأرض وباطنه حفر، فكذلك المنافق ظاهره الإيمان وباطنه الكفر[٢].

وقد تابعه القرطبي على ذلك فنقل هذا القول في سبب التسمية[٣].

أنواع النفاق:

النفاق على نوعين :

١ـ نفاق الاعتقاد وهو: إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وهذا لا شك في كفر صاحبه.

٢ـ نفاق العمل، وهو الاتصاف ببعض صفات المنافقين، كما قال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث ـ وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ـ: إذا حدَّث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان**»[٤].

وقال القرطبي: «ظاهر هذا الحديث أن من كانت هذه الخصال

---

(١) محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم الشيباني المعروف بابن الأنباري من الكُتَّاب والوزراء توفي سنة(٥٥٨هـ). معجم المؤلفين (٣/ ٤٢١).

(٢) المعلم (١/ ١٩٨).

(٣) المفهم (١/ ٢٤٩).

(٤) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب علامة النفاق ح(٣٣) (١/ ١١١) ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق ح(٥٩) (٢/ ٤٠٧).

الثلاث[١] فيه خرج عن الإيمان، وصار في النفاق الذي هو الكفر الذي قال فيه مالك: النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ هو الزندقة عندنا اليوم، وليس الأمر على مقتضى هذا الظاهر... ولما استحال حمل هذا الحديث على ظاهره على مذهب أهل السنة اختلف العلماء فيه على أقوال:

أحدها: أن هذا النفاق هو نفاق العمل الذي سأل عنه عمر حذيفة لما قال له: هل تعلم فيَّ شيئًا من النفاق؟ أي: من صفات المنافقين الفعلية، ووجه هذا: أن من كانت فيه هذه الخصال المذكورة كان ساترًا لها، ومظهرًا لنقائضها، فصدق عليه اسم منافق.

وثانيها: أنه محمول على من غلبت عليه هذه الخصال، واتخذها عادة، ولم يبال بها تهاونًا واستخفافًا بأمرها، فأيُّ من كان هكذا كان فاسد الاعتقاد غالبًا فيكون منافقًا خالصًا.

وثالثها: أن تلك الخصال كانت علامة المنافقين في زمانه، فإن أصحاب النبي ﷺ كانوا مجتنبين لتلك الخصال، بحيث لا تقع منهم، ولا تعرف فيما بينهم، وبهذا قال ابن عباس وابن عمر وروي عنهما في ذلك حديث وهما أنهما أتيا النبي ﷺ فسألاه عن هذا الحديث فضحك النبي ﷺ وقال: **«ما لكم ولهن إنماخصصت بهن المنافقين أنتم من ذلك براء»**[٢]

---

(١) قال القرطبي: كونه عليه الصلاة والسلام ذكر في حديث أبي هريرة أن علامة المنافق ثلاث، وفي حديث ابن عمر أنها أربع، يحتمل أن يكون ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام استجد من العلم بخصال المنافقين مالم يكن عنده فإما بالوحي وإما بالمشاهدة لتلك منهم وعلى مجموع الروايتين تكون خصالهم خمسًا: الكذب والغدر والإخلاف والخيانة، والفجور في الخصومة. ولا شك في أن للمنافقين خصالاً أخرى مذمومة كما وصفهم الله تعالى حيث قال: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢] فيحمل أن يقال: إنما خصَّت تلك الخصال الخمس بالذكر لأنها أظهر عليهم من غيرها عند مخالطتهم للمسلمين، أو لأنها هي التي يضرون بها المسلمين ويقصدون بها مفسدتهم دون غيرها من صفاتهم والله أعلم. المفهم(١/ ٢٥٩).

(٢) لم أجده مع طول البحث والتحري ثم وجدته عند القاضي عياض في إكمال المعلم وقد قال فيه الدكتور: يحيى إسماعيل محقق المعلم: لم أجده وليس عليه أنوار النبوة. إكمال المعلم (١/ ٣١٥).

=

وذكر الحديث بطوله القاضي عياض قال: وإلى هذا صار كثير من التابعين والأئمة»[١].

وقال المازري في شرح هذا الحديث: «قد توجد هذه الأوصاف الآن فيمن لا يطلق عليه اسم النفاق، فيحتمل أن يكون الحديث محمولاً على زمنه ﷺ، وكان ذلك علامة للمنافقين في أهل زمانه، ولا شك أن أصحابه كانوا مبرئين من هذه النقائص مطهرين منها، وإنما كانت تظهر في زمانه من أهل النفاق، أو يكون ﷺ أراد بذلك من غلب عليه فعل هذه واتخذها عادة تهاونًا بالديانة أو يكون أراد النفاق اللغوي الذي هو إظهار خلاف المضمر، وإذا تأملت هذه الأوصاف وجدت فيها معنى ذلك؛ لأن الكاذب يظهر إليك أنه صدق ويبطن خلافه، والخصم يظهر أنه أنصف ويبطن الفجور والواعد يظهر أنه سيفعل وينكشف الباطن بخلافه»[٢].

الحكم في المنافق:

لا شك أن حكم المنافق الخالص في الآخرة الخلود في النار، بل هو في الدرك الأسفل منها، كما جاءت بذلك الآيات والأحاديث. قال القرطبي: «المنافقون يحكم لهم في الدنيا بأحكام المسلمين، وهم عند الله من أسوأ الكافرين»[٣].

أما من ظهر نفاقه وبان هل يقتل أم لا؟

قال القرطبي في ذلك: «المنافقون الذين علم نفاقهم في عهد رسول الله ﷺ كانوا مستحقين للقتل، لكن امتنع النبي ﷺ من ذلك لئلا يكون قتلهم منفرًا لغيرهم عن الدخول في الإسلام؛ لأن العرب كانوا أهل أنفة وكبر، بحيث لو قتل النبي ﷺ هؤلاء المنافقين لنفر من بعد عنهم، فيمتنع

= وقال الدكتور حسين شواط في تحقيقه لكتاب الإيمان من إكمال المعلم: لم أقف على هذا الحديث برغم طول البحث في المظان. كتاب الإيمان من إكمال المعلم (١/ ٣٤٤) هامش (٤).

(١) المعلم (١/ ١٩٧).

(٢) المعلم (١/ ١٩٧).

(٣) المفهم (١/ ١٨٩).

من الدخول في الدين، وقالوا: هو يقتل أصحابه، ولغضب من قرب من هؤلاء المنافقين، فتهيج الحروب، وتكثر الفتن، ويمتنع من الدخول في الدين، وهو نقيض المقصود، فعفا النبي ﷺ عنهم، ورفق بهم، وصبر على جفائهم وأذاهم، وأحسن إليهم حتى انشرح صدر من أراد الله هدايته فرسخ في قلبه الإيمان، وتبين له الحق اليقين، وهلك عن بينة من أراد الله هلاكه، وكان من الخاسرين، ثم أقام النبي ﷺ مستصحبًا لذلك إلى أن توفاه الله تعالى، فذهب النفاق وحكمه؛ لأنه ارتفع مسماه واسمه، ولذلك قال مالك: «النفاق في عهد رسول الله ﷺ هو الزندقة عندنا اليوم» ويظهر من مذهبه أن ذلك الحكم منسوخ بقوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ . . .﴾ إلى قوله: ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١﴾[1] وبقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[2] فقد سوّى بينهما في الأمر بالجهاد، وجهاد الكفار قتالهم وقتلهم، فليكن جهاد المنافقين كذلك. . . وقد ذهب غير واحد من أئمتنا إلى أن المنافقين يعفى عنهم ما لم يظهروا نفاقهم، فإن أظهروه قتلوا، وهذا أيضًا يخالف ماجرى في عهد النبي ﷺ، فإن منهم من أظهر نفاقه واشتهر عنه حتى عرف به، والله أعلم بنفاقه، ومع ذلك لم يقتلوا. . . وقد وضح من هذا الحديث[3] إبطال قول من قال: إن النبي ﷺ لم يقتل المنافقين لأنه لم تقم بينة معتبرة بنفاقهم، إذ قد نص فيه على المانع من ذلك وهو غير ما قالوه»[4].

المطلب الرابع: الفسق:

قال القرطبي في تعريف الفسق لغة: «الفاسق في أصل اللغة هو الخارج مطلقًا، والفسق والفسوق: الخروج، ومنه قولهم: فسقت الرطبة،

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٠،٦١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٣.
(٣) وهو قوله ﷺ لعمر لما قال: عن عبد الله بن أبي: دعني أضرب عنق هذا المنافق«**دعه لايتحدث الناس أنَّ محمدًا يقتُلُ أصحابه**» رواه البخاري في كتاب المناقب، باب ماينهى من دعوى الجاهلية ح(٣٥١٨) (٦/ ٦٣١)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا ح(٢٥٨٤) (١٦/ ٣٧٣).
(٤) المفهم (٦/ ٥٦١).

إذا خرجت من قشرها الأعلى، ومنه سميت الفأرة: فويسقة؛ لأنها تخرج من جحرها للفساد»[(١)].

وينقسم الفسق في الشرع إلى قسمين:

الأول: فسق مخرج من الملة موجب لصاحبه الخلود في النار، كما قال تعالى عن إبليس: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[(٢)] وسمى سبحانه أصحاب النار فسَّاقًا، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾[(٣)].

الثاني: فسق لا يخرج من الملة، وهو الوقوع في المعاصي، والتجرؤ عليها، حيث سمى الله تعالى الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بالشهداء بأنهم فاسقون، وهم لم يخرجوا من الإسلام بذلك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾[(٤)].

قال القرطبي مبينًا الفسق بنوعيه: هو في الشرع خروج مذموم بحسب المخروج منه، فإن كان إيمانًا فذلك الفسق كفرًا، وإن كان غير إيمان فذلك الفسق معصية»[(٥)].

المطلب الخامس: الحلف بغير الله:

إن من الأعمال الشركية الحلف بغير الله تعالى لما فيه من تعظيم للمحلوف به. والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده فلا يحلف إلاَّ بالله وذاته وصفاته[(٦)]. قال ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[(٧)].

وقد جعل القرطبي الحلف بغير الله كفرًا أو كبيرة من كبائر الذنوب،

---

(١) المفهم (١/ ١٠٧).
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٢٠.
(٤) سورة النور، الآية: ٤.
(٥) المفهم (١/ ١٠٧).
(٦) انظر: نيل الأوطار للشوكاني (٩/ ١١٤).
(٧) أخرجه أحمد في المسند(١/ ١٢٥) والترمذي في أبواب النذور والإيمان، باب(٨)، والحاكم في المستدرك(١/ ٦٥)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/ ٦٩) برقم(٢٠٤٢).

وذلك حسب قصد الحالف وذلك عند شرحه لقوله ﷺ: «**من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذبًا فهو كما قال ـ وفي رواية: متعمدًا ـ**»[١].

حيث قال: «قوله: «كاذبًا متعمدًا» يحتمل أن يريد به النبي ﷺ من كان معتقدًا لتعظيم تلك الملة المغايرة لملة الإسلام، وحينئذ يكون كافرًا حقيقة... وأما إن كان الحالف بذلك غير معتقد لذلك فهو آثم مرتكب كبيرة، إذ قد نسبه في قوله لمن يعظم تلك الملة ويعتقدها فغلظ عليه الوعيد بأن صيَّره كواحد منهم مبالغة في الردع والزجر»[٢].

وقد نهى الرسول ﷺ عن الحلف بالآباء إذ المقصود تعظيمهم بذلك، وهو نهيٌ عن الحلف بالآباء وغيرهم إذ الحلف لا يكون إلاَّ بالله فهو المستحق للتعظيم، قال ﷺ: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم**»[٣] قال القرطبي: «إنما نهى النبي ﷺ عن الحلف بالآباء لما فيه من تعظيمهم بصيغ الأيمان؛ لأن العادة جارية بأن الحالف منَّا إنما يحلف بأعظم ما يعتقده كما بيناه وإذا كان ذلك: فلا أعظم عند المؤمن من الله تعالى فينبغي ألا يحلف بغيره، فإذا حلف بغير الله فقد عظَّم ذلك الغير بمثل ما عظَّم به الله تعالى، وذلك ممنوع منه، وهذا الذي ذكرناه في الآباء جارٍ في كل محلوف به غير الله تعالى وإنما جرى ذكر الآباء هنا؛ لأنه هو السبب الذي أثار الحديث حين سمع النبي ﷺ عمر يحلف بأبيه، وقد شهد لهذا المعنى قوله: «**من كان حالفًا فلا يحلف إلاَّ بالله**» وهذا حصر، وعلى ما قررناه فظاهر النهي التحريم، ثم هذا النهي وإن كان ظاهره التحريم فيتحقق فيما إذا حلف بملة غير الإسلام، أو بشيء من المعبودات دون الله تعالى، أو ما كانت الجاهلية

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب من حلف بملة سوى ملة الإسلام ح(٦٦٥٢) (١١/٥٤٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل النفس ح(١١٠) (٢/٤٧٩).

(٢) المفهم (١/٣١٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم ح(٦٦٤٦)، (١١/٥٣٨) ومسلم في كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله ح(١٦٤٦) (١١/١١٦) ولفظه «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت» وفي رواية عند مسلم «فلا يحلف إلاَّ بالله».

تحلف به كالدمى والدماء والأنصاب، فهذا لا يشك في تحريمه، وأما الحلف بالآباء والأشراف ورؤوس السلاطين وحياتهم ونعمهم وما شاكل ذلك، فظاهر هذا الحديث يتناولهم بحكم عمومه ولا ينبغي أن يختلف في تحريمه وأما ما كان معظمًا في الشرع مثل: النبي ﷺ والكعبة والعرش والكرسي وحرمة الصالحين، فأصحابنا يطلقون على الحلف بها الكراهية وظاهر الحديث وما قدمناه من النظر في المعنى يقتضي التحريم»[١].

وما ذهب إليه القرطبي ـ رحمه الله ـ من تحريم ذلك كله والاقتصار على الحلف بالله تعالى هو الصحيح من كلام أهل العلم.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: والصواب الذي عليه عامة علماء المسلمين سلفهم وخلفهم أنه لا يحلف بمخلوق لا نبي ولا غير نبي، ولا مَلَكٍ من الملائكة، ولا مَلِكٍ من الملوك، ولا شيخ من الشيوخ، والنهي عن ذلك نهي تحريم عند أكثرهم، كمذهب أبي حنيفة وغيره، وهو أحد القولين في مذهب أحمد»[٢].

وأمَّا الحلف بالألفاظ المبهمة المراد بها اسم الله تعالى كقوله: «والذي نفسي بيده» وما شابهها من الألفاظ فهو جائز. قال القرطبي عنه: «هو قسم بالله تعالى، أي: والذي هو مالك نفسي، أو قادر عليها، ففيه دليل: على أن الحلف بالألفاظ المبهمة والمراد بها: اسم الله تعالى يمين جائزة حكمها حكم الأسماء الصريحة»[٣].

لكن من حلف بغير الله تعالى بالآباء، أو الأصنام، أو غيرها، فهل عليه كفارة في ذلك، قال بذلك بعض أهل العلم، وقد بين القرطبي رأيه في هذه المسألة، ورجَّح عدم الكفارة فقال: قد تقرر أن اليمين بذلك ـ أي الطواغيت والآباء ـ محرم ومع ذلك فلا كفارة فيه، عند الجمهور لأجل الحلف بها، ولا لأجل الحنث فيها، أما الأول فلأن النبي ﷺ قد قال: «من

---

(١) المفهم (٤/ ٦٢١).
(٢) الفتاوى (٢٧/ ٣٤٩).
(٣) المفهم (٤/ ١٦٠).

قال: **والللات والعزى فليقل: لا إله إلاَّ الله**»(١) ولم يذكر كفارة ولو كانت لوجب تبيينها لتعين الحاجة لذلك وأما الثاني فليست بيمين منعقدة ولا مشروعة فيلزم بالحنث فيها الكفارة»(٢).

فالكفارة إذا هي قول لا إله إلاَّ الله، وقد كان الحلف بها يجري على ألسنتهم من غير قصد، وذلك لما نشأوا عليه من تعظيم الأصنام والحلف بها.

قال القرطبي: «ولما نشأ القوم على تعظيم تلك الأصنام وعلى الحلف بها، وأنعم الله عليهم بالإسلام بقيت تلك الأسماء تجري على ألسنتهم من غير قصد للحلف بها، فأمر النبي ﷺ من نطق بذلك أن يقول بعده: لا إله إلاَّ الله تكفيرًا لتلك اللفظة وتذكيرًا من الغفلة وإتمامًا للنعمة»(٣).

وإذا تبين حرمة الحلف بغير الله تعالى مطلقًا فقد يستشكل ما ورد من قوله ﷺ: «**أفلح وأبيه إن صدق**»(٤).

وما ورد في القرآن من القسم بغير الله تعالى.

وقد أورد القرطبي هذا الاستشكال وأجاب عليه فقال: فإن قيل كيف يحكم بتحريم الحلف بالآباء والنبي ﷺ قد حلف بذلك لما قال: «**أفلح وأبيه إن صدق**» وكيف يحكم بتحريم الحلف بغير الله، وقد أقسم الله تعالى بغيره فقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾، ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ﴾، ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ﴾، وغير ذلك مما في كتاب الله تعالى من ذلك؟(٥).

وقد أجاب عن ذلك فقال: قوله: «وأبيه» الرواية الصحيحة التي لا

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير باب ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ ح(٤٨٦٠) (٨/٤٧٨)، ومسلم في كتاب الأيمان، باب من حلف باللات والعزى فليقل لاإله إلاَّ الله ح(١٦٤٧) (١١/١١٧).

(٢) المفهم (٤/ ٦٢٤).

(٣) المفهم (٤/ ٦٢٦).

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان، بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ح(١١) (١/ ٢٨٣).

(٥) المفهم (٤/ ٦٢٢).

يعرف غيرها، هكذا بصيغة القسم بالأب، وقال بعضهم: إنما هي «والله» وصحفت بأن قصرت اللامان فالتبست بأبيه، وهذا لا يلتفت إليه؛ لأنه تقدير يخرم الثقة برواية الثقات الأثبات، وإنما صار هذا القائل إلى هذا الاحتمال لما عارضه عنده من نهيه ﷺ عن الحلف بالآباء حيث قال: «**لا تحلفوا بأبائكم من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»[(١)].

وينفصل عن هذا من وجهين:

أحدهما: أن يقال: إن هذا كان قبل النهي عن ذلك.

والثاني: أن يكون ذلك جرى على اللسان بحكم السبق من غير قصد للحلف به كما جرى منه: تربت يمينك، وعَقْرى حلقى[(٢)] وهذه عادة عربية بشرية لا مؤاخذة عليها ولا ذم يتعلق بها[(٣)].

وأما عن قسم الله تعالى بتلك الأمور من وجهين:

أحدهما: أن المقسم به محذوف تقديره: ورب الضحى ورب الشمس ونحو ذلك، قاله أكثر أئمة المعاني.

وثانيهما: أن الله تعالى يقسم بما يريد، كما يفعل ما يريد. إذ لا حكم عليه ولا حاكم فوقه، ونحن المحكوم عليهم، وقد أبلغنا حكمه على لسان نبيه ﷺ: «**من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**» و«**من كان حالفًا فلا يحلف إلَّا بالله**» فيجب الانقياد والامتثال لحكم ذي العزة والجلال[(٤)].

والمازري قد قرَّر تحريم الحلف بغير الله تعالى، وأجاب عن الاستشكال الذي سبق ذكره وذلك عند تعليقه على قوله ﷺ: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم**»، حيث قال: «هذا لئلا يشرك في التعظيم بالقسم غير الله سبحانه، وقد قال ابن عباس: لأن أحلف بالله فآثم أحب إليَّ من أن

---

(١) سبق تخريجه ص(٢٣٦).
(٢) عقرى: أي عقرها الله وأصابها بعقر في جسدها و«حلقى» أي: أصابها وجع في حلقها وهو دعاء يجري على لسان العرب ولا يعنونه.
(٣) المفهم (١/ ١٦٠).
(٤) المفهم (٤/ ٦٢٢).

أضاهي، فقيل معناه: الحلف بغير الله، وقيل معناه: الخديعة، يرى أنه حلف وما حلف، وقد قال ابن عباس أيضًا: أن أحلف بالله مائة مرة فآثم خير من أن أحلف بغيره فأبر. ولهذا ينهى عن اليمين بسائر المخلوقات، ولا يعترض على هذا بقوله ﷺ: «**أفلح وأبيه إن صدق**» لأنه لا يراد بها القسم، وإنما هذا قولٌ جارٍ على ألسنتهم... وقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ (قيل معناه: ورب التين والزيتون) أو يكون المراد به التنبيه على ما فيها من العجائب والمنة بهما عليهم، ولا يراد بهما القسم، ولو سلَّمنا أن المراد بهما القسم من غير حذف وإضمار لم يبعد أن يكون الباري سبحانه يقسم بهما ويمنعنا من القسم بهما، وتعظيم الباري جلت قدرته للأشياء بخلاف تعظيمنا لها؛ لأن كل حق بالإضافة إلى حقه سبحانه حقير، وكل عظيم عند الإضافة إليه هين... وإنما تعظيمه لبعض الأمور تنبيه لنا على قدرها عنده أو تعبد لنا بأن نعظمها فلا يقاس هذا على هذا»(١).

المطلب السادس : الطيرة :

الطيرة: مصدر طار يطير طيرة وطيرانًا. وأصلها: أن العرب كانوا إذا خرج الواحد منهم في حاجة نظر إلى أول طائر يراه، فإن طار عن يمينه تشاءم به، وامتنع عن المضي في تلك الحاجة، وإن طار عن يساره تيمن به، ومضى في حاجته.

وأصل هذا: أن الرامي للطير إنما يصيب ما كان عن يساره ويخيبه ما كان عن يمينه، فسمي التشاؤم: تطيرًا بذلك(٢). وحاصل الطيرة: أن يسمع الإنسان قولاً أو يرى أمرًا، يخاف منه ألاَّ يحصل له غرضه الذي قصد تحصيله(٣).

وقال المازري في تعريف الطيرة: «الطيرة مأخوذ مما كانوا يعتادونه في الطير ويعتقدونه في البوارح والسوانح، وكان لهم في التشاؤم والتيامن طريقة معروفة، وقيل منها أخذ اسم الطيرة... وقال بعضهم: الطيرة أخذ

(١) المعلم (٢/ ٢٤٠).
(٢) المفهم (٢/ ١٤٠).
(٣) المفهم (٥/ ٦٢٦).

المعاني من أمور غير محسوسة ولا معقولة، ولا معنى يشعر العقل بما يتوقع من ذلك، فلهذا فارقت الفأل وإنها لا تقع إلاَّ على توقع أمر مكروه»[١].

وقد جاء النهي عن الطيرة لما فيها من نسبة أفعال الله سبحانه إلى شيء من خلقه، ولما يؤدي إلى الاعتقاد بأن لتلك المخلوقات تأثيرًا في قضاء الله وقدره. فقد قال ﷺ: «**الطيرةُ شرك، وما منا إلَّا، ولكن يذهبه الله بالتوكل**»[٢].

قال القرطبي: «وإنما كان ﷺ يكره الطيرة؛ لأنها من أعمال الشرك؛ ولأنها تجلب ظن السوء بالله تعالى، كما قد روى أبوداود عن عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «**الطيرة شرك ـ ثلاثًا ـ وما منا إلَّا، ولكن الله يذهبه بالتوكل**» أي: من اعتقد في الطيرة ما كانت الجاهلية تعتقده فيها فقد أشرك مع الله تعالى خالقًا آخر، ومن لم يعتقد ذلك فقد تشبه بأهل الشرك»[٣].

هذا إذا صدت الإنسان عن حاجته كما قال ﷺ: «**من ردَّته الطيرةُ عن حاجته فقد أشرك**»[٤]. لكن إذا وقع في نفسه شيء من ذلك، ولكنه توكل على الله ومضى في حاجته، فلا يلحقه إثمٌ ولا ذم، إذ لا يكلف الله نفسًا إلاَّ وسعها، لما جاء من حديث معاوية بن الحكم ـ رضي الله عنه ـ عندما قال للرسول ﷺ: **يارسول الله إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام وإن منَّا رجالاً يأتون الكهان قال: «فلا تأتهم» قال: ومنا رجال يتطيرون،**

---

(١) المعلم (٣/ ١٠٤).

(٢) رواه الترمذي في أبواب السير، باب ماجاء في الطيرة، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، ورواه أبو داود في كتاب الكهانة والتطير، باب في الطيرة، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة(١/ ٧٩١) برقم(٤٢٩).

(٣) المفهم(٥/ ٦٢٨).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢٢٠)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٥٣) رقم (١٠٦٥).

قال: «**ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصُدَّنهم**»(١).

قال القرطبي في شرحه لهذا الحديث: «معنى ذلك أن الإنسان بحكم العادة يجد في نفسه نفرة وكراهة مما يتطير به، فينبغي له ألا يلتفت إلى تلك النفرة، ولا لتلك الكراهة، ويمضي لوجهه الذي خرج إليه، فإن تلك الطيرة لا تضر، وإذا لم تضر فلا تصد الإنسان عن حاجته، وأشار به إلى أن الأمور كلها بيد الله تعالى فينبغي أن يعول عليه، وتفوض جميع الحوائج إليه، ويفهم منه: أن هذا الوجدان لتلك النفرة لا يلام واجدها عليها شرعًا؛ لأنه لا يقدر على الانفكاك عنها، وإنما يلام الإنسان أو يمدح على ما كان داخلاً تحت استطاعته»(٢).

وقال المازري حول هذا الحديث: «أي يجدون ذلك ضرورة فلا ملام عليهم فيه، ولكن إنما يكون اللوم على توقفهم عن إمضاء حوائجهم لأجل ذلك، وهو المكتسب فنهاهم أن يصدهم ذلك عما أرادوا فعله»(٣).

وبيَّن القرطبي في موضع آخر أن المعرض عما يجد الماضي في حاجته على سنة الرسول ﷺ، وقد يُذهبُ الله سبحانه وتعالى عنه ما يجد إذا علم منه صدق التوكل، وصحة التفويض، حيث قال: «المتطيِّر ليس على سنة النبي ﷺ، إلاَّ أن يمضي لوجهه، ويعرض عنها، غير أنه قد لا يقدر على الانفكاك عنها، بحيث لا تخطر له مرة واحدة، فإن إزالة تأثيرها من النفوس لا تدخل تحت استطاعتنا... لكنه إذا صحَّ تفويضه إلى الله تعالى وتوكل عليه وداوم على ذلك أذهب الله تعالى ذلك عنه، ولذلك قال ﷺ: «**ولكن الله يذهبه بالتوكل**»(٤)»(٥).

وبيَّن أن الرسول ﷺ ما كان يتطير بشيء، إنما كان يحب الفأل،

---

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ح(٥٣٧) (٥/ ٢٣).
(٢) المفهم(٢/ ١٤١).
(٣) المعلم(١/ ٢٧٥).
(٤) سبق تخريجه ص(٢٤١).
(٥) المفهم (٥/ ٦٢٨).

وعرف الفأل، فقال: هو أن يسمع الإنسان قولاً حسنًا، أو يرى شيئًا يستحسنه يرجو منه أن يحصل له غرَضه الذي قصد تحصيله، وهذا معنى ما فسر به النبي ﷺ الفأل، وكان رسول الله ﷺ يكره الطيرة، ويعجبه الفأل... وإنما كان يعجبه الفأل؛ لأنه تنشرح له النفس، وتستبشر بقضاء الحاجة وبلوغ الأمل، فيحسن الظن بالله -عز وجل-[(١)]. قالت عائشة -رضي الله عنها-: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني، وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال»[(٢)].

وقد جعل القرطبي - رحمه الله - قول عائشة هذا ردًا على الجُهَّال الذين يتشاءمون من شهر شوال، وبيَّن أنه ينبغي إزالة ما في أذهان هؤلاء الجُهَّال من هذه الخرافات بالعمل على مخالفتها، فقال: هذا إنما قالته عائشة - رضي الله عنها - لترد به قول من كان يكره عقد النكاح في شهر شوال ويتشاءم به... ولذلك قالت عائشة ذلك رادَّة لذلك الوهم: «فأي نسائه كان أحظى عنده مني» أي: لم يضرني ذلك ولا نقص من حظوتي، ثم إنها تبركت بشهر شوال، فكانت تحب أن تدخل نساءها على أزواجهن في شوال للذي حصل لها فيه من الخير برسول الله، ومن الحظوة عنده، ولمخالفة ما يقول الجهال من ذلك.

ومن هذا النوع كراهة الجهال عندنا اليوم عقد النكاح في شهر المحرم، بل ينبغي أن يتيمن بالعقد والدخول فيه تمسكًا بما عظم الله ورسوله من حرمته وردعًا للجهال عن جهالاتهم»[(٣)].

على أنه ربما عورض ما سبق تقريره بقوله ﷺ: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**»[(٤)] وقوله ﷺ: «**لا يورد مُمرضٌ على مُصح**»[(٥)] **وقوله ﷺ:**

---

(١) المفهم (٥/ ٦٢٦، ٦٢٧).
(٢) المفهم(٤/ ١٢٣).
(٣) المفهم (٤/ ١٢٤).
(٤) رواه البخاري في كتاب الطب باب الجذام ح(٥٧٠٧) (١٠/ ١٦٧).
(٥) رواه البخاري في كتاب الطب، باب لاهامة ح(٥٧٧١) (١٠/ ٢٥١) ومسلم في كتاب =

«إنما الشؤمُ في ثلاثة: المرأة والفرس والدار»(١).

أما الحديث الأول فقد قال القرطبي عند شرحه: «هذا الخطاب إنما هو لمن يجد في نفسه نفرة طبيعية لا يقدر على الانتزاع منها فأمره بالفرار لئلا يتشوش عليه ويغلبه وهمه وليس ذلك خوفًا لعدوى»(٢).

وأما الحديث الثاني: فقال القرطبي في شرحه: «إنما نهى عن إيراد الممرض على المصح مخافة الوقوع فيما وقع فيه أهل الجاهلية من اعتقاد ذلك، أو مخافة تشويش النفوس وتأثير الأوهام، وهذا كنحو أمره ﷺ بالفرار من المجذوم فإنا وإن كنا نعتقد أن الجذام لا يعدي فإنا نجد من أنفسنا نفرة وكراهية لذلك حتى إذا أكْرَهَ الإنسان نفسه على القرب منه، وعلى مجالسته تألمت نفسه وربما تأذت بذلك ومرضت ويحتاج الإنسان في هذا إلى مجاهدة شديدة ومكابدة، ومع ذلك فالطبع أغلب، وإذاكان الأمر بهذه المثابة فالأولى بالإنسان ألا يقرب شيئًا يحتاج الإنسان فيه إلى هذه المكابدة، ولا يتعرض فيه لهذا الخطر، والمتعرض لهذا الألم زاعمًا أنه يجاهد نفسه حتى يزيل عنها تلك الكراهة هو بمنزلة من أدخل على نفسه مرضًا أراد علاجه حتى يزيله، ولا شك في نقص عقل من كان على هذا، وإنما الذي يليق بالعقلاء، ويناسب تصرف الفضلاء أن يباعد أسباب الآلام ويجانب طرق الأوهام... وبمجموع الأمرين وردت الشرائع، وتوافقت على ذلك العقول والطبائع»(٣).

هذا هو الرأي الذي رجَّحه القرطبي في هذه المسألة وللعلماء أقوال كثيرة فيها:

فمن العلماء من رجَّح الأخبار الدالة على نفي العدوى على الأخبار المثبتة لها وبعضهم عكس ذلك. وآخرون حاولوا الجمع بين النصوص

= السلام، باب لاعدوى ولا طيرة... ح(٢٢٢١) (١٤/ ٤٦٦).

(١) رواه البخاري في كتاب الطب، باب الطيرة ح(٣٧٥٣) (١٠/ ٢٢٣) ومسلم في كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم ح(٢٢٢٣) (١٤/ ٤٦٩).

(٢) المفهم(٤/ ٧٥).

(٣) المفهم (٥/ ٦٢٤) وانظر أيضًا (٥/ ٦١٤).

بطرق كثيرة أحدها ما ذكره القرطبي[١].

وكذلك المازري ذكر بعض هذه الأقوال عند الجمع بين نفيه ﷺ للعدوى ونهيه أن يورد ممرض على مصح، لكنه لم يرجح حيث قال: «قال بعض أصحابنا لا يورد ممرض على مصح منسوخ بقوله: «لا عدوى» وقال آخرون: ليس بينهما تناف فيفتقر إلى النسخ، ولكن نفي العدوى، وهي اعتقاد كون بعض الأمراض تفعل في غيرها بطبيعتها، وأما أن تكون سببًا لخلق الباري سبحانه عندها مرض[٢]، ما وردت عليه، فلم ينفه، فإنما نهى أن يورد الممرض على المصح لئلا تمرض الصحاح من قبل الله جلت قدرته عند ورود المرضى فتكون المرضى كالسبب فيها، وقال آخرون: إنما المراد بهذا الاحتياط على اعتقاد الناس لئلا يتشاءم بالإبل المريضة، ويعتقد أنها أمرضت إبله، فيأثم في هذا الاعتقاد، وقال آخرون: إنما ذلك للتأذي بمشاهدة المرضى، وما قد يكون فيها من رائحة تؤذي، وهو المراد بما وقع في بعض الأحاديث فإنه أذى، وقال بعض أصحابنا في هذا إن كانت مندوحة عن مخالطة من يتأذى كره للوارد وإلاَّ فلا، وكذا في أهل الجذام، إذا تأذى الناس بمخالطتهم»[٣].

وأما الحديث الذي يثبت الشؤم في ثلاثة فقال القرطبي عند شرحه لهذا الحديث: «قد تخيل بعض أهل العلم أن التطير بهذه الثلاثة مستثنى من قوله: «**لا طيرة**»[٤] وأنه مخصوص بها، فكأنه قال: لا طيرة إلاَّ في هذه الثلاثة، فمن تشاءم بشيء منها نزل به ما كره من ذلك، وممن صار إلى هذا القول: ابن قتيبة، وعضد هذا بما يروى عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: «**الطيرة على من تطير**»[٥] وقال

---

(١) انظر فتح الباري لابن حجر(١٠/ ١٦٠).

(٢) هذا على قول الأشاعرة باثبات وجود تلازم عادي بين الأسباب والمسببات، أي أن المسببات تحدث عند الأسباب لا بها. انظر منهج أهل السنة والجماعة، ومنهج الأشاعرة في توحيد الله (١/ ٣٤٤).

(٣) المعلم (٣/ ١٠٣).

(٤) قوله ﷺ «**لاعدوى ولا طيرة وإنما الشؤم في ثلاثة. . .**» سبق تخريجه ص(٢٤٤).

(٥) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب العدوى والطيرة والفأل، باب ذكر الخبر على أنَّ =

أبوعبدالله[١]: إن مالكًا أخذ بحديث الشؤم في الدار والفرس وحمله على ظاهره، ولم يتأوله، فذكر في كتاب الجامع من «العتبية» أنه قال: رب دار سكنها قوم فهلكوا وآخرون بعدهم فهلكوا، وأشار إلى حمل الحديث على ظاهره، ويعضد هذا حديث يحيى بن سعيد، قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله دار سكناها والعدد كثير والمال وافر، فذهب العدد وقل المال، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوها ذميمة**»[٢].

قلت ـ أي القرطبي ـ: ولا يظن بمن قال هذا القول أن الذي رخص فيه من الطيرة بهذه الأشياء الثلاثة هو على نحو ما كانت الجاهلية تعتقد فيها وتفعل عندها، فإنها كانت لا تقدم على ما تطيرت به، ولا تفعله بوجهٍ، بناءً على أن الطيرة تضر قطعًا، فإن هذا ظنٌّ خطأ، وإنما يعني بذلك: أن هذه الثلاثة أكثر ما يتشاءم الناس بها لملازمتهم إياها، فمن وقع في نفسه شيء من ذلك، فقد أباح الشرع له أن يتركه ويستبدل به غيره مما تطيب به نفسه، ويسكن له خاطره، ولم يلزمه الشرع أن يقيم في موضع يكرهه، أو مع امرأة يكرهها، بل قد فسح له في ترك ذلك كله، لكن مع اعتقاد أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، وليس لشيء من هذه الأشياء أثر في الوجود، وهذا على نحو ما ذكرناه في المجذوم، فإن قيل: فهذا يجري في كل متطير به، فما وجه خصوصية هذه الثلاثة بالذكر؟ فالجواب: ما نبهنا عليه من أن هذه ضرورية في الوجود، ولابد للإنسان منها، ومن ملازمتها غالبًا، فأكثر ما يقع التشاؤم بها فخصها بالذكر لذلك فإن قيل: فما الفرق بين الدار وبين موضع الوباء فإن الدار إذا تطير بها فقد وسع له في الارتحال عنها، وموضع الوباء قد منع من الخروج منه؟!.

= الطيرة تؤذي المتطير ح(٦١٢٣) (١٣/ ٤٩٢).

(١) محمد بن أحمد العتبي القرطبي المالكي من فقهاء المالكية، له كتاب «العتبية» وهي المستخرجة من الأسمعة المسموعة من الإمام مالك رحمه الله توفي في سنة(٣٣٦). الديباج المذهب (٣٣٦). الأعلام(٥/ ٣٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب الشؤم في الفرس، صحيح الأدب المفرد للألباني (٣٤١)، وأبو داود في كتاب الكهانة والتطير باب في الطيرة، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٤١٧) برقم (٧٩٠).

فالجواب ما قاله بعض أهل العلم: إن الأمور بالنسبة إلى هذا المعنى ثلاثة أقسام:

أحدها: ما لم يقع التأذي به ولا اطردت عادة به خاصة ولا عامة ولا نادرة ولا متكررة، فهذا لا يصغى إليه، وقد أنكر الشرع الالتفات إليه، كلقي غراب في بعض الأسفار، أو صُراخ بومة في دار، ففي مثل هذا قال ﷺ: «**لا طيرة**» و«**لا تطيروا**» وهذا القسم هو الذي كانت العرب تعتبره وتعمل عليه مع أنه ليس في لقاء الغراب، ولا دخول البومة دارًا ما يشعر بأذى ولا مكروه لا على وجه الندور ولا التكرار.

وثانيها: ما يقع به الضرر، ولكنه يعم ولا يخص، ويندر ولا يتكرر كالوباء، فهذا لا يقدم عليه عملاً بالحزم والاحتياط، ولا يفر منه لإمكان أن يكون قد وصل الضرر إلى الفار فيكون سفره سببًا في محنته وتعجيلاً لهلكته.

ثالثها: سبب يخص ولا يعم، ويلحق منه الضرر بطول الملازمة كالدار والفرس والمرأة، فيباح له الاستبدال والتوكل على الله تعالى، والإعراض عما يقع في النفوس منها من أفضل الأعمال، وقد وضح الجواب والله الموفق للصواب»[(١)].

ثم بيّن ـ رحمه الله ـ بعض تأويل العلماء لهذا الحديث، وبين انتقاداته لها، وقرر أن ما ذكره في تخريج الحديث هو الأولى، فقال: «وقد سلك العلماء في تأويل ذلك الحديث أوجهًا أُخر.

منها: أن بعضهم قال: إنما هذا منه ﷺ خبر عن غالب عادة ما يتشاءم به، لا أنه خبر عن الشرع[(٢)]، وهذا ليس بشيء؛ لأنه تعطيل لكلام الشرع عن الفوائد الشرعية التي لبيانها أرسله الله سبحانه وتعالى، ومنهم من تأول

---

(١) المفهم (٥/ ٦٢٩).

(٢) وقد كانت عائشة رضي الله عنها، تنكر على أبي هريرة هذه الرواية وتقول إنما قال النبي ﷺ: «**إنَّ أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك**» وأجاب الحافظ ابن حجر رحمه الله عن هذا الإنكار فقال: ولا معنى لإنكار ذلك على أبي هريرة مع موافقة من ذكرنا من الصحابة له في ذلك. فتح الباري(٦/ ٦١).

الشؤم المذكور في هذه الثلاثة، فقال: الشؤم في المسكن ضيقه، وسوء جيرانه، وفي المرأة سوء خلقها، وألا تلد، وفي الفرس جماحه وألا يُغزى عليه.

وهذا المعنى لا يليق بالحديث ونسبته إلى أنه هو مراد الشرع من فاسد الحديث. وما ذكرناه أولى والله تعالى أعلم»[(١)].

وأما المازري فقد قال عن هذا الحديث: «مالك ـ رضي الله عنه ـ أخذ هذا الحديث على ظاهره، ولم يتأوله، فذكر في كتاب الجامع من المستخرجة أنه قال: رب دار سكنها قوم فهلكوا، وآخرون بعدهم فهلكوا، وأشار إلى حمل الحديث على ظاهره، وقال غيره: فإن هذا محمله على أن المراد به أن قدر الله سبحانه ربما اتفق بما يكره عند سكنى الدار، فيصير ذلك كالسبب فيتسامح في إضافة الشؤم إليه مجازًا واتساعًا، قالوا: وقد قال في بعض طرق مسلم: إن يكن الشؤم، وهذا لفظ ينافي القطع، ويكون محمله إن يكن الشؤم حقًّا فهذه الثلاث أحق به، بمعنى أن النفوس يقع فيها التشاؤم بهذه أكثر مما يقع بغيرها. وقد وقع في بعض الأحاديث أنه ﷺ لمَّا شُكِيَ إليه في بعض الديار ذهاب الأهل والمال قال: دعوها ذميمة.

وقد اعترض بعض أهل العلم في هذا الموضع؟ بأن قال: فإنه نهى ﷺ عن الفرار من بلد الطاعون، وأباح الفرار من هذه الدار فما الفرق؟ قال بعض أهل العلم: إن الجامع لهذه الفصول كلها ثلاثة أقسام[(٢)].

ثم ذكرالأقسام الثلاثة التي ذكرها أهل العلم وسبق نقلها عن القرطبي.

المطلب السابع : التبرك :

من معتقد أهل السنة والجماعة أن البركة من الله تعالى، فلا تطلب إلاَّ منه، وطلبها من غيره شرك[(٣)].

---

(١) المفهم (٥/ ٦٢٩) وانظر أقوال العلماء في المسألة: في مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٢٥٧). وفتح الباري لابن حجر(٦/ ٧١). وتيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الله آل الشيخ ص(٤٢٨).

(٢) المعلم (٣/ ١٠٤).

(٣) انظر التبرك المشروع والتبرك الممنوع للدكتور علي بن نفيع العلياني ص(١٧) .

ولكنه سبحانه وتعالى جعل بركة في بعض الأعيان والأقوال والأفعال، فهي سبب للبركة. والبركة في الأشياء لا تُعرف إلاَّ عن طريق الشرع، ثم التبرك بهذا الشيء لا يكون إلاَّ على الصفة المشروعة التي جاء بها الشارع، وذلك لإقفال باب البدع والخرافات، فمثلاً طلب بركة السحور التي جاءت في الحديث(١) يكون بالتسحر، وطلب بركة ماء زمزم(٢) بشربه، وهكذا.

وأما ما يتعلق بالتبرك بالأشخاص وآثارهم، فتفصيل ذلك كما يأتي:

التبرك بالنبي ﷺ:

دلَّت النصوص على التبرك بالرسول ﷺ وبآثاره، فهو ﷺ مبارك في ذاته وأفعاله وآثاره، وقد كان الصحابة -رضي الله عنهم- يتبركون به وبآثاره، وقد أقرهم على ذلك، فقد جاء في صحيح البخاري من حديث خروج النبي ﷺ في الحديبية وفيه: «**ما تنخم النبيُّ ﷺ نُخَامَةً إلَّا وقعتْ في كفِّ رجُلٍ منهم فدلَكَ بها وجهَهُ وجلدَه**»(٣).

فهذا الحديث وأمثاله يدل على مشروعية التبرك بالرسول ﷺ، وبآثاره، كفضل وضوئه وشعره(٤).

---

(١) وهو قوله ﷺ «**تسحروا فإنَّ في السَّحور بركَة**» رواه البخاري في كتاب الصوم، باب بركة السحور ح(١٩٢٣) (٤/ ١٦٥) ومسلم في كتاب الصيام، باب فضل السحور ح(١٠٩٥) (٧/ ٢١٣).

(٢) وهو قوله ﷺ «**إنها مباركة إنها طعام طعم**» رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه ح(٢٤٧٣) (١٦/ ٢٦٣).

(٣) رواه البخاري في كتاب الوضوء، باب البزاق والمخاط ونحوه في الثوب ح(٢٤١)، (١/ ٤٢٠).

(٤) على أنه من المناسب لنا في هذا الزمن عند الحديث عن التبرك بآثار الرسول ﷺ أن ننقل قول العلامة الألباني في هذه المسألة حيث قال: إننا نؤمن بجواز التبرك بآثاره ﷺ ولا ننكره لكن يشترط للراغب في التبرك أن يكون حاصلاً على أثر من آثاره ﷺ ويستعمله ونعلم أنَّ آثاره ﷺ من ثياب أو شعر أو فضلات قد فقدت وليس بامكان أحد إثبات وجود شيء منها على وجه القطع واليقين وإذا كان الأمر كذلك فإنَّ التبرك بهذه الآثار يصبح أمرًا غير ذي موضوع في زماننا هذا ويكون أمرًا نظريًا فلا ينبغي إطالة القول فيه. التوسل أنواعه وأحكامه للألباني ص(١٦١).

وأما التبرك بالمواضع التي نزل فيها الرسول ﷺ أو صلى فيها اتفاقًا من غير قصد، فقد ذهب بعض المتأخرين من العلماء إلى استحباب ذلك، واستدلوا على مشروعية ذلك بفعل ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فقد كان يتحرى الصلاة في المواضع التي صلى فيها رسول الله ﷺ والنزول في أماكن نزوله في سفره(١). وما جاء في صحيح البخاري أيضًا أن عتبان بن مالك طلب من الرسول ﷺ أن يصلي له في مكان في بيته ليتخذه مصلى فأجابه الرسول ﷺ لذلك(٢).

ورأى الآخرون المنع من ذلك؛ لأنه لم ينقل عن أحد من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ذلك سوى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ. فتحري ذلك ليس من سنة الخلفاء الراشدين، بل هو مما ابتدع، وقول الصحابي إذا خالفه نظيره ليس بحجة، فكيف إذا انفرد به عن جماهير الصحابة؟!. إضافة إلى أن ذلك تشبُّهٌ بأهل الكتاب، وقد يكون ذريعة إلى الشرك بالله تعالى(٣).

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ما فعله ابن عمر لم يوافقه عليه أحد من الصحابة، فلم ينقل عن الخلفاء الراشدين، ولا غيرهم من المهاجرين والأنصار أن أحدًا منهم كان يتحرى قصد الأمكنة التي نزلها النبي ﷺ، والصواب مع جمهور الصحابة؛ لأن متابعة النبي ﷺ تكون بطاعة أمره، وتكون في فعله، بأن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعله، فإذا قصد العبادة في مكان كان قصد العبادة فيه متابعة له، كقصد المشاعر والمساجد، وأما إذا نزل في مكان بحكم الاتفاق لكونه صادف وقت النزول أو غير ذلك مما يعلم أنه لم يتحر ذلك المكان، فإذا تحرينا ذلك المكان لم نكن متبعين له، فإن الأعمال بالنيات»(٤).

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة باب المساجد التي على طرق المدينة والموضع التي صلى فيها رسول الله ﷺ ح(٤٨٣) (١/ ٦٧٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب الصلاة باب المساجد في البيوت ح(٤٢٥) (١/ ٦١٨).

(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية(ص٣٩٠).

(٤) المرجع السابق (ص٣٨٧).

«على أن من العلماء من رخَّص في ذلك إذا لم يتخذ عيدًا فيكثر انتياب الناس له لأجل ذلك»[(١)].

والقرطبي ـ رحمه الله ـ أقرَّ التبرك بالرسول ﷺ بذاته وبآثاره ـ وهو مشروع بلا شك ـ وقرر مشروعية بل فضل التبرك بمواضعه، فقال: «كان أصحابه يتبركون بوضوئه وشرابه، وبعرقه، ويستشفون بجبته، ويتبركون بآثاره، ومواطنه، ويدعون، ويصلون عندها، وهذا كله عمل بمقتضى الأمر بالتعزير والتعظيم ونتيجة الحب الصحيح»[(٢)].

وما ذكره القرطبي هنا من أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يتبركون بمواطنه، ويدعون ويصلون عندها ليس بصحيح، بل نقل ذلك عن ابن عمر فقط، خالف فيه جميع الصحابة من المهاجرين والأنصار كما قال ابن تيمية.

وقال القرطبي في موضع آخر في كتاب الحج؛ «النبيت بذي طوى ودخول مكة نهارًا ليس من المناسك، لكن إن فعل ذلك اقتداءً بالنبي ﷺ، وتتبعًا لمواضعه، كان له في ذلك ثوابٌ كثير، وخير جزيل»[(٣)].

وقال أيضًا: «والتعريس بذي الحليفة ليس من سنن الحج ولا العمرة، ولكنه مستحب تبركًا بالنبي ﷺ»[(٤)].

على أنه ـ عفا الله عنه ـ قد غلا في ذلك، وتجاوز الحد، فقد جعل وجود خاتم الرسول ﷺ بين الصحابة سببًا لاستقامة أمرهم، وفقده سببًا لما حصل بينهم من حروب وفتن، فقال: «وكون الخلفاء تداولوا خاتم النبي ﷺ إنما كان ذلك تبركًا بآثار النبي ﷺ، واقتداءً به، واستصحابًا لحاله، حتى كأنه حي معهم، ولم يزل أمرهم مستقيمًا متفقًا عليه في المدة التي كان ذلك الخاتم فيهم، فلما فُقِد اختلف الناس على عثمان ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) انظر: المرجع السابق (ص٣٨٤، ٣٨٧).
(٢) المفهم (٥/ ٢٧٦).
(٣) المفهم (٣/ ٣٧٣).
(٤) المفهم (٣/ ٤٥٨).

وطرأ من الفتن ما هو معروف، ولايزال الهرج إلى يوم القيامة»[١].

بل جعل رؤية قبر الرسول ﷺ من العبادات التي يؤثرها العبد على أهله وماله ونفسه والناس أجمعين، حيث قال؛ «من المؤمنين من يكون مستغرقًا بالشهوات محجوبًا بالغفلات عن ذلك المعنى - أي عن محبة الرسول ﷺ - في أكثر أوقاته، فهذا بأخس الأحوال، لكنه إذا ذُكِّرَ بالنبي ﷺ وبشيء من فضائله اهتاج لذكره، واشتاق لرؤيته، بحيث يؤثر رؤيته، بل رؤية قبره ومواضع آثاره على أهله وماله وولده ونفسه والناس أجمعين»[٢].

وقال في موضع آخر، وهو يذكر فضائل المدينة: «ففي حياته ﷺ: صحبته ورؤية وجهه الكريم، وبعد وفاته: مجاورة جسده الشريف، ومشاهدة آثاره المعظمة، فطوبى لمن ظفر بشيء من ذلك، وأحسن الله عزاء من لم ينل شيئًا مما هنالك»[٣].

ونقل عن القاضي عياض مقرًّا له جعل قبر الرسول ﷺ أفضل بقاع الأرض، حيث قال: «قال القاضي عياض: أجمع المسلمون على أن موضع قبر النبي ﷺ أفضل بقاع الأرض كلها»[٤].

ولا شك أن هذا من الغلو الذي نهى عنه ﷺ فقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم**»[٥]، وقال: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**»[٦]، وغيرها من الأحاديث الناهية عن الغلو في شخصه ﷺ فضلاً عن آثاره.

ومع ما وقع فيه القرطبي - رحمه الله - هنا من الغلو المذموم، إلاَّ أنه قرر ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من النهي عن الصلاة إلى القبور،

---

(١) المفهم (٥/ ٤١١).
(٢) المفهم (١/ ٢٢٧).
(٣) المفهم (٣/ ٤٩٦).
(٤) المفهم (٣/ ٥٠٣).
(٥) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ ح(٣٤٤٥) (٦/ ٥٥١).
(٦) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٦٧) وأبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢١١) برقم(٧٢٢٦).

والبناء عليها، سدًّا لذريعة الشرك، وحماية لجانب التوحيد، فقال: «حذَّر النبي ﷺ عن مثل هذا ـ أي تعظيم القبور والصور ـ وشدَّد النكير والوعيد على مثل هذا، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال: «**اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، فلا تتخذوا القبور مساجد**»(١) أي: أنهاكم عن ذلك... ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر الرسول ﷺ، فأعلو حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن تتخذ موضع قبره قبلة، إذ كان مستقبل المصلين، فتتصور الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلث من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره»(٢).

وقال عند شرحه لحديث النهي عن تجصيص القبور: «بظاهر هذا الحديث قال مالك وكره البناء والجص على القبور، وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه، ووجه النهي عن البناء والتجصيص في القبور: أن ذلك مباهاة واستعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة، وتشبه بمن كان يعظم القبور ويعبدها وباعتبار هذه المعاني وبظاهر هذا النهي ينبغي أن يقال هو حرام كما قد قال به بعض أهل العلم»(٣).

وقال في موضع آخر: «قوله: «**لا تصلوا إلى القبور**»(٤) أي: «لا تتخذوها قبلة لقطع الذريعة أن يعتقد الجهال في الصلاة إليها أو عليها الصلاة لها فيؤدي إلى عبادة من فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام»(٥).

فيكون تقريره هنا كالرد على كلامه السابق الذي فيه غلو في قبر الرسول ﷺ، ولا شك أن تعظيم القبور من أعظم الذرائع إلى الشرك بالله تعالى.

---

(١) سبق تخريجه ص(٢٢٨).
(٢) المفهم (٢/ ١٢٨).
(٣) المفهم (٢/ ٦٢٦).
(٤) رواه مسلم في كتاب الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه ح(٩٧٢) (٧/ ٤٣).
(٥) المفهم (٢/ ٦٢٨).

التبرك بالصالحين :

لقد ذهب القرطبي - رحمه الله - إلى جواز التبرك بالصالحين وبآثارهم، وذلك عند شرحه لحديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - الذي قال فيه: «**إن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر - أرض ثمود - فاستقوا من آبارها وعجنوا من العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة**»(١) قال القرطبي: «أمره لهم أن يستقوا من بئر الناقة دليلٌ على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين، وإن تقادمت أعصارهم، وخفيت آثارهم»(٢).

وذكر في مواضع أخرى ما يدل على مذهبه في التبرك بآثارهم(٣)، والصواب أن قياس التبرك بالصالحين على التبرك بالنبي ﷺ ليس بصحيح، وذلك لأسباب كثيرة، منها:

١ - عدم مقاربة غير الرسول للرسول ﷺ، فضلاً عن المساواة في الفضل والبركة.

٢- ومنها عدم تحقق الصلاح، فإنه لا يتحقق الصلاح إلاَّ بصلاح القلب، وهذا لا يمكن الاطلاع عليه إلاَّ بنص.

٣- ومنها أننا لو ظننا صلاح شخص، فلا نأمن أن يختم له بخاتمة سوء والأعمال بالخواتيم، فلا يكون أهلاً للتبرك بآثاره.

٤- ومنها أن الصحابة لم يكونوا يفعلون مع غير النبي ﷺ لا في حياته ولا بعد موته، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

٥- ومنها أن فعل هذا مع غير الرسول ﷺ قد يورث العُجْبَ والكِبْرَ والفتنة،

---

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ ح(٣٣٧٨) (٦/ ٤٨٠) ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا ح(٢٩٨١) (١٨/ ٣٢٢).

(٢) المفهم (٧/ ٣٥٥).

(٣) انظر: المفهم (١/ ٥٤٦) (٣/ ٥٦٩).

فيكون كالمدح في الوجه بل أعظم[(١)].

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «التبرك بالآثار إنما كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ ولم يكونوا يفعلونه مع بعضهم بعض، ولا يفعله التابعون مع الصحابة مع علو قدرهم، فدل على أن هذا لا يفعل إلاَّ مع النبي ﷺ، مثل التبرك بوضوئه وفضلاته، وشعره وشرب فضل شرابه، وطعامه، وفي الجملة فهذه الأشياء فتنة للمعظِّم وللمعظَّم لما يخشى عليه من الغلو المدخل في البدعة، وربما يترقى إلى نوع من الشرك، كل هذا إنما جاء من التشبه بأهل الكتاب والمشركين الذي نهيت عنه هذه الأمة»[(٢)].

المطلب الثامن: السحر:

إن السحر من الأعمال الشركية التي تناقض التوحيد، ومعنى السحر كما قال القرطبي: «حيل صناعية يتوصل إليها بالتعلم والاكتساب غير أنها لخفائها ودقتها لا يتوصل إليها إلاَّ آحاد الناس، فيندر وقوعها، وتستغرب آثارها لندورها، ومادته الوقوف على خواص الأشياء، والعلم بوجوه تركيبها وأزمان ذلك»[(٣)].

وَهَذا الذي ذكره القرطبي أحد أنواع السحر، إذ السحر أنواع، منها ما يكفر به الساحر عند الجميع، ومنه ما اختلف في تكفيره. قال النووي رحمه الله عند كلامه عن السحر: «إنه قد يكون كفرًا وقد لا يكون كفرًا، بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفر، وإلاَّ فلا»[(٤)].

وقال الشنقيطي[(٥)] بعد ذكره لأنواع السحر: «وعلوم الشر كثيرة

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد ص(١٨٦) والتبرك المشروع والتبرك الممنوع ص(٨١،٩٦).
(٢) الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب ص(٥٨).
(٣) المفهم (٥/ ٥٦٩).
(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (١٤/ ٤٢٧).
(٥) هو الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي رحل من موريتانيا واستقر في السعودية إذ درس في المعهد العلمي بالرياض ثم في كلية الشريعة ثم مدرسًا في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وعضوًا في هيئة كبار العلماء عُرف رحمه الله بالورع والزهد وكثرة العبادة وقد خلف عددًا من المؤلفات منها «أضواء البيان في تفسير القرآن»=

وقصدنا بذكر ما ذكرنا منها التنبيه على خستها شرعًا، وأن منها ما هو كفر بواح، ومنها ما يؤدي إلى الكفر، وأقل درجاتها التحريم الشديد»[١].

حكم إنكار السحر:

بيَّن القرطبي ـ رحمه الله ـ وجود السحر وأثره، وأن الكتاب والسنة قد دلا على ذلك، وأن من أنكر السحر فقد كفر، لتكذيبه بالكتاب والسنة، وذلك عند شرحه لحديث عائشة التي قالت فيه: «**سحر رسول الله ﷺ يهودي**»[٢].

حيث قال: «هذا الحديث يدل على أن السحر موجود وأن له أثرًا في المسحور، وقد دلَّ على ذلك مواضع كثيرة من الكتاب والسنة بحيث يحصل بذلك القطع بأن السحر حقٌّ وأنه موجود، وأن الشرع قد أخبر بذلك، كقصة سحرة فرعون، وبقوله تعالى فيها: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾﴾[٣] و﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾[٤] إلى غير ذلك مما تضمنته تلك الآيات من ذكر السحر والسحرة، وكقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ . . .﴾ إلى آخرها[٥]. وبالجملة: فهو أمرٌ مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله ﷺ عن وجوده ووقوعه، فمن كذب بذلك فهو كافر مكذب لله ولرسوله، منكر لما علم مشاهدة وعيانًا، ومنكر ذلك إن كان مستسرًا به فهو الزنديق، وإن كان مظهرًا فهو المرتد»[٦].

= وغيره توفي رحمه الله في مكة ودفن بها في (١٧/ ١٢/ ١٣٩٣هـ) علماء نجد خلال ثمانية قرون. للشيخ عبد الله البسام (٦/ ٣٧١)، معجم المؤلفين (٣/ ١٤٦).

(١) أضواء البيان (٤/ ٤٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجزية والموادعة، باب هل يعفي عن الذمي إذا سحر ح(٣١٧٥) (٦/ ٣١٩)، ومسلم في كتاب السلام، باب السحر ح(٢١٨٩) (١٤/ ٤٢٤).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١١٦.

(٤) سورة طه، الآية: ٦٦.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٦) المفهم (٥/ ٥٦٨).

حقيقة السحر وتأثيره :

أما هل للسحر حقيقة أم لا؟ فيه قولان لأهل العلم:

الأول: من قال: إن السحر تخييل فقط ولا حقيقة له، قال به جماعة من العلماء منهم ابن حزم الظاهري[١]، وحجتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾[٢]. قال الحافظ ابن حجر في الرد عليهم: «هذه الآية عمدة من زعم أن السحر إنما هو تخييل ولا حجة له بها؛ لأن هذه وردت في قصة سحرة فرعون، وكان سحرهم كذلك، ولا يلزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل»[٣].

وقد بيَّن القرطبي أن أكثر السحر تخييل حيث قال: «وأكثره تخييلات لا حقيقة لها، وإيهامات لا ثبوت لها، فتعظم عند من لا يعرفها، وتشتبه على من لا يقف عليها، ولذلك قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[٤] مع أنه كان في عين الناظر إليه عظيمًا، وعن ذلك عبر الله تعالى بقوله: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾[٥]؛ لأن الحبال والعصي لم تخرج عن حقيقتها، وذلك بخلاف عصا موسى، فإنها انقلبت ثعبانًا مبينًا خرقًا للعادة، وإظهارًا للمعجزة»[٦].

الثاني: أن السحر له حقيقة، وعليه عامة العلماء، وهو الذي تؤيده الأدلة.

قال المازري: «أهل السنة وجمهور العلماء من الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة كحقائق غيره من الأشياء الثابتة، خلافًا لمن أنكره ونفى حقيقته، وأضاف ما يتفق منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها، وقد ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز، وذكر أنه مما يتعلم، وذكر ما يشير إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرق بين المرء وزوجه، وهذا كله مما لا يمكن أن

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر(١٠/ ٢٣٣).
(٢) سورة طه، الآية: ٦٦.
(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٣٥).
(٤) سورة طه، الآية: ٦٦.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١١٦.
(٦) المفهم (٥/ ٥٦٩).

يكون فيما لا حقيقة له، وكيف يتعلم ما لا حقيقة له؟»[١].

وهو الذي عليه القرطبي إذ بيَّن أن أكثره تخيلات لا حقيقة لها، فيفهم أن منه ما له حقيقة، وهذا هو الصحيح من كلام أهل العلم، وأن منه خيالات ومنه حقائق. وأما هل السحر له تأثير أم لا؟ هذا يبنى على القول الأول، فمن أنكر حقيقة السحر، وجعله من باب التخييل فقط فهو ينكر تأثيره. والذين أثبتوا أن للسحر حقيقة أثبتوا أن له تأثيرًا، ولكنهم اختلفوا في هذا التأثير.

فالجمهور أن للسحر تأثيرًا فقط بحيث يغير المزاج، فيكون نوعًا من الأمراض، ولا يزيد على ذلك بحيث يكون الجماد حيوانًا مثلاً. وذهبت طائفة قليلة إلى أن للسحر تأثيرًا يصل إلى قلب الأعيان[٢]. قال الحافظ ابن حجر عن ما قالته هذه الطائفة: «إن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمسلم، وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل الخلاف، فإن كثيرًا ممن يدعي ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه[٣].

وهذا هو الذي ذهب إليه القرطبي، وقد نقل الحافظ ابن حجر كلام القرطبي بعد كلامه السابق.

قال القرطبي: «السحر ليس بخرق عادة، بل هو أمر عادي، يتوصل إليه من يطلبه غالبًا، غير أنه يقل ويندر، فلا نقول: إن الساحر تنخرق له العادة خلافًا لمن قال ذلك من أئمتنا وغيرهم: إن العادة تنخرق له، فإن أرادوا بذلك جواز انخراقها له عادة عقلاً فمسلم، ما لم يدَّع النبوة، فإن حاصل ذلك أنه أمر ممكن، والله تعالى قادر على كل ممكن، وإن أراد بذلك: أن الذي وقع في الوجود خارق للعادة فهو باطل»[٤].

---

(١) المعلم (٣/ ٩٣).

(٢) موقف الإسلام من السحر لحياة سعيد عمر باخضر(١/ ٣٥٨).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٣٣).

(٤) المفهم (٥/ ٥٦٩). وقد أثبت المازري أنَّ مذهب الأشعرية جواز خرق العادة خلافًا لماقرره القرطبي هنا حيث قال: فإن قيل إذا جوزت الأشعرية خرق العادة على يدي الساحر فبماذا يتميز من النبي الصادق قيل: العادة تنخرق على يد النبي وعلى يد الولي =

وأمَّا المازري فقد أجاز أكثر من ذلك، وبيَّن أن هذا هو مذهب الأشعرية، فقال: «وإذا ثبت السحر فاختلف الناس في القدر الذي يقع عن السحر، ولهم في ذلك اضطراب كثير، وقد رأيت بعض الناس ذهب إلى أنه لا يبلغ الأمر فيه إلى غريبة تربي على التفرقة بين المرء وزوجه، وذكر أن الله سبحانه إنما ذكر ذلك تعظيمًا لما يكون عنه، وتهويلاً له في حقنا فلو كان يقع عنه ما هو أعظم لذكره إذ لا يضرب المثل عند المبالغة إلاَّ بأعلى أحوال المذكور.

ومذهب الأشعرية: أنه يجوز أن يقع عنه ما هو أكثر من ذلك، والذي قالته الأشعرية هو الصحيح عقلاً، وإذا قلنا أن لا فاعل إلاَّ الله سبحانه، وإنما يقع من ذلك عادة أجراها تعالى، فلا تفترق الأفعال في ذلك، وليس بعضها أولى من بعض، وهذا واضحٌ، لكن إن ورد السمع بقصوره عن مرتبة ما، وجب اتباع السمع في ذلك، وسمع قاطع يوجب الاقتصار على ما قاله من حكينا قوله لا يوجد وذكر التفرقة بين الزوجين ليس بنص جلي، فيما قاله، ولكنه إنما يبقى النظر في كونه ظاهرًا، والمراد في المسألة القطع، فلهذا لم نشتغل هاهنا بتحرير ما تعلق به من الآية»(١).

ونرى أن القرطبي قصر تأثير الساحر على النوع الأول وهو المرض، والتفريق بين الزوجين وما شابههما.

= وعلى يدالساحر إلاَّ أنَّ النبي يتحدى بها، ويستعجز سائر الخلق ويحكي عن الله سبحانه خرق العادة لتصديقه فلو كان كاذبًا لم تخرق العادة على يديه ولو خرقها لأظهر على يد غيره من المعارضين له، مثل ما أظهر على يده والولي والساحر لايتحديان ولا يستعجزان الخليقة ليستدلوا على صدقهم وعلى نبوتهم ولو حاولوا أشياء من ذلك لم تنخرق لهم العادة، أو تنخرق ولكنها تنخرق لمن يعارضهم، وأماالولي والساحر فإنهما يفترقان من طريق أخرى وهي أنَّ الساحر يكون ذلك علمًا على فسقه وكفره والولي لايكون علمًا على ذلك فيه فافترق حال الثلاثة بعضهم من بعض والساحر أيضًا يكون ذلك منه عن أشياء يفعلها وقوى يمزجها ومعاناة وعلاج والولي لايفتقر إلى ذلك وكثيرًا مايقع له ذلك بالاتفاق من غير أن يستدعيه أو يشعر به. المعلم (٣/ ٩٤).

(١) المعلم (٣/ ٩٣).

وأما المازري فجوز أكثر من ذلك.

والصحيح أن السحر له تأثير حقيقي على الإنسان، وأما ما يفعله الساحر من الطيران في الهواء أو المشي فوق الماء، أو قلب الإنسان حيوانًا، أو غيرها من الأعمال فعند كثير من العلماء أن هذا من باب التخييل ليس من نوع تغيير طبيعة الشيء إلى غيرها.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ عن وقوع مثل هذه الأفعال من الساحر: «بالنسبة إلى ثبوت وقوع مثل ذلك بالفعل فلم يقم دليل مقنع؛ لأن غالب ما يستدل عليه به قائله حكايات لم تثبت عن عدول، ويجوز أن يكون ما وقع منها من جنس الشعوذة، والأخذ بالعيون، لا قلب الحقيقة مثلاً إلى حقيقة أخرى، وهذا هو الأظهر عندي والله تعالى أعلم»(١).

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن حد قدرة الساحر هو ما يكون باستطاعة أحد من الإنس أو الجن، وما لا يدخل تحت قدرتهم فلا يستطيعه الساحر، كقلب الإنسان حيوانًا مثلاً حيث قال ـ رحمه الله ـ: «وجميع ما يختص بالسحرة والكُهَّان وغيرهم مما ليس بنبي: لا يخرج عن مقدور الإنس والجن، وأعني بالمقدور: ما يمكنهم التوصل إليه بطريق من الطرق... فما يقدر عليه الساحر من سحر بعض الناس حتى يمرض أو يموت هو من مقدور الجن، وهو من جنس مقدور الإنس»(٢).

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الساحر يفعل هذا وهذا، فتارة يتصرف في نفس الرائي وإحساسه، حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به، وتارة يتصرف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها»(٣).

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٥٩).

(٢) النبوات (٢/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٤٥٣).

موقف القرطبي والمازري مما ورد أن النبي ﷺ قد سحر :

جاء في الحديث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سَحَرَ رسول الله ﷺ يهوديٌّ من بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم، قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله...»(١).

وهذا الحديث قد أنكرته بعض المبتدعة بزعم أنه يحط من منصب النبوة، وينافي العصمة، ويؤثر على الثقة بالشريعة.

وقد كان للقرطبي والمازري موقف من هذه الشبهة، إذ بيَّنا أن السحر ثابت لكنه لا يحط من منزلته ﷺ، ولا يؤدي إلى نزع الثقة بشريعته، بل هو دليل بشريته عليه الصلاة والسلام، إذ هو كالأمراض والآلام والجراحات التي تصيبه ﷺ، ولم يتعد الأمر أكثر من ذلك. قال القرطبي: «قد جعل هذا بعض أهل الزيغ مطعنًا في النبوة وقال: إذا انتهى الحال إلى هذا لم يوثق بقول من كان كذلك، والجواب: إن هذا صدر عن سوء فهم، وعدم علم. أما سوء فهم فلأنها إنما أرادت أنه ﷺ أُخذ عن النساء، فكان قبل مقاربة الجماع يخيل إليه أنه يتأتى له ذلك، فإذا لابسه لم ينهض لغلبة مرض السحر عليه، وقد جاء هذا المعنى منصوصًا في غير كتاب مسلم فقالت: حتى كان يخيل إليه أنه يأتي النساء فلا يأتيهن، ولو لم ينقل أن ذلك في الجماع لصح في غيره، كما صح فيه، فيخيل إليه أنه يقدم على الأكل أو المشي مثلاً، لأنه لا يحس بمانع يمنعه منه، فإذا رام ذلك، وأخذ فيه، لم يتأتَّ له ذلك لغلبة المرض الناشىء عن السحر، لا أنه ﷺ أوجب له خللاً في عقله، ولا تخليطًا في قوله إذ قام برهان المعجزة على صدقه وعصمة الله تعالى له عن الغلط فيما يبلغه بقوله وفعله، وأما عدم علم الطاعن: فقد سلبه الله العلم بأحكام النبوات، وما تدل عليه المعجزات، فكأنهم لم يعلموا أن الأنبياء من البشر، وأنه يجوز عليهم من الأمراض والآلام

---

(١) سبق تخريجه ص(٢٥٦).

والغضب والضجر والعجز والسحر والعين وغير ذلك مما يجوز على البشر، لكنهم معصومون عما يناقض دلالة المعجزة من معرفة الله تعالى، والصدق والعصمة عن الغلط في التبليغ، وعن هذا المعنى عبَّر الله تعالى بقوله: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾(١) من حيث البشرية يجوز عليهم ما يجوز عليهم، ومن حيث الخاصة النبوية: امتاز عنهم وهو الذي شهد له العلي الأعلى بأن بصره ما زاغ وما طغى، وبأن فؤاده ما كذب ما رأى، وبأن قوله وحي يوحى وأنه ما ينطق عن الهوى»(٢).

وقال المازري: «قد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث من طريق ثابتة، وزعموا أنه يحط منصب النبوة، ويشكك فيها، وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع، ولعله يُخيَّل إليه جبريل ـ عليه السلام ـ وليس ثم ما يراه أو أنه أوحي إليه وما أوحي إليه، وهذا الذي قالوه باطل، وذلك أن الدليل قد قام على صدقه فيما يبلغه عن الله سبحانه، وعلى عصمته فيه، والمعجزة شاهدة بصدقه، وتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل، وما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها، ولا كان رسولاً مفضلاً من أجلها، وهو في كثير منها عرضة لما يعترض البشر فغير بعيد أن يخيل إليه في أمور الدنيا ما لا حقيقة له، وقد قال بعض الناس إنما المراد بالحديث: أنه يخيل إليه أنه وطىء زوجاته وليس بواطىء، وقد يتخيل في المنام للإنسان مثل هذا المعنى، ولا حقيقة له، فلا يبعد أن يكون ﷺ يتخيله في اليقظة، وإن لم يكن حقيقة، وقال بعض أصحابنا: يمكن أن يكون يخيل إليه الشيء أنه فعله ومافعله، ولكنه لا يعتقد ما تخيله أنه صحيح فتكون اعتقاداته كلها على السداد فلا يبقى لاعتراض الملحدة طريق»(٣).

وقد نقل الحافظ ابن حجر كلام المازري السابق في كتابه «فتح

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(٢) المفهم (٥/ ٥٧٠).
(٣) المعلم (٣/ ٩٣).

الباري» وارتضاه[١].

حكم الساحر:

اختلف العلماء في حد الساحر: هل يقتل بمجرد السحر؟ أم لابد أن يتضمن سحره الكفر، أو يقتل بسحره؟.

ذهب الإمام مالك وأبوحنيفة وأحمد (في رواية عنه) أنه يقتل على كل حال[٢]. وأما الشافعي فقال: الساحر إذا كان يعمل في سحره ما يبلغ به الكفر يقتل، فإذا عمل عملاً دون الكفر لم نر عليه قتلاً[٣]. وهو رواية عن أحمد[٤].

فالخلاف إذًا في الساحر الذي لم يشتمل سحره على الكفر، ولم يقتل بسحره. وأما إذا قتل بسحره، أو اشتمل سحره على الكفر فحدِه القتل عند الجميع. على أن كثيرًا من العلماء يرى أن الساحر لا يتم له السحر إلاَّ بخدمة الشياطين له، وهم لا يخدمونه إلاَّ بالتقرب إليهم، وهذا كفر. ثم هل تقبل توبة الساحر أم لا؟ في المسألة خلاف أيضًا:

والقرطبي والمازري أخذا بمذهب المالكية في ذلك، وهو قتل الساحر على كل حال.

قال القرطبي: «الساحر عند مالك كالزنديق؛ لأن العمل عنده بالسحر كفر مستسر به، فلا تقبل توبة الساحر، كما لا تقبل توبة الزنديق، إذ لا طريق لنا إلى معرفة صدق توبته... وإنما صار مالك إلى أن السحر كفر لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[٥] أي بالسحر، ويتأيد ذلك بأن الساحر لا يتم له سحره حتى يعتقد أن سحره ذلك مؤثر بذاته وحقيقته، وذلك كفر.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٣٧).
(٢) انظر: المغني لابن قدامة(١٠/ ١١١)، وتيسير العزيز الحميد ص(٣٩١).
(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٤٧).
(٤) انظر: المغني (١٠/ ١١١)، وتيسير العزيز الحميد ص(٣٩١).
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

وبقول مالك قال أحمد وجماعة من الصحابة والتابعين والشافعي في قول له آخر[١]. فالساحر عندنا يقتل على كل حال قتل بسحره أم لا؛ لأنه كالزنديق[٢].

وقال المازري: «الساحر عندنا إذا سحر بنفسه قتل، فإن تاب لم تقبل توبته خلافًا للشافعي، وهذه المسألة مبنية على الخلاف في قبول توبة الزنديق؛ لأنه مسرٌّ لما يوجب قتله كالساحر. وإنما قلنا «أنه يقتل على الجملة؛ لأن من عمل السحر وعلمه فقد كفر، والكافر يقتل، قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[٣] فإذا ثبت كونه كفرًا وجب القتل به. قال بعض أصحابنا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾(٣) يعني باعوها وبيعه لنفسه يتضمن قتله.

قال الشافعي: «إن عمل السحر (وقال به)[٤] سئل فإن قال تعمدت القتل به قُتِلَ، وإن قال لم أتعمد القتل به كانت فيه الدية. وإذا ثبت أنه كافر استغني عن هذا التفصيل الذي قاله الشافعي»[٥].

لكن إن اعترض على ذلك بأن الرسول ﷺ لم يقتل لبيد بن الأعصم الذي سحره، فقد أجاب القرطبي عن هذا الاعتراض فقال: «إنما امتنع النبي ﷺ من ذلك لما نبَّه عليه من خوف وقوع شر بين المسلمين واليهود، لما كان بينهم من العهد والذمة، فلو قتله لثارت فتنة، ولتحدث الناس أن محمدًا يقتل من عاهده وأمَّنه، وهذا نحو مما راعاه في الامتناع عن قتل المنافقين حيث قال: «**لئلا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[٦] فيكون

---

(١) المفهم (٥/ ٥٧٤).
(٢) المفهم (٥/ ٥٦٨).
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.
(٤) هكذا في الأصل ولعلها «وَقَتَلَ به».
(٥) المعلم (٣/ ٩٣).
(٦) سبق تخريجه ص(٢٣٤).

ذلك منفرًا عن الدخول في دينه وفي عهده والله تعالى أعلم»[١].

المطلب التاسع : النشرة :

وهي مسألة لها علاقة بالسحر؛ لأن السحر بمنزلة الداء، والنشرة بمنزلة الدواء. هي ضربٌ من العلاج يعالج به من يظن أن به سحرًا، أو مسًا من الجن. قال ابن الجوزي: «هي حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقتدر عليه إلاَّ من يعرف السحر»[٢].

وقد اختلف العلماء في حكم النشرة:

فكان الحسن البصري يكره ذلك، ويقول: لا يعلم ذلك إلاَّ ساحر. واستدلوا بقوله ﷺ: «**النشرة من عمل الشيطان**»[٣] وأجازها آخرون، وقد جاء في البخاري عن قتادة[٤] قال: قلت لسعيد بن المسيب[٥]: رجل به طب ـ أو يؤخذ عن امرأته ـ أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ماينفع فلم ينه عنه»[٦].

وسُئِلَ الإمام أحمد عمَّن يطلق السحر عن المسحور، فقال: «لا بأس به» وقال الحافظ ابن حجر بعد نقله لكلام الإمام أحمد السابق: «وهو المعتمد»[٧].

---

(١) المفهم (٥/ ٥٧٤) وقد ذهب الشنقيطي رحمه الله إلى هذا فقال: بينت الروايات الصحيحة أنه ترك قتله اتقاء إثارة فتنة فدل على أنه لولا ذلك لقتله وقد ترك المنافقين لئلا يقول الناس: إنَّ محمدًا يقتل أصحابه فيكون ذلك تنفيرًا عن دين الإسلام مع اتفاق العلماء على قتل الزنديق وهو عبارة عن المنافق والله أعلم. أضواء البيان(٤/ ٦٢).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٤٤).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٢٩٤) وأبو داود في كتاب الطب باب في النشرة قال الحافظ ابن حجر: أخرجه أبو داود في المراسيل ووصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر. فتح الباري (١٠/ ٢٤٤).

(٤) هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري، من الحفاظ الثقات رمي بشيء من القدر لكنه ممن يحتج به توفي سنة (١١٧هـ). تهذيب التهذيب (٣/ ٤٢٨). صفة الصفوة (٣/ ٢٥٩).

(٥) هو سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي القرشي من أئمة التابعين أخذ عن كثير من الصحابة وكان من عُبَّاد الناس وعلمائهم توفي سنة(٩٣هـ). تهذيب التهذيب (٢/ ٤٣). صفة الصفوة(٢/ ٧٩).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الطب باب هل يستخرج السحر (١٠/ ٢٤٣).

(٧) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٤٤) وتيسير العزيز الحميد ص(٤١٦).

وقد ذكر القرطبي الخلاف بين العلماء في هذه المسألة، ونقل قول المازري فيها فقال: «اختلف العلماء في النشرة وهي: أن يكتب شيئًا من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالماء، ثم يمسح به المريض أو يسقيه إياه، فأجازها سعيد بن المسيب، قيل له: الرجل يؤخذ عن امرأته أيحل عنه وينشر؟ قال: لا بأس به، وما ينفع لم ينه عنه. وقال المازري[١]: «النشرة أمر معروف عند أهل التعزيم، وسميت بذلك؛ لأنها تنشر عن صاحبها أي: تحل، ومنعها الحسن وقال: هي من السحر، وقد روى أبوداود من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال؛ سئل رسول الله ﷺ عن النشرة فقال: «**هي من عمل الشيطان**»[٢] قال بعض علمائنا: هذا محمول على أنها خارجة عما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعن المداواة المعروفة والنشرة من جنس الطب. قلت ـ أي القرطبي ـ: ويتأيد هذا بقوله ﷺ: «**لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، ومن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**»[٣]»[٤].

والصحيح أن النشرة على نوعين:

الأول: حل السحر بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، فإن السحر من عمله، فيتقرب إليه الناشر والمنتشر بما يحب فيُبطِلُ عملَهُ عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة، فهذا جائز، بل مستحب، وعلى النوع المذموم يحمل قول الحسن: لا يحل السحر إلاَّ ساحر[٥].

---

(١) انظر: المعلم (٣/ ٩٤).

(٢) سبق تخريجه ص(٢٦٥).

(٣) رواه مسلم في كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة ح(٢١٩٩) (١٤/ ٤٣٧).

(٤) المفهم (٥/ ٥٩٠).

(٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (٤/ ٣٩٦) وقد نقله عنه الشيخ محمد عبد الوهاب رحمه الله في كتاب التوحيد.

المطلب العاشر : الرقى والتمائم :

كانت الرقى تستخدم في الجاهلية لمعالجة اللديغ والمصاب بالعين وغيرها من الأمراض.

ولما كان في عمل الجاهلية هذا من ادعاء علم الغيب، ومن الشرك والتوكل على غير الله، والاستعانة بالجن، فقد وردت النصوص الشرعية بتحريم ذلك كله، فقال ﷺ: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»(١).

لكن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أتوا النبي ﷺ وأخبروه بأنهم عندهم رقى يرقون بها من العقرب وغيرها، وأنهم بحاجة إلى تلك الرقى، فطلب منهم ﷺ أن يعرضوا عليه تلك الرقى فعرضوها عليه، فقال لهم بعد ذلك: «**لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك**»(٢).

وقال ﷺ عندما سألوه عن الرقى «**من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل**»(٣).

قال القرطبي: «قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**رخَّص رسول الله ﷺ في الرقية من الحمة**»(٤) وقول أنس: «**رخَّص رسول الله ﷺ في الرقية من العين والحمة والنملة**»(٥) دليل على أن الأصل في الرقى كان ممنوعًا كما قد صرَّح به حيث قال: نهى رسول الله ﷺ عن الرقى(٦). وإنما نهى عنه مطلقًا لأنهم كانوا يرقون في الجاهلية برقى هو شرك وبما لا يفهم وكانوا يعتقدون

---

(١) رواه أحمد في منسده (١/ ٣٨١) وأبو داود في كتاب الطب باب تعليق التمائم وابن ماجه في كتاب الطب باب تعليق التمائم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٣٦) ح(١٦٣٢).

(٢) سبق تخريجه ص(٢٦٦).

(٣) سبق تخريجه ص(٢٦٦).

(٤) رواه البخاري في كتاب الطب باب رقية الحية والعقرب ح(٥٧٤١)،(١٠/ ٢١٦)، ومسلم في كتاب السلام باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة ح(٢١٩٣)،(١٤/ ٤٣٤).

(٥) رواه مسلم في كتاب السلام باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة ح(٢١٩٦)، (١٤/ ٤٣٥).

(٦) هو جزء من الحديث السابق الذي قال فيه عليه السلام«**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**»

أن ذلك الرقى يؤثر، ثم إنهم لما أسلموا وزال ذلك عنهم نهاهم النبي ﷺ عن ذلك عمومًا ليكون أبلغ في المنع وأسد للذريعة، ثم إنهم لما سألوه وأخبروه: أنهم ينتفعون بذلك رخص لهم في بعض ذلك وقال: «**أعرضوا عليَّ رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك**»(١).

فجازت الرقية من كل الآفات، ومن الأمراض، والجراح، والقروح، والحمة، والعين، وغير ذلك، إذاكان الرقى بما يفهم، ولم يكن فيه شرك ولا شيء ممنوع(٢).

وقال المازري: «يحتمل أن يكون النهي كان ثابتًا ثم نُسخ، أو يكون كان النهي لأنهم كانوا يعتقدون منفعتها بطبيعة الكلام، كما كانت تعتقد الجاهلية، فلما استقر في أنفسهم وارتاضوا بالشرع أباحها لهم مع اعتقادهم أن الله هو النافع والضار، أو يكون النهي عن الرقى الكفرية ألا تراه يقول للذي قال له: «نهيت عن الرقى قال: فعرضوها عليه ﷺ فقال ما أرى بأسًا»(٣).

وبهذا يتضح موقف الإسلام من الرقى، وأنها جائزة بشروط، قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط، وهي:

١ـ أن تكون بكلام الله وبأسمائه وصفاته، أو بما أُثِرَ عن النبي ﷺ.

٢ـ أن تكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره.

٣ـ أن لا يعتقد أن الرقية تؤثر بذاتها، بل بإذن الله عز وجل»(٤).

وقد نصَّ المازري على الشرطين الأول والثاني من هذه الشروط التي ذكرها الحافظ فقال: «جميع الرقى عندنا جائزة إذا كانت بكتاب الله ـ عز وجل ـ وذكر الله وينهى عنها بالكلام الأعجمي ما لا يعرف معناه لجواز أن

---

(١) سبق تخريجه ص(٢٦٦).

(٢) المفهم (٥/ ٥٨٠).

(٣) المُعلم (٣/ ٩٥).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٢٠٦).

يكون فيه كفر أو إشراك»[١].

وأماالقرطبي ـ رحمه الله ـ فقد جعل الشرط الأول للأفضلية والكمال، فقال: «وأفضل ذلك وأنفعه ما كان بأسماء الله تعالى وكلامه، وكلام رسوله ﷺ»[٢].

وقال عند شرحه لقوله عليه السلام عندما عرضوا عليه الرقى «**لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك**»[٣]: «دليل على جواز الرقى والتطبب بما لا ضرر فيه، ولا منع شرعيًا مطلقًا، وإن كان بغير أسماء الله تعالى وكلامه، لكن إذا كان مفهومًا»[٤].

وجعل ـ رحمه الله ـ الرقية ثلاثة أقسام:

ـ قسم من رقى الجاهلية، وبما لا يعرف، فهذا يجب اجتنابه على سائر المسلمين.

ـ وقسم بأسماء الله تعالى وبالمروي عن رسول الله ﷺ، وهذا التجاء إلى الله تعالى.

ـ وقسم ثالث وهو الرقى بأسماء الملائكة والنبيين والصالحين، وما عظَّم الله وأجازه، لكنه جعل تركه أولى، فقال: الرقى بأسماء الملائكة والنبيين والصالحين أو بالعرش والكرسي والسموات والجنة والنار، وما شاكل ذلك مما يعظم كما قد يفعله كثير ممن يتعاطى الرقى فهذا القسم ليس من قبيل الرقى المحظور الذي يعم اجتنابه، وليس من قبيل الرقى الذي هو التجاء إلى الله تعالى، وتبرك بأسمائه، وكأن هذا القسم المتوسط يلحق بما يجوز فعله غير أن تركه أولى[٥].

فالقرطبي ـ رحمه الله ـ خالف في هذا الشرط، وهو كون الرقية بأسماء الله تعالى وصفاته وما أثر عن النبي ﷺ فأجاز الرقية بأسماء الملائكة

---

(١) المعلم (٣/ ٩٥).
(٢) المفهم (٥/ ٥٨١).
(٣) سبق تخريجه ص(٢٦٦).
(٤) المفهم (٥/ ٥٨٤).
(٥) المفهم (١/ ٤٦٦).

أو النبيين إلى غير ذلك مما ذكر، ولا شك أنه قد أخطأ فيما ذهب إليه؛ لأن الرقى من الاستعاذة، والاستعاذة من أنواع العبادة التي لا يجوز صرفها إلاَّ لله تعالى وحده، فلا يجوز صرفها لغيره من المخلوقات مهما بلغت عظمتها.

قال الشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ[1]: «الرقى الموصوفة بكونها شركًا هي الرقى التي منها شرك من دعاء غير الله والاستعانة والاستعاذة به، كالرقى بأسماء الملائكة والأنبياء والجن ونحو ذلك»[2].

وإذا ثبت جواز الاسترقاء كما دلت النصوص على ذلك فهل يكون الاسترقاء قادحًا في التوكل أم لا؟

أي هل الاسترقاء أفضل أم تركه؟ اختلف العلماء في ذلك، فذهب الإمام أحمد والخطابي والقاضي عياض والنووي، وابن تيمية، وابن القيم وغيرهم من العلماء، إلى أن الاسترقاء قادح في التوكل، وأن تركه أفضل كما جاء عن رسول الله ﷺ في السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، قال ﷺ: **«هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»**[3].

قال النووي: «الظاهر من معنى الحديث أن هؤلاء كمل تفويضهم إلى الله عز وجل، فلم يتسببوا في دفع ما أوقعه بهم ولا شك في فضيلة هذه الحالة ورجحان صاحبها»[4].

وذهب آخرون إلى أن الاسترقاء غير قادح في التوكل منهم ابن قتيبة

---

(١) هو سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب من أحفاد الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي كان إمامًا بارزًا في شتى العلوم توفي في شبابه وذلك سنة(١٢٣٣هـ) على يد إبراهيم باشا عندما استولى على الدرعية. الأعلام (٣/ ١٢٩)، معجم المؤلفين (١/ ٧٩٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد ص(١٦٥).

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ح(٦٥٤١)، (١١/ ٤١٣)، ومسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ح (٢٢٠)،(٣/ ٩٢).

(٤) شرح صحيح مسلم النووي (٣/ ٩٢).

وابن عبدالبر والمازري والقرطبي.

وقد استدلوا على ذلك بما ورد من منافع الأدوية، والحث على التداوي إضافة إلى فعل الرسول ﷺ وهو إمام المتوكلين وأن الرقى بأسماء الله هو غاية التوكل على الله فهو التجاء إليه، وتعويل عليه في كشف الضر والبلاء.

وأما الحديث السابق، فقد قال المازري فيه بعد أن بين أنه قد جاءت أحاديث كثيرة في منافع الأدوية، وكثرة تداوي الرسول ﷺ: فإذا ثبت هذا صح أن يحمل ما في الحديث على قوم يعتقدون أن الأدوية نافعة بطباعها كمايقول بعض الطبائعيين لا أنهم يفوضون الأمر إلى الله سبحانه وحده»(١).

لكن القرطبي رد قول المازري هذا فقال بعد سياقه لكلام المازري السابق: وهذا غير لائق بمساق الحديث ولا بمعناه إذ مقصوده: إثبات مزية وخصوصية لهؤلاء السبعين ألفًا، وما ذكره يرفع المزية والخصوصية، فإن مجانبة اعتقاد ذلك هو حال المسلمين كافة، ومن لم يجانب اعتقاد ذلك لم يكن مسلمًا، ثم إن ظاهر لفظ الحديث إنما هو «لا يرقون ولا يكتوون» أي لا يفعلون هذه الأمور، وما ذكره خروج عنه من غير دليل(٢).

ثم ذكر قول الداوودي(٣) وهو أن المراد أن هؤلاء يجتنبون فعل ذلك في الصحة، وأما في المرض فجائز، ورد عليه القرطبي بأن هذا وإن صح في بعض الرقى لم يصح في البعض الآخر، فالتعويذات من الرقى ويجوز أن يتعوذ من الشرور كلها قبل وقوعها وكذلك التطبب يجوز أن يتحرز من الأدواء قبل وقوعها.

ثم ذكر قول الخطابي الذي سبق ذكره، وإقرار القاضي عياض له ولم يعلق عليه.

---

(١) المعلم (١/ ٢٣١).

(٢) المفهم (١/ ٤٦٣).

(٣) هو أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداوودي البوشنجي كان من الأئمة الكبار في المذهب الشافعي توفي سنة (٤٦٧هـ). سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٢٢). معجم المؤلفين (٢/ ١٢٢).

وذكر قولاً آخر لم ينسبه لأحد، وهو أن استعمال الرقى والكي قادح في التوكل بخلاف سائر أنواع الطب؛ لأن باب الرقى والكي والطيرة موهوم، وما عداها غير موهوم، بل محقق، فيصير كالأكل للغذاء أو الشرب للري.

وردَّ أيضًا هذا القول وبيَّن أنه فاسد من وجهين: أحدهما أن أكثر أبواب الطب موهومة فلا معنى للتخصيص.

والثاني: أن الرقى بأسماء الله هو غاية التوكل على الله تعالى، فإذا كان هذا قادحًا في التوكل فليكن الدعاء والأذكار قادحًا في التوكل، ولا قائل به، ثم بيَّن أن الرسول رقى واسترقى، وفعل ذلك الخلفاء والسلف، فإذا كانت الرقى قادحة في التوكل ومانعة من اللحوق بالسبعين ألفًا، فالتوكل لم يتم للنبي ﷺ، ولا لأصحابه، ولا يكون بهذا أحد منهم من السبعين ألفًا، ولا يقول بهذا عاقل»[1].

ثم بيَّن رأيه في هذه المسألة فقال: «وأمَّا الرقى والاسترقاء: فما كان منه من رقى الجاهلية أو بما لا يعرف فواجب اجتنابه على سائر المسلمين وتركه حاصل من أكثرهم، فلا يكون اجتناب ذلك هو المراد هنا، ولا اجتناب الرقى بأسماء الله تعالى وبالمروي عن رسول الله ﷺ لما قدمناه من أنه التجاء إلى الله وتبرك بأسمائه.

ويظهر لي والله أعلم أن المقصود: اجتناب رقى لا تدخل في هذين القسمين كالرقى بأسماء الملائكة والنبيين والصالحين، أو بالعرش والكرسي والسموات والجنة والنار وما شاكل ذلك مما يعظم... هذا ما ظهر لي فمن ظهر له ذلك فليقبله شاكرًا، وإلاَّ فليتركه عاذرًا»[2].

ونحن نقول:نتركه ونعذره، فقد اجتهد ـ رحمه الله ـ فأخطأ، فالله يغفر له خطأه ويجازيه على اجتهاده. والذي يظهر والله أعلم رجحان القول الأول، ومقصودهم بطلب الإنسان الرقية من غيره، لا أنه يرقي نفسه هو،

---

(١) انظر: المفهم (١/ ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥).

(٢) المفهم (١/ ٤٦٦).

فهذا لا يدخل في الحديث قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «المسترقي يسأل غيره ويرجو نفعه، وتمام التوكل ينافي ذلك، والمراد وصف السبعين ألفًا بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم»(١).

التمائم :

جمع تميمة وهي ما يعلق على الإنسان أو الحيوان لدفع العين والآفات.

وقد كان هذا من أفعال الجاهلية الذين يظنون أن تعليق التمائم تقيهم وتصرف عنهم البلاء فنهاهم ﷺ عن هذا الفعل فقال: «**من علَّق تميمة فقد أشرك**»(٢).

وجاء عن أبي بشير الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره قال: فأرسل رسول الله ﷺ رسولاً: «**لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلَّا قطعت**»(٣).

قال القرطبي عند شرحه لهذا الحديث: اختلف العلماء في تقليد البعير وغيره من الحيوان والإنسان ما ليس بتعاويذ قرآنية مخافة العين، فمنهم من نهى عنه ومنعه قبل الحاجة وأجازه عند الحاجة إليه، ومنهم من أجازه قبل الحاجة وبعدها كما يجوز الاستظهار بالتداوي قبل حلول المرض»(٤).

وقال المازري: «الظاهر من مذهب مالك قصر النهي على الوتر خاصة وأجازه ابن القاسم بغير الوتر، وقال بعض أصحابنا فيمن قلد بعيره شيئًا

---

(١) الفتاوى (١/ ١٨٢، ٢٣٨) وانظر التفصيل في ذلك والردعلى أدلة القائلين بالقول الثاني في أحكام الرقى والتمائم للدكتور فهد بن ضويان السحيمي ص(٤٦).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٥٦) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٨٨٩) برقم (٤٩٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل ح(٣٠٠٥) (٦/ ١٦٤) ومسلم في كتاب اللباس والزينة باب كراهة قلادة الوتر في رقبة البعير ح(٢١١٥) (١٤/ ٣٤١).

(٤) المفهم (٥/ ٤٣٦).

ملونًا فيه خرز قال: إن كان للجمال فلا بأس به، وقد اختلف الناس في تقليد البعير وغيره من الحيوان والإنسان أيضًا ما ليس بتعاويذ قرآنية مخافة العين فمنهم من نهى عنه ومنعه قبل الحاجة إليه وأجازه عند الحاجة إليه لنفي ما أصابه من ضرر العين وشبهه ومنهم من أجازه قبل الحاجة وبعدها كما يجوز الاستظهار بالتداوي قبل حلول المرض»[١].

فأقول: إن أرادوا بغير التعاويذ القرآنية ما جاء من الأذكار النبوية فالخلاف فيه صحيح كما سنذكره.

وأما إن أرادوا ما ليس بتعاويذ قرآنية ممَّا تفعله الجاهلية من تعليق لأسماء الملائكة أو الجن أو ما فيه طلاسم غير معروفة أو ما ليس فيه كتابة كقطعة جلد أو نحاس فهذا لا شك في حرمته والمنع منه وهو شرك أكبر إن اعتقد المعلق أنه ينفعه ويدفع عنه الضر، وأما إن اعتقد أنه سبب، وأن النافع الضار هو الله وحده، فهذا شرك أصغر؛ لأنه اعتقد ما ليس بسبب سببًا[٢].

وأما ما كان بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ففيه خلاف بين العلماء من السلف والخلف، فأجازه جماعة ومنعه آخرون. والميل إلى المنع أولى، خصوصًا في هذه الأزمان التي تعلق فيها كثير من الناس بالبدع والخرافات والأوهام.

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ: «وأمَّا التعاليق التي فيها قرآن أو أحاديث نبوية، أو أدعية طيبة محترمة، فالأولى تركها لعدم ورودها عن الشارع، ولكونها يتوسل بها إلى غيرها من المحرم، ولأن الغالب على متعلقها أنه لا يحترمها ويدخل فيها المواضع القذرة»[٣].

---

(١) المعلم (٣/ ٨١).

(٢) انظر التمائم في ميزان العقيدة للدكتور علي العلياني ص(١٩، ٢٠).

(٣) القول السديد في مقاصد التوحيد، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات السعدي (٣/ ١٩).

المطلب الحادي عشر : التنجيم[١]**؛**

وهو من ادعاء علم الغيب الذي لا يعلمه إلاَّ الله سبحانه، وهو نوعان:

الأول: من اعتقد أن هذه الكواكب هي التي تدبر هذا الكون، ومنها يصدر الخير والشر والسعادة والنحوسة. والإجماع على كفر من اعتقد هذا الاعتقاد[٢].

الثاني: من اعتقد أن الله هو الخالق المدبر، ولكنه جعل هذه الكواكب علامات ودلالات على الحوادث الأرضية. وهذا مجمع على تحريمه، ولكن هل يكفر أم لا؟ اختلف العلماء في تكفيره على قولين:

الأول: من حكم بكفره؛ لأنه ادعى أن لهذه الكواكب دلالات على علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه.

وقد ذهب إلى هذا القرطبي المفسر[٣] والشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ حيث قال: «وينبغي أن يقطع بكفره؛ لأنها دعوى لعلم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه بما لا يدل عليه»[٤].

الثاني: من لم يحكم بكفره، وذهب إلى هذا، الإمام مالك وابن حجر وآخرون.

---

(١) قال الشيخ السعدي رحمه الله: التنجيم نوعان: نوع يسمى (علم التأثير): وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الكونية فهذا باطل ودعوى لمشاركة الله في علم الغيب الذي انفرد به أو تصديق لمن ادَّعى ذلك وهذا ينافي التوحيد لما فيه من هذه الدعوى الباطلة ولما فيه من تعلق القلب بغير الله ولما فيه من فساد العقل، لأنَّ سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان.

النوع الثاني: (علم التسيير) وهو: الاستدلال بالشمس والقمر والكواكب على القبلة والأوقات والجهات فهذا النوع لابأس به بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع إذا كان وسيلة إلى معرفة أوقات العبادات أو إلى الإهتداء به في الجهات فيجب التفريق بين مانهى عنه الشارع وحرمه وبين ما أباحه أو استحبه أو أوجبه فالأول هو المنافي للتوحيد دون الثاني. القول السديد في مقاصد التوحيد، المجموعة الكاملة لمؤلفات السعدي (٣/ ٣٢).

(٢) التنجيم والمنجمون للدكتور عبد المجيد المشعبي ص(٢٧٩).

(٣) تفسير القرطبي (١٩/ ١٩).

(٤) تيسير العزيز الحميد ص(٤٤٢).

قال ابن حجر: «ولم يتعين الكفر في حق من قال ذلك، وإنما يكفر من نسب الاختراع إليها، وأما من جعلها علامة على حدوث أمر في الأرض فلا»[١].

وقد بيَّن القرطبي كفر النوع الأول، وهو اعتقاد أن هذه الكواكب تدبر الكون، وذلك عند شرحه لقوله ﷺ لأصحابه إثر سماء كانت من الليل: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[٢].

قال القرطبي: «ظاهره أنه الكفر الحقيقي؛ لأنه قابل به المؤمن الحقيقي، فيحمل على من اعتقد أن المطر من فعل الكواكب وخلقها، لا من فعل الله تعالى، كما يعتقده بعض جهال المنجمين والطبائعيين العرب»[٣].

وأما النوع الثاني: الذين يعتقدون أن الكواكب دالة على علم الغيب ومعرفة حوادث الأرض، فقد بيَّن القرطبي فساد مذهبهم لكنه لم يحكم بكفرهم، حيث قال: «النجوم لا يعلم بها علم الغيب، ولا القضاء ولو كان كذلك لكانت الملائكة أعلم بذلك وأحق به، وكل ما يتعاطاه المنجمون من ذلك فليس شيء منه علمًا يقينًا، وإنما هو رجم بظن وتخمين بوهم، الإصابة فيه نادرة، والخطأ والكذب فيه غالب، وهذا مشاهد من أحوال المنجمين، والمطلوب من العلوم النجوميات ما يهتدى به في الظلمات،

---

(١) فتح الباري (٦/ ٣٤١).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأذان باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم ح(٨٤٦) (٢/ ٣٨٨) ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ح(٧١) (٢/ ٤١٩).

(٣) المفهم (١/ ٢٥٩) وقد بين أيضًا أنه لا يجوز اطلاقًا هذا اللفظ ولو اعتقد أنَّ الله هو خالق المطر فقال عمن فعل هذا: ليس بكافر ولكنه مخطيء من وجهين: أحدهما: أنه خالف الشرع وقد حذر من هذا الاطلاق. وثانيهما: أنه قد تشبه بأهل الكفر في قولهم وذلك لا يجوز لأنا قد أمرنا بمخالفتهم... فلو قال غير هذا اللفظ الممنوع يريد به الاخبار عما أجرى الله به سنته جاز. المفهم (١/ ٢٥٩).

وتعرف به الأوقات، وما سوى ذلك فمخارق وترهات، ويكفي في الرد عليهم ظهور كذبهم واضطراب قولهم، وقد اتفقت الشرائع على أن القضاء بالنجوم محرم مذموم»(١).

وأما المازري فقد حكم أيضًا بتكفير أصحاب القول الأول، فقال: «من اعتقد اعتقاد كثير من الفلاسفة في كون الأفلاك فاعلة لما تحتها، وكل فلك يفعل فيما تحته حتى ينتهي الأمر إلينا وسائر الحيوان والمعادن والنبات، ولا صنع للباري ـ سبحانه وتعالى ـ في ذلك فإن ذلك مروق من الإسلام»(٢).

وقال في شرحه للحديث السابق: «هذا يحمل على أن المراد به تكفير من اعتقد أن المطر من فعل الكوكب وخلقه، دون أن يكون خلقًا لله سبحانه كما يقول بعض الفلاسفة»(٣).

وأما النوع الثاني فقد ناقش المازري أصحابه وأطال في ذلك، وبيَّن أن هذه الكواكب ليس فيها دلالة على حوادث الأرض، وأن مرجع قولهم إلى النوع الأول، لكنه لم يصرح بكفرهم، فقال بعد مناقشتهم: «وهذه الطريقة تضعف طريقة الإسلاميين منهم الذين يقولون: لا خالق إلاَّ الله عز وجل، وإنما هي دلالة على الغيوب بدلالة أجراها الباري جلت قدرته كما أجرى الغيوم والسحب الثقيلة دلالة على الأمطار، وإن كانت ربما خابت؛ لأن ما يذكرونه من الطرق التي تتحصل المعرفة منها تتسع جدًّا، ولا تنضبط، والحذَّاق منهم يعترفون بهذا، وقد حاول القاضي ابن الطيب(٤) الاعتضاد في الرد عليهم بالسمعيات وما وقع من العموميات في أن لا يعلم الغيب إلاَّ الله ـ عز وجل ـ وما وقع أيضًا من الآثار عن النبي ﷺ في النجوم

(١) المفهم (٥/ ٦٣٨).
(٢) المعلم (٣/ ١٠٥).
(٣) المعلم (١/ ٢٠٠) وبين أنَّ هذه العبارة لاتجوز وإن اعتقد أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الخالق ولكن جعل في بعض الاتصالات من الكواكب دلالة على وقوع المطر لكنه لايكفر بذلك إذا عبر عنه بعبارة لايمنع الشرع منها ثم بين أنَّ الظن بمن قال ذلك من العوام إرادة هذا المعنى. انظر المعلم (١/ ٢٠٠).
(٤) هو القاضي أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني. انظر المعلم (١/ ٣٥٨).

بالتخصيص»[١].

المطلب الثاني عشر : الكهانة :

الكهانة كالتنجيم في دعوى علم الغيب ومنافاتها للتوحيد.

تعريف الكاهن :

قال القرطبي في تعريفه للكاهن: «الكاهن الذي يتعاطى علم ما غاب عنه»[٢].

وقال المازري: «الكاهن: يخبر عن غيب من طريق غير موثوق به»[٣]. وقال أيضًا: «الكهان قوم يزعمون أنهم يعلمون الغيب بأمور تلقى في نفوسهم»[٤].

وفرّق بين الكاهن والعرّاف فقال: «الكاهن الذي يخبر بالغيب المستقبل، والعراف: هو الذي يخبر بما أخفى، وقد حصل في الوجود»[٥].

استمداد الكهان :

إن ما يخبر به الكاهن من معلومات يستمده من مصادر عديدة موهومة، وقد بيَّن القرطبي ـ رحمه الله ـ نقلاً عن القاضي عياض أن الكهانة على أربعة أضرب، لكنه ذكر ثلاثة فقط، فقال: «قال القاضي أبوالفضل: الكهانة في العرب على أربعة أضرب:

أحدها: أن يكون للإنسان رئيٌّ من الجن يخبره بما يسترق من السمع، وهذا القسم قد بطل منذ بعث الله محمَّدًا ﷺ كما نص الله تعالى عليه في الكتاب[٦].

---

(١) المعلم (٣/ ١٠٦، ١٠٨).

(٢) المفهم (٢/ ١٣٩).

(٣) المعلم (١/ ٢٧٥).

(٤) المعلم (٣/ ١٠٥).

(٥) المعلم (٢/ ١٩١).

(٦) وقال في موضع آخر مبينًا منع ذلك بعد بعثة الرسول ﷺ: كانت الكهانة في الجاهلية في كثير من الناس شائعة فاشية وكان أهل الجاهلية يترافعون إلى الكهان في وقائعهم =

الثاني: أن يخبره بما يطرأ ويكون في أقطار الأرض، وما يخفى مما قرب أو بعد، وهذا لا يبعد وجوده، ونفت هذا كله المعتزلة وبعض المتكلمين وأحالوه، ولا استحالة، ولا بعد في وجود مثل هذا، لكنهم بعد يكذبون والنهي عام في تصديقهم والسماع منهم.

الثالث: التخمين والحزر، وهذا يخلق الله فيه لبعض الناس شدة قوة. لكن الكذب في هذا الباب أغلب قال: ومن هذا الباب العرافة وصاحبها عراف، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها، وقد يعتضد بعض أهل هذا الفن في ذلك بالزجر والطرق والنجوم وأسباب معتادة في ذلك، وهذا الفن هي العيافة ـ بالياء ـ وكلها ينطلق عليها اسم الكهانة»(١).

تحريم الكهانة والنهي عن إتيان الكهان:

قد جاءت النصوص في تحريم الكهانة والنهي عن إتيان الكهان وتصديقهم، قال القرطبي: «سؤالهم عن غيب ليخبروا به حرام وما يأخذون على ذلك حرام، ولا خلاف فيه؛ لأنه حلوان الكاهن المنهي عنه. قال أبوعمر: ويجب على ولي الحسبة أن يقيمهم من الأسواق وينكر عليهم أشد النكير، ولا يدع أحدًا يأتيهم لذلك، وإذا ظهر صدق بعضهم في بعض الأمور فليس ذلك بالذي يخرجهم عن الكهانة، فإن تلك الكلمة إما خطفة جني، أو موافقة قدر، ليغتر به بعض الجهال. ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاؤوا إلى هؤلاء الكهنة والعرَّافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل(٢)،

= وأحكامهم... وإنما كان الكاهن يتمكن من التكهن بواسطة تابعة من الجن وذلك أنَّ الجني كان يسترق السمع فيخطف الكلمة من الملائكة فيخبر بهاوليه فيتحدث بها ويزيد معها مئة كذبة كما قال رسول الله ﷺ فلما بعث الله رسوله ﷺ أرسلت الشهب على الجن فلم يتمكنوا مما كانوا يتمكنون منه قبل ذلك فانقطعت الكهانة لئلا يجر ذلك إلى تغيير الشرع ولبس الحق بالباطل لكنها وإن كانت قد انقطعت فقد بقي في الوجود قوم يتشبهون بأولئك الكهان فنهى رسول الله ﷺ عن أتباعهم. المفهم (٢/ ١٣٩).

(١) المفهم (٥/ ٦٣٢).

(٢) الآل الباطل انظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي ص(١٢٤٣).

ومن أديانهم على الفساد والضلال»[١].

وقال أيضًا: «نهى الرسول ﷺ عن اتباعهم؛ لأنهم كذبة ممخرقون مبطلون ضالون مضلون، فيحرم إتيانهم والسماع منهم، وقد كثر هذا النوع في كثير من نساء الأندلس، وكثير من رجال غير الأندلس، فليحذر من الإتيان إليهم والسماع منهم»[٢].

وعند شرحه لقوله ﷺ: «**من أتى عرَّافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**»[٣]. قال: «العرَّاف: هو الحازي والمنجم الذي يدعي الغيب، وهذا يدل على أن إتيان العرافين كبيرة، وظاهره أن صلاته في هذه الأربعين تحبط وتبطل»[٤].

وقل المازري: «نهاهم ﷺ عن إتيان الكهان؛ لأنهم يجرهم ذلك إلى تغيير الشرائع ثم يلبسون عليهم»[٥].

المطلب الثالث عشر: ما جاء في كراهية بعض الألفاظ:

أ ـ التسمي بملك الأملاك:

قال ﷺ: «**إن أخنع اسمٍ عند الله رجل يسمى ملك الأملاك، لا مالك إلَّا الله**»[٦].

فالذي تسمى بهذا الاسم قد تعدى على مقام الربوبية، إذ الله سبحانه هو ملك الأملاك، ولذا قال ﷺ: «**لا مالك إلَّا الله**». فالذي تسمى ملك

---

(١) المفهم (٥/ ٦٣٣).
(٢) المفهم (٢/ ١٤٠).
(٣) رواه مسلم في كتاب السلام باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان ح(٢٢٣٠) (١٤/ ٤٧٨).
(٤) المفهم (٥/ ٦٣٥) وقد جاء الوعيد هنا بعد قبول الصلاة وجاء برواية أخرى بالتكفير وفيه تقييد الكفر بتصديقه فيكون من صدقة وقع عليه الكفر ومن سأله ولم يصدقه لم تقبل صلاته أربعين يومًا. انظر تيسير العزيز الحميد ص(٤٠٩).
(٥) المعلم (١/ ٢٧٥).
(٦) رواه البخاري في كتاب الأدب ، باب أبغض الأسماء إلى الله ح(٦٢٠٦) (١٠/ ٦٠٤) ومسلم في كتاب الآداب باب تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك ح(٢١٤٣) (١٤/ ٣٦٨).

الأملاك أو ملك الملوك، قد بلغ الغاية من الكفر والكذب[١].

قال القرطبي: «المسمى بهذا الاسم قد انتهى من الكبر إلى الغاية التي لا تنبغي لمخلوق وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق إذ لا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلاَّ على الله تعالى فعوقب على ذلك من الإذلال والإخساس والاسترذال بما لم يعاقب به أحد من المخلوقين»[٢].

قل ابن القيم: «لما كان الملك الحق لله وحده، ولا ملك على الحقيقة سواه، كان أخنع اسم وأوضعه عنده وأغضبه له اسم «شاهان شاه» أي ملك الملوك، وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير الله فتسميته بهذا من أبطل الباطل»[٣].

ب ـ كلمة (لو):

من كمال التوحيد الاستسلام للقضاء والقدر، والعبد مأمور عند المصائب بالصبر والاحتساب وقول «لو» لا يرد القدر، بل ربما دل على التضجر والاعتراض على القدر[٤].

قال ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»[٥].

قال القرطبي: «نهي الرسول ﷺ في هذا الحديث عن قول «لو» محمول على من يقول ذلك معتمدًا على الأسباب معرضًا عن المقدور، أو متضجرًا منه، كما حكاه الله من قول المنافقين حيث قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[٦] ثم رَّد الله قولهم، وبيَّن عجزهم فقال: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص(٦١٢).
(٢) المفهم (٥/ ٤٥٥).
(٣) زاد المعاد(٢/ ٣٤٠).
(٤) انظر: تيسير العزيز الحميد ص(٦٦١).
(٥) رواه مسلم في كتاب القدر باب الأمر بالقوة وترك العجز ح(٢٦٦٤) (١٦/ ٤٥٥).
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨.

﴿ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾[١]. . . فالواجب عند وقوع المقدور التسليم لأمر الله، وترك الاعتراض على الله، والإعراض عن الالتفات إلى ما فات، فيجوز النطق بـ«لو» عند السلامة من تلك الآفات»[٢].

وأمَّا ما جاء في الأحاديث مما يخالف ظاهره هذا الحديث، فالصحيح أنه لا تعارض بينها، إذ كل ما جاء خبر عن مستقبل لا اعتراض فيه على قدر، ولا كراهة، وإنما المنهي عنه ما كان في معارضته القدر مع اعتقاد أن ذلك المانع لو يقع لوقع خلاف المقدور[٣].

جـ ـ القول للمملوك : عبدي، وللسيد: ربي :

قال ﷺ: «**لا يقل أحدكم أطعم ربك، وضِّىء ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي**»[٤].

قال الخطَّابي: «وسبب المنع أن الإنسان مربوب معبد بإخلاص التوحيد لله تعالى، وترك الإشرك به، فترك المضاهاة بالاسم لئلا يدخل في معنى الشرك، ولا فرق بين الحر والعبد، وأما من لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجمادات فلا يكره أن يطلق عليه عند الإضافة كقوله: رب الدار والثوب»[٥].

وقد اختلف في هذا النهي هل هو للتحريم، أم للأدب والتنزيه؟ خصوصًا مع ماورد من النصوص المخالفة لهذا النهي.

قال القرطبي عن هذا الحديث: «هذا كله من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى لا أن إطلاق ذلك الاسم محرم، ألا ترى قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾[٦] وقول النبي ﷺ: «**أن تلد الأمة ربَّها**

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨.
(٢) المفهم (٤/٦٣٨).
(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد ص(٦٦٧، ٦٦٨).
(٤) رواه مسلم في كتاب الألفاظ من الأدب و غيرها باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد ح(٢٢٤٩) (١٥/٨).
(٥) تيسير العزيز الحميد ص(٦٥٣)
(٦) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

وربتها»(١) فكان محل النهي في هذا الباب ألا تتخذ هذه الأسماء عادة فيترك الأولى والأحسن. . . ولما كان ابتداء التربية وكمالها من الله تعالى بالحقيقة لا من غيره، كان الأولى بالإنسان ألا ينسب تربية نفسه إلاَّ إلى من إليه الربوبية الحقيقية، وهو الله تعالى فإن مثل ذلك كان متجوزًا في اللفظ مخالفًا للأولى»(٢).

وقال عن قوله ﷺ: «**لا يقل العبد: ربي، وليقل: سيدي**»، قال: «إنما فرق بينها؛ لأن الرب من أسماء الله المستعملة بالاتفاق، واختلف في السيد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا؟ فإذا قلنا: ليس من أسمائه فالفرق واضح، إذ لا التباس ولا إشكال يلزم من إطلاقه، كما يلزم من إطلاق الرب، وإذا قلنا: إنه من أسمائه فليس في الشهرة، والاستعمال كلفظ الرب فيحصل الفرق بذلك وأما من حيث اللغة فالرب مأخوذ مما ذكرنا(٣) والسيد من السؤدد وهو التقدم يقال: ساد قومه: إذا تقدمهم ولا شك تقدم السيد على غلامه فلما حصل الافتراق جاز الإطلاق»(٤).

المطلب الرابع عشر: نسبة الحوادث إلى الدهر:

قال ﷺ قال الله تعالى: «**يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدهر، وأنا الدهر أقلب الليل والنهار**»(٥).

قال القرطبي: «يراد بابن آدم هنا: أهل الجاهلية ومن جرى مجراهم ممن يطلق هذا اللفظ، ولا يتحرز منه، فإن الغالب من أحوال بني آدم إطلاق نسبة الأفعال إلى الدهر فيذمونه ويسفهونه إذا لم تحصل لهم أغراضهم ويمدحونه إذا حصلت لهم وأكثر ما يوجد ذلك في كلام الشعراء والفصحاء، ولا شك في كفر من نسب تلك الأفعال أو شيئًا منها للدهر

---

(١) سبق تخريجه ص(١٠٦).

(٢) المفهم (٥/ ٥٥٢).

(٣) قال الرب أصله من ربَّ الشيء والولد يربه ورباه يربيه: إذا قام عليه بمايصلحه ويكمله فهو: ربٌّ ورابٌّ. المفهم (٥/ ٥٥٣).

(٤) المفهم (٥/ ٥٥٤).

(٥) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب لاتسبوا الدهر ح(٦١٨١) (١٠/ ٥٨٠) ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها باب النهي عن سب الدهر(٢٢٤٦) (١٥/ ٥).

حقيقة واعتقد ذلك.

وأما من جرت هذه الألفاظ على لسانه ولا يعتقد صحة تلك فليس بكافر، ولكنه قدتشبه بأهل الكفر وبالجاهلية في الإطلاق، وقد ارتكب ما نهاه رسول الله ﷺ عنه فليتب وليستغفر الله تعالى»[١].

وقال أيضًا: «لما كان اعتقاد أهل الجاهلية أن الدهر هو الذي يفعل الأفعال ويذمونه إذا لم تحصل أغراضهم أعلمهم النبي ﷺ أن الله يفعل كل شيء، فإذا سبوا الدهر من حيث: أنه الفاعل ولا فاعل إلاَّ الله، فكأنهم سبوا الله تعالى فلذلك قال الله تعالى: **«يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر»**. أي أنا الذي أفعل ما ينسبونه للدهر لا الدهر، فإنه ليل ونهار[٢].

وقال المازري: المراد أنهم كانوا ينسبون الأفعال لغير الله سبحانه وتعالى جهلاً بكونه عز وجل خالق كل شيء ويجعلون له شريكًا في الأفعال، فأنكر عليهم هذا الاعتقاد وأراد أن الذي يشيرون إليه بأنه يفعل هذه الأفعال هو الله جلت قدرته ليس هو الدهر، كما لو قال قائل: القاضي فلان قتل فلانًا الزاني، فيقول الآخر: الشرع قتله لم يقتله القاضي، أو يقول: الشرع هو القاضي، وإنما يعني أنه يجب إضافة الشيء إلى ما هو الأصل فيه، أو التنبيه على غلط القائل وإرشاده لموضع الصواب، إذا ظن به أنه خفي عنه»[٣].

---

(١) المفهم (٥/ ٥٤٧).

(٢) المفهم (٥/ ٥٤٧).

(٣) المعلم (٣/ ١١١).

المبحث الرابع
البدع والموقف من الفرق المبتدعة

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: **ما يعصم من البدع**

المطلب الثاني: **تعريف البدعة والموقف من المبتدعة**

المطلب الثالث: **الكلام على بعض الفرق المبتدعة:**

١ ـ الخــوارج.

٢ ـ الصـوفـية.

٣ ـ المعـتزلـة.

٤ ـ الشــيعة.

٥ ـ القــدريـة.

٦ ـ المـرجـئة.

٧ ـ الأشـاعـرة.

المبحث الرابع
البدع والموقف من الفرق المبتدعة

إن من أصول أهل السنة والجماعة إنكار البدع في الدين، والتحذير منها، مع الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة، والسير على منهج سلف الأمة.

وقد كان للقرطبي ـ رحمه الله ـ كلامٌ نفيسٌ في هذا الجانب حذر فيه من البدع والمبتدعين، وأوصى بالتمسك بالكتاب والسنة، والاقتداء بالسلف الصالح، وكشف عوار هذه الفرق المنحرفة والنحل الضالة، مع ما وقع فيه ـ رحمه الله ـ من الخطأ والزلل، والوقوع في بعض ما حذر منه، خصوصًا في باب الأسماء والصفات، كما سيتبين بعد ذلك ـ إن شاء الله ـ وسيكون الحديث هنا من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول : ما يعصم من البدع:

١ـ الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة :

إن منهج المسلم المستسلم لله تعالى الاتباع وترك الابتداع، الاتباع لما جاء فى الكتاب والسنة، إذ هما المصدران الأساسيان لمعرفة ما يحب الله ويكره، ولذا فالذين ضلوا الطريق من المبتدعة المنحرفة كان ذلك بسبب بعدهم عن هذه المصادر الأصلية إلى غيرها من الطرق المعوجة والوسائل المضلة.

قال القرطبي في الرد على هؤلاء: «وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي واليقين الضروري، وإجماع السلف والخلف على ألا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شيء منها إلاَّ عن طريق الرسل الكرام، فمن قال: إن هناك طريقًا آخر يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل بحيث يستغنى بها عن الرسل، فهو كافر يقتل، ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب»[(١)].

---

(١) المفهم (٦/ ٢١٩).

٢ ـ ذم الكلام وتقديم العقل على الشرع[١] :

الكتاب والسنة وافيان بكل شيء إذ فيهما الهدى والنور، والصلاح والفلاح، ومن بحث عن ذلك في غيرهما فقد ضلَّ كما كان حال المبتدعة الذين سلكوا علم الكلام، فقدَّموا العقل على الشرع، فكان هذا منهم ابتداعًا في دين الله، وسببًا للانحراف والضلال، وقد قال القرطبي في بيان ضلال المتكلمين وخصومتهم في أصول الدين: «أشد ذلك الخصومة في أصول الدين كخصومة أكثر المتكلمين المعرضين عن الطرق التي أرشد إليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وسلف أمته إلى طرق مبتدعة، واصطلاحات مخترعة ـ ثم تحدث عن دخولهم في مسالك أمسك عنها السلف، حتى قال: ـ إلى غير ذلك من الأبحاث المبتدعة، التي لم يأمر الشرع بالبحث عنها، وسكت أصحاب النبي ﷺ ومن سلك سبيلهم عن الخوض فيها، لعلمهم بأنها بحث عن كيفية ما لا تعلم كيفيته، فإن العقول لها حد تقف عنده... ويكفي في الردع عن الخوض في طرق المتكلمين ما قد ورد في ذلك عن الأئمة المتقدمين... عصمنا الله من بدع المبتدعين، وسلك بنا طريق السلف الماضين، وإنما طوَّلت في هذه المسألة الأنفاس لما قد شاع من هذه البدع في الناس»[٢].

٣ ـ سلوك منهج السلف :

إن المخرج من الفتن والاعتصام من البدع، يكون بالالتزام بسنة الرسول ﷺ، وسنة الخلفاء من بعده، والاقتداء بالصحابة الكرام ومن بعدهم من أئمة الإسلام، فمن اقتدى بهم صار أقوم الناس سبيلاً، وأحسنهم طريقًا، ومن انحرف عن منهجهم وأراد الهدى في غير مسلكهم فقد ضل ضلالاً بعيدًا.

وقد بيَّن القرطبي أن الهدي هدي الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وأنهم القدوة لمن بعدهم، فقال: «الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لثقابة أذهانهم، وصحة فهومهم وغزارة علومهم أولى بالعلم ممن بعدهم، كيف لا، وهم

---

(١) انظر أول واجب على المكلف والرد على المتكلمين في هذه الرسالة ص(١٤٧)
(٢) المفهم (٦/ ٦٩٠ـ ٦٩٤).

أئمة الهدى، وبهم إلى كل العلوم يقتدى، وإليهم المرتجع وقولهم المتبع»[١].

وقال في الوصية باتباع منهج السلف، وضلال من خالفه: «لم يخض في شيء من تلك الأساليب السلف الماضون، فمن المحال والهذيان أن يشترط في صحة الإيمان ما لم يكن معروفًا، ولا معمولاً به لأهل ذلك الزمان، وهم من هم فهمًا عن الله، وأخذًا عن رسول الله، وتبليغًا لشريعته، وبيانًا لسنته وطريقته»[٢].

المطلب الثاني: تعريف البدعة والموقف من المبتدعة:

تعريف البدعة:

قال القرطبي في تعريف البدعة: «حقيقة البدعة ما ابتدىء وافتتح من غير أصل شرعي، وهي التي قال فيها ﷺ: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**»[٣]»[٤].

وقد قال ﷺ: «... **شر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»[٥].

قال القرطبي في شرحه لهذا الحديث: «يعني المحدثات التي ليس لها في الشريعة أصل يشهد لها بالصحة والجواز، وهي المسماة بالبدع، ولذا حكم عليها بأن كل بدعة ضلالة»[٦].

فالموقف من هذه البدع رفضها، وعدم العمل بها؛ لأنها ليست من شرع الله تعالى، قال القرطبي: «من اخترع في الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فهو منسوخ لا يعمل به ولا يلتفت إليه»[٧].

---

(١) المفهم (١/ ٣٣٨).
(٢) المفهم (١/ ١٤٦).
(٣) سبق تخريجه ص(١٤٠).
(٤) المفهم (٢/ ٥٠٨).
(٥) رواه مسلم في كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة ح(٨٦٧)، (٦/ ٤٠٣).
(٦) المفهم (٢/ ٥٠٨).
(٧) المفهم (٥/ ١٧١).

الموقف من المبتدعة :

إن صاحب البدعة قد جاء بأمر لم يأذن به الله، فكأنه قد استدرك على صاحب الشريعة ﷺ، ولذا كان للسلف الصالح رضي الله عنهم الموقف الحازم من المبتدعة بما يتناسب مع بدعتهم، ويتضح هذا من خلال النقاط التالية:

*** التحذير من التشبه بالمبتدعة :**

لأنه إذا كان الشرع قد نهى عن البدعة، فإن التشبه بالمبتدعة منهيٌّ عنه؛ لقوله ﷺ: «**من تشبَّه بقوم فهو منهم**»(١). قال الصنعاني ـ رحمه الله ـ معلِّقًا على هذا الحديث: «والحديث دالٌ على أن من تشبَّه بالفُسَّاق كان منهم، أوبالكفار أو بالمبتدعة في أي شيء مما يختصون به من ملبوس أو مركوب أو هيئة»(٢).

قال القرطبي في معرض تعداده لعلل النهي عن الصلاة على غير الأنبياء: «وينضاف إلى ذلك: أن أهل البدع قد اتخذوا ذلك شعارًا لهم في الدعاء لأئمتهم وأمرائهم، ولا يجوز التشبه بأهل البدع»(٣).

*** جواز غيبتهم :**

قرر القرطبي جواز غيبة المبتدع، فقال في شرحه لحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي قالت فيه: «**إن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: ائذنوا له، فلبئس أخو العشيرة ـ أو بئس ابن العشيرة**»(٤): «ففي حديثه من الفقه: جواز غيبة: المعلن بفسقه، ونفاقه، والأمير الجائر، وصاحب البدعة»(٥).

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٥٠) وأبو داود في كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٥٩) برقم(٦١٤٩).

(٢) سبل السلام للصنعاني (٤/ ٣٤٨).

(٣) المفهم (٢/ ٤٢).

(٤) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب مايجوز من اغتياب أهل الفساد والريب ح(٦٠٥٤)(١٠/ ٤٨٦). ومسلم في كتاب البر والصلة، باب مدارة من يتقي فحشه ح(٢٥٩١) (١٦/ ٣٨٠).

(٥) المفهم (٦/ ٥٧٣).

وقد تكلم السلف على ذلك، وبيَّنوا أن المقصود منه تحذير الناس من صاحب البدعة، حتى لا يتأثروا به.

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «ليس لأهل البدعة غيبة».

وقال أيضًا في رواية أخرى: «ليس لصاحب بدعة ولا لفاسق يعلن بفسقه غيبة»(١).

قال الشاطبي(٢) ـ رحمه الله ـ مبيِّنًا هدف غيبة المبتدع عند حديثه عن أحكام أهل البدع: «... ذكرهم بما هم عليه وإشاعة بدعتهم كي يحذروا ولئلا يغتر بكلامهم، كما جاء عن كثير من السلف ذلك»(٣).

*** هجرهم:**

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «أصول أهل السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم، وترك البدع وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات، والجلوس مع أصحاب الأهواء»(٤).

قال القرطبي: «وأما الهجران لأجل المعاصي والبدعة فواجب استصحابه إلى أن يتوب من ذلك ولا يختلف في هذا»(٥).

قلت: ضابط هذا أن يكون للمصلحة الراجحة، أما إذا أدَّى إلى مفسدة أعظم من هذه المصلحة، فلا يشرع إضافة إلى تفريق العلماء بين صاحب البدعة المعلن لبدعته أو الداعي إليها، ومن ليس كذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته، لم

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/١٥٨).

(٢) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي الإمام الفقيه الأصولي المحدث من أئمة المالكية كان مدافعًا عن السنة محاربًا للبدعة، له مصنفات نافعة منها«الإعتصام» و«الموافقات» توفي سنة(٧٩٠هـ)، شجرة النور الزكية(٢٣١)، معجم المؤلفين (١/٧٧).

(٣) الاعتصام (١/١٧٦).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي(١/١٥٦).

(٥) المفهم (٦/٥٣٤).

يشرع الهجر»[١].

* ترك الصلاة عليهم :

قال القرطبي: «يكره لأهل الفضل الصلاة على المعلن بالبدع والكبائر»[٢].

وقال في موضع آخر: «على أن أهل الفضل يجتنبون الصلاة على المبتدعة والبغاة وأصحاب الكبائر رادعًا لأمثالهم»[٣].

وتخصيص القرطبي ذلك بأهل الفضل هو الصحيح، إذ يكون هذا رادعًا لأمثالهم من أهل البدع مع ما فيه من تحذير لعامة الناس عن مسالكهم، فيكون الإنكار عليهم من أهل الفضل في حياتهم وبعد مماتهم، وإلاَّ فالصلاة من عموم المسلمين مشروعة على المبتدع ما لم تصل به بدعته إلى الكفر.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وأما من كان مظهرًا للفسق مع ما فيه من الإيمان، كأهل الكبائر، فهؤلاء لابد أن يصلي عليهم بعض المسلمين، ومن امتنع من الصلاة على أحدهم زجرًا لأمثاله عن مثل ما فعله، كما امتنع النبي ﷺ عن الصلاة على قاتل نفسه، وعلى الغال، وعلى المدين الذي لا وفاء له، وكما كان كثير من السلف يمتنعون من الصلاة على أهل البدع كان عمله بهذه السنة حسنًا»[٤].

* عدم الاعتداد بخلافهم، وعدم قبول روايتهم :

قال القرطبي في بيان اتفاق السلف والخلف على تقديم الصديق ـ رضي الله عنه ـ وأفضليته: «ولم يختلف في ذلك أحدٌ من أئمة السلف، ولا الخلف، ولا مبالاة بأقوال أهل التشيع، ولا أهل البدع، فإنهم بين مكفر تضرب رقبته، وبين مبتدع مفسق لا تقبل كلمته، وتدحض حجته»[٥].

---

(١) الفتاوى (٢٨/٢٠٦).
(٢) المفهم (٢/٦٠٨).
(٣) المفهم (٢/٦٣٨).
(٤) الفتاوى (٢٤/٢٨٦).
(٥) المفهم (٦/٢٣٨).

وقال أيضًا: «ولا مبالاة بخلاف أهل البدع في بعض هذه المسائل، فإنهم مسبوقون بإجماع السلف، وأيضًا فإنهم لا يعتد بخلافهم»(١).

وقال عن قبول رواية المبتدع: «الفاسق المتأول الذي لا يعرف فسق نفسه، ولا يُكَفَّر ببدعته، فقد اختلف في قبول قوله، فقبل الشافعي شهادته، وردها القاضي أبوبكر(٢)، وفرَّق مالك بين أن يدعو إلى بدعة فلا تقبل، أو لا يدعو فتقبل، وروي عنه: أنه لا تقبل شهادتهم مطلقًا، وكلهم اتفقوا على أن من كانت بدعته تجرئه على الكذب كالخطابية من الرافضة لم تقبل روايته ولا شهادته»(٣).

المطلب الثالث : الكلام على بعض الفرق المبتدعة :

١ ـ الخوارج :

الخوارج أول الفرق المبتدعة ظهورًا، إذ سموا بهذا الاسم لخروجهم على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يوم الحكمين، وهم يكفرون صاحب الكبيرة ويرون أنه مخلد في النار، ولذا كفروا عامة الصحابة الذين عاصروهم.

والقرطبي ـ رحمه الله ـ أكثر من الرد عليهم، والحديث عنهم، وبيان أصل نشأتهم، وسبب ضلالتهم، والخلاف في تكفيرهم. يتبين هذا من خلال النقاط التالية:

سبب التسمية :

قال القرطبي: «سموا: المارقة، والخوارج؛ لأنهم مرقوا من الدين، وخرجوا على خيار المسلمين»(٤).

«والحرورية: الخوارج سموا بذلك؛ لأنهم خرجوامن حروراء وهي

---

(١) المفهم (٤/ ١٥).

(٢) محمد بن عبد الله المشهور بابن العربي صاحب كتاب «العواصم من القواصم»، (٢/ ٦٣٩، ٦٥٧).

(٣) المفهم (١/ ١٠٨). وانظر: موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع للدكتور إبراهيم بن عامر الرحيلي (٢/ ٦٣٩، ٦٥٧).

(٤) المفهم (٣/ ١٠٩).

حرة معروفة بالعراق»(١).

ضلالتهم وعظم الابتلاء بهم :

قال القرطبي: «خرجت الخوارج فكفروه ـ أي علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وكل من معه وقالوا: حكمت الرجال في دين الله، والله تعالى يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾(٢) ثم اجتمعوا وشقوا عصا المسلمين، ونصبوا راية الخلاف، وسفكوا الدماء، وقطعوا السبيل»(٣).

وقال أيضًا: «لما حكموا بكفر من خرجوا عليه من المسلمين استباحوا دماءهم وتركوا أهل الذمة وقالوا: نفي لهم بذمتهم، وعدلوا عن قتال المشركين، واشتغلوا بقتال المسلمين عن قتال المشركين، وهذا كله من آثار عبادات الجهال الذين لم يشرح الله صدورهم بنور العلم، ولم يتمسكوا بحبل وثيق، ولا صحبهم في حالهم ذلك توفيق. . . ويكفي من جهلهم وغلوهم في بدعتهم حكمهم بتكفير من شهد له رسول الله بصحة إيمانه، وبأنه من أهل الجنة كعلي وغيره من صحابة رسول الله ﷺ»(٤).

وعند شرحه لقوله ﷺ: «**إذا قال الرجلُ هلَكَ الناسُ فهو أهلكهم**»(٥). قال: «قد يغلب على القائل رأي الخوارج فيهلك الناس بالخروج عليهم، ويشق عصاهم بالقتال وغير ذلك كما فعلت الخوارج، فيكون قد أهلكهم حقيقة وحسًا»(٦).

سبب خروجهم :

بيَّن القرطبي أن خروج الخوارج على المسلمين لم يكن طلبًا لدنيا ولا حبًا في رياسة، ولكنهم جهلوا الأحكام، فخالفوا أئمة الإسلام.

قال القرطبي: «حملهم على الخروج الغيرة للدين لا شيء من

---

(١) المفهم (٣/ ١١١).

(٢) الأنعام، الآية: ٥٧.

(٣) المفهم (٦/ ٢٧٠).

(٤) المفهم (٣/ ١١٤، ١١٥).

(٥) رواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب النهي من قول هلك الناس ح(٢٦٢٣) (١٦/ ٤١٣).

(٦) المفهم (٦/ ٦٠٩).

العصبية والملك، لكنهم أخطأوا التأويل، وحرَّفوا التنزيل»[١].

لكنهم لا يعذرون على فعلهم هذا، إذ ليس محلاً للاجتهاد، وهم ليسوا من أهله.

قال القرطبي وهو يتحدث عن عدم لوم من اجتهد في أمر يسوغ فيه الاجتهاد، فأخطأ؛ لأن هذه الأمور اجتهادية، وليس فيها نصوص قطعية، حيث قال مستثنيًا هؤلاء: «ويستثنى من ذلك قتلة عثمان، فإنه لم يرتكب ما يوجب خلعه، ولا قتله، والخوارج على عليّ والمسلمين، فإنهم حكموا بكفر الجميع، فهاتان الطائفتان مخطئتان قطعًا»[٢].

*** الحكم على الخوارج:**

قال القرطبي: «بظاهر هذا التشبيه[٣] تمسك من حكم بتكفيرهم من أئمتنا، وقد توقف في تكفيرهم كثير من العلماء لقوله ﷺ: «**فيتمارى في الفُوقِ**» وهذا يقضي بأنه يشك في أمرهم، فيتوقف فيهم، وكأن القول الأول أظهر من الحديث، فعلى القول بتكفيرهم: يقاتلون ويقتلون وتسبى أموالهم، وهو قول طائفة من أهل الحديث في أموال الخوارج، وعلى قول من لا يكفرهم: لا يجهز على جريحهم ولا يتبع منهزمهم ولا تقتل أسراهم، ولا تستباح أموالهم، وكل هذا إذا خالفوا المسلمين، وشقوا عصاهم، ونصبوا راية الحرب، فأما من استتر ببدعته منهم، ولم ينصب راية الحرب، ولم يخرج عن الجماعة، فهل يقتل بعد الاستتابة أو لا يقتل وإنما يجتهد في رد بدعته ورده عنها؟ اختلف في ذلك وسبب الخلاف في تكفير من هذه حاله: أن باب التكفير بابٌ خطير أقدم عليه كثير من الناس فسقطوا، وتوقف فيه الفحول فسلموا، ولا نعدل بالسلامة شيئًا»[٤].

وفي موضع آخر بيَّن عدم كفرهم، وذلك عند شرحه لقوله ﷺ: «**لا**

---

(١) المفهم (٤/ ٦٠).

(٢) المفهم (٦/ ٦٢٠).

(٣) وهو قوله ﷺ: «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**» أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب إثم من راءى بقراءة القرآن ح(٥٠٥٨) (٨/ ٧١٧).

(٤) المفهم(٣/ ١١٠).

يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلَّا الله وأني رسول الله إلَّا بإحدى ثلاث: الثيِّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(١) حيث قال: «قوله: «المفارق للجماعة» ظاهره: أنه أتىٰ به نعتًا جاريًا على التارك لدينه، لأنه إذا ارتد عن دين الإسلام، فقد خرج عن جماعتهم، غير أنه يلحق بهم في هذا الوصف كل من خرج عن جماعة المسلمين، وإن لم يكن مرتدًا كالخوارج وأهل البدع إذا منعوا أنفسهم من إقامة الحد عليهم، وقاتلوا عليه، وأهل البغي والمحاربين ومن أشبههم»(٢).

أما المازري فعند شرحه لحديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ في ذكر الخوارج ووصفهم الذي قال فيه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج في هذه الأمة ـ ولم يقل منها ـ قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية**»(٣).

قال المازري: «يتعلق بظاهر هذا الحديث من يرى تكفيرهم، وقد اختلف أهل الأصول في تكفيرهم، وقد ينفصل عن هذا من لا يرى تكفيرهم بأن يحمل قتلهم على أنه كالحد لهم على بدعتهم، ويشير إلى هذا قوله عليه السلام: «**يقتلون أهل الإسلام**»»(٤).

وفي موضع آخر أشار المازري إلى دقة فهم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وذلك لتفريق أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ بين قوله ﷺ: «يخرج في هذه الأمة» وليس «من هذه الأمة»، وقد بيَّن المازري أنه وردت روايات فيها عبارة «من هذه الأمة»، ثم أشار إلى اختلاف الناس في تكفيرهم لشدة إشكال المسألة، حتى إن كثيرًا من العلماء يتهرب من الإجابة

---

(١) رواه مسلم في كتاب القسامة، باب ما يباح من دم المسلم ح(١٦٧٦) (١١/ ١٧٦).
(٢) المفهم (٥/ ٤٠).
(٣) رواه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم ح(٦٩٣١) (١٢/ ٢٩٥)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ح(١٠٦٤) (٧/ ١٦٦).
(٤) المعلم (٢/ ٢٤).

على ذلك لصعوبة إدخال كافر بالملة، أو إخراج مسلم منها، ولذا نقل عن بعض العلماء قوله: إن هذه المسألة من المعوصات؛ لأن القوم لم يصرحوا بنفس الكفر، وإنما قالوا أقوالاً تؤدي إليه، ثم بيَّن المازري أن التكفير بلازم القول موضع إشكال ولم يصرح بتكفير الخوارج من عدمه»[١].

الرد عليهم :

أكثر القرطبي ـ رحمه الله ـ من الرد على الخوارج فيما ذهبوا إليه من البدع والانحرافات والتي أعظمها تكفيرهم لمرتكب الكبيرة وإخراجهم له من الإسلام وحكمهم عليه بالخلود في النار، وقد خالفوا في هذه المسألة، وفي غيرها جماعة المسلمين، وخرجوا عليهم، وقد قال القرطبي في بيان أن مخالفتهم لا يعتد بها، ولا يلتفت إليها: ولا التفات لإنكار الخوارج والنظَّام، الرجم، إما لأنهم ليسوا بمسلمين عند من يكفرهم، وإما لأنهم لا يعتد بخلافهم لظهور بدعتهم وفسقهم»[٢].

ولا مجال هنا لتتبع ردوده عليهم، ولا على الفرق الأخرى التي سيأتي الحديث عنها إذ هذا مفرق في ثنايا الرسالة، ولكن سأحيل إلى أرقام الصفحات في الهامش[٣].

٢ ـ الصوفية :

كانت بداية التصوف عبارة عن تمسك بالأخلاق والزهد في الدنيا، ثم انحرف مفهومه إلى الانقطاع عن الدنيا والعلم، ثم انحرف إلى عقائد باطلة، كالحلول والاتحاد، وترك الواجبات، وفعل المحرمات وغيرها من الانحرافات[٤].

والقرطبي ـ رحمه الله ـ كانت له صولات وجولات مع هذه الطائفة

---

(١) انظر: المعلم(٢/ ٢٥، ٢٦).

(٢) المفهم (٥/ ٨٤)، وانظر أيضًا (١/ ٤٣٧، ٥٩٥)، (٤/ ٦)، (٥/ ٨٤).

(٣) انظر: الرد عليهم، المفهم (١/ ٢٤٧) (٣/ ١٠٩، ٥٩٢)،(٤/ ٦، ٦٠)، (٥/ ٤٠، ٨٤، ٨٦، ١١٦، ١٤٢، ٦٣٥) (٦/ ٢٧٠، ٦٠٩، ٦٢٠) وأما المازري فانظر المعلم (١/ ١٩٤، ١٩٧) (٢/ ٢٤، ٢٦، ٢٦١).

(٤) انظر تلبيس إبليس لابن الجوزي ص(١٩٩) و الفلاسفة الإسلاميون والصوفية وموقف أهل السنة منهم للدكتور عبد الفتاح فؤاد ص(٦٥).

بين انحرافها وبعدها عن الحق فيما ابتدعته من الأباطيل كالغناء والمزامير، التي يتقربون فيها بزعمهم إلى الله تعالى إلى غير ذلك من الانحرافات التي وقعوا فيها، وسبب كثرة رده على هذه الطائفة انتشار التصوف في زمنه وكثرته، وانشغال الناس به عن العلم والتفقه، حيث قال مُشيرًا إلى ذلك: «مجالس العلم والتذكير هي المجالس التي يذكر فيها كلام الله وسنة رسوله، وأخبار السلف الصالحين، وكلام الأئمة الزُّهَّاد المتقدمين، المبرَّأَةُ عن التصنع والبدع، والمنزهة عن المقاصد الردية والطمع، وهذه المجالس قد انعدمت في هذا الزمان(١) وعوض منها الكذب والبدع ومزامير الشيطان نعوذ بالله من حضورها ونسأله العافية من شرورها»(٢).

ومجمل ردوده على هذه الطائفة تنحصر في النقاط التالية :

أ ـ الكشف الصوفي:

قصة الخضر مع موسى ـ عليه السلام ـ صرف الصوفية معانيها وأهدافها ومراميها وجعلوها عمودًا من أعمدة العقيدة الصوفية، حيث جعلوها دليلاً على أن هناك ظاهرًا شرعيًا وحقيقة صوفية تخالف الظاهر(٣).

وقد قال القرطبي عند ذكر قصة موسى مع الخضر في كتاب النبوات: «ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق يلزم منه هدُّ الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية إنما يحكم بها على الأغنياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل: إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم، قالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع والكليات،

---

(١) هذا منه رحمه الله مبالغة لا يوافق عليها إذ قد تبين لنا في مبحث الحياة العلمية في عصره في الباب الأول إزدهارها في زمنه وكثرة العلماء ومجالس العلم وأعظم دليل على ذلك ما وصل إلينا من التراث العلمي لذلك العصر.

(٢) المفهم (٧/ ١١).

(٣) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة لعبدالرحمن عبد الخالق ص(١٢٥).

كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما تجلى له من تلك العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم، وقد جاء فيما ينقلون استفت قلبك، وإن أفتاك المفتون.

قلت ـ أي القرطبي ـ: وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله، ولا يستتاب؛ لأنه إنكار ما علم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنته، وأنفذ حكمته، فإن أحكامه لا تعلم إلاَّ بواسطة رسله السفراء، بينه وبين خلقه، وهم المبلغون عنه رسالاته... فمن قال: إن هناك طريقًا آخر يعرف بها أمره ونهيه، غير الرسل، بحيث يستغنى بها عن الرسل فهو كافر يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبي بعده، ولا رسول، وبيان ذلك: أنه من قال: يأخذ عن قلبه، وإن ما وقع فيه هو حكم الله، وأنه يعمل بمقتضاه وأنه لا يحتاج في ذلك إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، فإن هذا نحو مما قاله رسوله: «**إن روح القدس نفث في روعي**»(١).

وقد سمعنا عن بعض الممخرقين المتظاهرين بالدين، أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت، وإنما أروي عن قلبي عن ربي، ومثل هذا كثير، نسأل الله الهداية والعصمة، وسلوك طريق سلف هذه الأمة، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله»(٢).

وقال في موضع آخر: «وقد شاهدت بعض الممخرقين وسمعنا منهم أنهم يعرضون عن القواعد الشرعية، ويحكمون بالخواطر القلبية، يقول: الشاهد المتصل بي أعدل من الشاهد المنفصل عني، وهذه مخرقة أبرزتها

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير(٨/ ١٦٦) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٧) وقال ابن كثير: أخرجه ابن حبان في صحيحه، انظر تفسير ابن كثير(١/ ١١٧) لكني لم أجده في صحيح ابن حبان كما ذكر ابن كثير وقال العجلوني عندما ذكر حديث «**اطلبوا الحوائج بعز الأنفس**» رواه ابن عساكر بسند ضعيف لكن يقويه ما رواه الطبراني وأبو نعيم ثم ذكر الحديث. كشف الخفاء ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس (١/ ١٥٥).

(٢) المفهم (٦/ ٢١٧).

زندقة يقتل صاحبها، ولا يستتاب، من غير شك ولا ارتياب»[١].

ب ـ في تقديسهم للأولياء:

رفع رموز الصوفية أنفسهم ودعوا الجهال والغوغاء إليهم وزعموا أن لهم ولاية خاصة ومكانة عند الله عالية.

قال القرطبي مبينًا عظم الابتلاء بهؤلاء في زمنه: «قد اغتر كثير من الجُهَّال بالأعمال، فلاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات، وإجابة الدعوات، وزعموا أنهم ممن يتبرك بلقائهم، ويغتنم صالح دعائهم، وأنهم يجب احترامهم وتعظيمهم فيتمسح بأثوابهم، وتقبل أيديهم، ويرون أن لهم المكانة عند الله بحيث ينتقم لهم ممن تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال، وهذه كلها نتائج الجهل العميم، والعقل غير المستقيم، فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه، غافل عن جرمه وذنبه، مغتر بإمهال الله عز وجل له عن أخذه، ولقد غلب أمثال هؤلاء الأنذال في هذه الأزمان، فاستتبعوا العوام، وعظمت بسببهم على أهل الدين المصائب والطوام، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وهذه نفثات مصدور وإلى الله عاقبة الأمور»[٢].

وقد ألزم الصوفية كل تابع لهم بأن يتخذ له شيخًا يلازمه، ولا يأخذ إلاَّ عنه، ويطيعه طاعة عمياء، وإن أمره بالسوء والفحشاء، وشعارهم في ذلك قولهم: «كن بين يدي شيخك كالميت بين يدي الغاسل»[٣] وقد بيَّن القرطبي انحراف الصوفية في هذا الجانب عند شرحه لقوله ﷺ: «**لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف**»[٤] حيث قال: «هذا الحديث يرد حكاية حكيت عن بعض مشايخ الصوفية، وذلك أن مريدًا له قال يومًا: قد حمي

---

(١) المفهم (٥/ ١٥٤).

(٢) المفهم (٧/ ٣٧٥).

(٣) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة لعبدالرحمن عبدالخالق ص(٣١٩).

(٤) رواه البخاري في كتاب أخبار الآحاد، باب ماجاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض، والأحكام ح(٧٢٥٧) (١٣/ ٢٤٥)، ومسلم في كتاب الإجازة، باب وجوب طاعة الأمراء من غير معصية وتحريمها في المعصية ح(١٨٤٠) (١٢/ ٤٦٩).

التنور، فماذا أصنع؟ فتغافل عنه، فأعاد عليه القول فقال له: ادخل فيه، فدخل المريد في التنور، ثم إن الشيخ تذكر فقال: الحقوه كان قد عقد على نفسه ألاَّ يخالفني، فلحقوه فوجده في التنور لم تضره النار. وهذه الحكاية أظنها من الكذب الذي كذب به على هذه الطائفة الفاضلة[(١)]، فكم قد كذب عليها الزنادقة وأعداء الدين، وبيان ما يحقق ذلك أن هذا الشيخ إما أن يكون قاصدًا لأمر ذلك المريد بدخول النار أو لا، فإن كان قاصدًا كان قصده ذلك معصية ولا طاعة فيها، بنص النبي ﷺ، ويكون امتثال المريد لذلك معصية، وكيف تظهر الكرامات على العصاة في حال معصيتهم؟ . . . وإن كان الشيخ غير قاصد لذلك ولا شاعر بما صدر عنه، فكيف يحل للمريد أن يلقي نفسه في النار بأمر غلط لا حقيقة له، ثم إن هذا المريد عاص بذلك الفعل، ولا يظهر على العاصي كرامة حال ملابسته للمعصية، ولو جاز ذلك لجاز للزناة وشربة الخمر والفسقة أن يدَّعوا الكرامات وهم ملابسون لفسقهم.

هذا مما لا يجوز إجماعًا وإنما تنسب الكرامات لأولياء الله، وهم أهل طاعته، لا إلى أولياء الشيطان، وهم أهل الفسق والعصيان»[(٢)].

وقد أطال في الرد عليهم، ورد تخريجهم هذه الحكاية بقولهم إن الشيخ أراد التأديب والمريد أطاعه لثقته بشيخه ووفائه له، واعتقاده أنه لا يأمره إلاَّ بمصلحة، فصح توكل المريد، فأنجاه الله، فبين أن هذه القيود لا تجيز فعل المحرم إجماعًا ولا تُهدُّ القواعد الشرعية لأجلها[(٣)].

جـ- في الوسوسة والغلو في الزهد:

قال ﷺ: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي

---

(١) ثناؤه عليهم هنا فيه اشكال فهو مخالف لردوده عليهم وبيانه لضلالاتهم فيما سبق ويأتي والذي يظهر والله أعلم، أنه يفرق بين مشايخ الصوفية المتقدمين وبين المعاصرين له إذ يحسن الظن بمن تقدم خصوصًا عند ما كانت الصوفية في صورتها القريبة من الاعتدال.

(٢) المفهم (٤/ ٤١).

(٣) المفهم (٤/ ٤٢).

هذا: كل مال نحلته عبدًا حلال»[١].

قال القرطبي: «فائدة هذه القضية رفع توهم من يتوهم أن ما يستلذ ويستطاب من رفيع الأطعمة والملابس والمناكح والمساكن محرم أو مكروه، وإن كان ذلك من الكسب الجائز، كما ذهب إليه بعض غلاة المتزهدة»[٢].

وقال في موضع آخر: «دليل[٣] على جواز الشبع خلافًا لمن كرهه مطلقًا، وهم قوم من المتصوفة»[٤].

وفي استخراجه لبعض الفوائد من الأحاديث التي فيها حمل الرسول ﷺ للصبيان، وعدم تورعه مما قد يلاقيه من النجاسة، قال: «فيه من الفقه ما يدل على جواز حمل الصبيان، وترك التعمق في التحفظ، مما يكون منهم من المخاط والبول، وغير ذلك، فلا يجتنب من ذلك إلاَّ ما ظهرت عينه، أو تحقق أو تفاحش، وكان النبي ﷺ وأصحابه يعملون على مقتضى الحنيفية السمحة، فيمشون حفاة في الطين، ويجلسون بالأرض، وتكون عليهم الثياب الوسخة التي ليست بنجسة ويلعقون أصابعهم والقصعة عند الأكل، ولا يعيبون شيئًا من ذلك ولا يتوسوسون فيه، وكل ذلك ردٌّ على غلاة متوسوسة الصوفية اليوم فإنهم يبالغون في نظافة الظواهر والثياب وبواطنهم وسخة خراب»[٥].

د ـ في الوجد والسماع:

أباح الصوفية سماع الغناء والمزامير، بل زعموا أنها تقرب لرب

(١) سبق تخريجه ص (١٥٨).
(٢) المفهم (٦/ ٧١٢).
(٣) وهو ما جاء من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ أبا طلحة دعا النبي ﷺ إلى طعام فدعا الرسول ﷺ أصحابه فكان العشرة يدخلون فيأكلون حتى الشبع ثم من بعدهم من شبعوا جميعًا. انظر صحيح البخاري كتاب الأطعمة، باب من أدخل الضيفان عشرة عشرة ح(٥٤٥٠) (٩/ ٤٨٦)، ومسلم في كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه ح(٢٠٤٠) (١٣/ ٢٢٧).
(٤) المفهم (٥/ ٣١١).
(٥) المفهم (٦/ ٣٠٠).

العالمين. وقد واجه القرطبي هذا الباطل ورد هذا الضلال، خصوصًا مع انتشاره في عصره، بل أفرد هذا بتأليف مستقل، وذلك بكتابه الموسوم بـ«كشف القناع عن حكم مسائل الوجد والسماع»(١). وقد استدل الصوفية على باطلهم بإنشاد النبي ﷺ وأصحابه في حفر الخندق، إذ كانوا يرتجزون أثناء العمل بأبيات من الشعر.

وقد قال القرطبي في رد هذا الاستدلال: «وقد يستدل بإنشاد النبي ﷺ وأصحابه هذه الأسجاع أهل المجون والبدع من المتصوفة على إباحة ما أحدثوه من السماع المشتمل على مناكر لا يرضى بها أهل المروءات، فكيف بأهل الديانات، كالطارات والشبابات واجتماع المغاني، وأهل الفساد، والشبان، والغناء بالألحان، والرقص بالأكمام، وضرب الأقدام، كما يفعله الفسقة المجان، ومجموع ذلك يعلم فساده وكونه معصية من ضرورة الأديان، فلا يحتاج في إبطاله إلى إقامة دليل ولا برهان، وقد كتبنا في ذلك جزءًا حسنًا سميناه «كشف القناع عن حكم مسائل الوجد والسماع»»(٢).

وقال في موضع آخر عن هذه المسألة عند شرحه للحديث الذي فيه أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يرتجزون والرسول ﷺ معهم(٣): «من هنا أخذت الصوفية إباحة السماع غير أنهم اليوم أفرطوا في ذلك وتعدوا فيه الوجه الجائز، وتذرعوا بذلك إلى استباحة المحرمات من أصناف الملاهي: كالشبابات والطارات والرقص وغير ذلك، وهذه أفعال المجان، أهل البطالة والفسوق، المدخلين في الشريعة ما ليس منها، أعاذنا الله من ذلك بمنه»(٤).

وأما حال هؤلاء عند الذكر والمواعظ فهو الزعيق والصياح، بزعم أن

---

(١) انظر: ص(٨٧).

(٢) المفهم (٣/ ٦٤٥).

(٣) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ابتناء مسجد النبي ﷺ ح(٥٢٤) (٥/ ١٠).

(٤) المفهم (٢/ ١٢٤).

هذا من صفات أهل الخشوع والصلاح.

وقد بيَّن القرطبي ـ رحمه الله ـ أن هذا لم يكن من هدي الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهم أشد الناس خشية لله تعالى بعد الأنبياء عليهم السلام، وذلك عند قول أنس ـ رضي الله عنه ـ وهو يبين حال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عند غضب الرسول ﷺ حيث قال: «**فجعلت التفت يميناً وشمالاً، فإذا كل رجل لاف رأسه في ثوبه يبكي**»(١). قال القرطبي: «هذه حالة العارفين بالله تعالى، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما تفعله جهَّالُ العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزفير، ومن النهيق الذي يشبه نهاق الحمير، فيقال لمن تعاطى ذلك، وزعم أن ذلك وجدٌ وخشوع: إنك لم تبلغ ذلك، أي: تساوي حال رسول الله ﷺ، ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ، الفهم عن الله تعالى، والبكاء خوفًا من الله، والوقار حياءً من الله [ثم أطال في ذكر أحوال العارفين، وذكر ماورد عن السلف من الصعق وغيره عند سماع القرآن] ثم قال: فالجواب: أين الدر من الصدف، والمسك من الجيف؟ هيهات قياس الملائكة بالحدادين، والمحققين بالممخرقين، فإن كنت يا من لبس عليه، تدعي أنك على نعتهم فمت كموتهم، فتنبه لبهرجتك، فإن الناقد بصير، والمحاسب خبير»(٢).

وقد بيَّن أن من كان يصرخ في حال خطبة الجمعة، فإما أن يكون مع ذلك ذهاب عقله، فقد انتقض وضوؤه فصلى بغير وضوء، ويكون قد تكلم في الخطبة وشوش على الحاضرين وأظهر بدعة في مجتمع الناس إلى ما في ذلك من الرياء والفسق(٣).

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره ح(٩٢) (١/ ٢٢٥) ومسلم في كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لاضرورة إليه ح(٢٣٥٩) (١٥/ ١٢٠).

(٢) المفهم (٦/ ١٦٠).

(٣) المفهم (٦/ ١٦١).

هـ ـ في جهلهم بمفهوم التوكل :

من اعتقادات الصوفية ترك العمل، واعتقاد ذلك من كمال التوكل إذ العمل عندهم قادح في التوكل.

وقد بيَّن القرطبي فساد هذا الفهم، ومخالفته لهدي الرسول ﷺ، وسنته، وذلك في مواضع كثيرة من المفهم، حيث قال مبينًا أن السعي في طلب الرزق لا ينقص التوكل: «المتفرغ للعبادة وطلب العلم لا يخل بحاله، ولا ينقص توكله اشتغاله بالنظر في مطعمه ومشربه وحاجته، كما يذهب إليه جهال المتزهدة»(١).

وعند شرحه لحديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ الذي فيه أولئك النفر الذين سألوا عن عبادة الرسول ﷺ فكأنهم تقالوها ثم ذكروا من أعمالهم وعباداتهم فرد عليهم ﷺ بقوله: «... **لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(٢).

فبعد شرح القرطبي لهذا الحديث واستخراجه لما يستفاد منه قال: «وعند الوقوف على ما أوضحناه من هذا الحديث يتحقق أن فيه ردًّا على غلاة المتزهدين وعلى أهل البطالة من المتصوفين إذ كل فريق قد عدل عن طريقه وحاد عن تحقيقه»(٣).

٣ ـ المعتزلة :

فرقة ظهرت في أوائل القرن الثاني الهجري، وسلكت مسلكًا عقليًّا متطرفًا في مسائل العقيدة، وسموا بهذا الاسم لاعتزال زعيمهم واصل بن عطاء(٤) مجلس الحسن البصري رحمه الله.

---

(١) المفهم (٣/ ٧٤١).

(٢) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ح(٥٠٦٣) (٩/ ٥) ومسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ح(١٤٠١) (٩/ ١٨٥).

(٣) المفهم (٤/ ٨٧).

(٤) واصل بن عطاء المعتزلي المعروف بالغزال متكلم أديب خطيب فصيح رأس المعتزلة وناشر مذهبهم الباطل أجمع السلف على ذمة توفي سنة(١٣١هـ). سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، الأعلام (٨/ ١٠٨).

وقد أكثر القرطبي والمازري من الرد عليهم، وتفنيد أقوالهم، وبيان خطأهم فيما ذهبوا إليه خصوصًا المازري إذ أكثر من الرد عليهم على غير عادته مع الفرق الأخرى، وربما سبب ذلك أن مذهب الاعتزال قابل مذهب الأشاعرة، وقد تصدى كثير من الأشاعرة للرد على المعتزلة تبعًا لمن ينتسبون إليه، وهو أبوالحسن الأشعري الذي كان على مذهب المعتزلة، ثم رجع عنه، وبين فساده فتابعه على ذلك غالب علماء الأشاعرة. وقد رد القرطبي والمازري عليهم في كثير من المسائل: فرد عليهم في مسائل القدر(١). وفي إنكارهم لرؤية الله تعالى في الآخرة(٢). وفي حكمهم على مرتكب الكبيرة بالخلود في النار(٣). وفي إنكارهم لشفاعة الرسول ﷺ في القيامة وإنكارهم للدجال(٤). وكذلك في قولهم بعدم خلق الجنة والنار(٥). وغيرها من المسائل(٦).

وتتبين هذه الردود في المباحث الخاصة بكل مسألة.

٤ ـ الشيعة :

وهم فرقة قالت بإمامة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وأنه قد نص عليه واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده وقالوا: إن خروج الولاية عن علي ـ رضي الله عنه ـ بظلم من الشيخين وبعضهم كفر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ واعتقدوا العصمة في أئمتهم إلى غير ذلك من الضلالات التي في معتقداتهم، وهم فرق كثيرة منها الغالية، ومنها دون ذلك، وقد يسمَّون بالرافضة.

وقد تكلم القرطبي على الشيعة، وبين أنهم من أكثر الفرق الضالة تعمدًا للكذب، وتضليلاً للناس، فقال في كذبهم على عائشة ـ رضي الله

---

(١) انظر: المفهم(٣/ ٤٩٣، ٥٢٦) (٥/ ٦٢١) والمعلم (١/ ٣٠٤، ٣٢٥) (٢/ ١٧) (٣/ ١٧٦، ١٨٥، ١٩٧، ١٩٨، ٢٦٥).

(٢) انظر: المفهم (١/ ٤١٥) (٢/ ٥٧) والمعلم (١/ ٢٢٣، ٢٢٥) (٣/ ٢١٢).

(٣) انظر: المفهم (٢٤٧، ٤٥٢) والمعلم (١/ ١٩٤، ١٩٧) (٢/ ٢٦١).

(٤) انظر: المفهم (١/ ٤٣٧) (٧/ ٢٦٧).

(٥) انظر: المفهم (٢/ ٢٤٥).

(٦) انظر: المعلم (١/ ٢٦٦) (٢/ ٢٥) (٣/ ١٨٨، ١٩٨) (٣/ ٢٠٥، ٣٠٣).

عنها ـ: «وهذا التأويل[١] عليها من أكاذيب الشيعة المبتدعة وتشنيعاتهم عليها»[٢].

وقال في موضع آخر في رده على طعنهم في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: «ولا تسمع أكاذيب الرافضة المبطلين الضالين المضلين»[٣].

وبين في موضع آخر كذبهم وتبرؤ علي ـ رضي الله عنه ـ مما نسبوه إليه، وذلك عند تعليقه على قول علي ـ رضي الله عنه ـ: «**ما كان النبي ﷺ يُسرُّ إلى شيئًا يكتمه الناس...**»[٤]. حيث قال: «هذا رد وتكذيب للفرق الغالية فيه وهم الشيعة والإمامية والرافضة الزاعمين أن النبي ﷺ وصَّىٰ لعلي، وولاَّه بالنص، وأسرَّ إليه دون الناس كلهم بعلوم عظيمة، وأمور كثيرة، وهذه كلها منهم أكاذيب وترهات وتمويهات يشهد بفسادها نصوص متبوعهم وما تقتضيه العادات من انتشار ما تدعو إليه الحاجة العامة وغضب علي على ذلك دليل على أنه لا يرتضي شيئًا مما قيل هنالك»[٥].

وبيَّن في موضع آخر أن الرافضة لا يعتد بخلافهم؛ لأنه قد حكم كثير من العلماء بتكفيرهم[٦].

وقال أيضًا: الرافضة لا يلتفت لخلافهم إذ ليسوا على طريقة المسلمين[٧].

حكم الشيعة:

الشيعة فرق مختلفة لا شك في كفر الغالي منها، وقد بيَّن القرطبي خلاف العلماء فيهم، وذلك لاختلاف معتقداتهم، حيث قال: «ولا مبالاة بأقوال أهل التشيع، ولا أهل البدع، فإنهم بين مكفر تضرب رقبته، وبين

---

(١) وهو قولهم: إنها لم تقصر في السفر لأنها لم تكن في سفر جائز.
(٢) المفهم (٢/ ٣٢٧).
(٣) المفهم (٣/ ٥٦٩).
(٤) رواه مسلم في كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله ح(١٩٧٨) (١٣/ ١٥٠).
(٥) المفهم (٥/ ٢٤٤).
(٦) المفهم (٢/ ٩٢).
(٧) المفهم (٤/ ٩٣).

مبتدع مفسق لا تقبل كلمته، وتدحض حجته»(١).

وقال في موضع آخر: «فأما الروافض فقد كفَّروا الصحابة كلهم؛ لأنهم تركوا العمل بالحق الذي هو النص على استخلاف علي - رضي الله عنه - واستخلفوا غيره بالاجتهاد، ومنهم من كفَّر عليًّا - رضي الله عنه -؛ لأنه لم يطلب حقه، وهؤلاء لا يشك في كفرهم؛ لأن من كفر الأمة كلها والصدر الأول، فقد أبطل نقل الشريعة، وهدم الإسلام، وأما غيرهم من الفرق فلم يرتكب أحد منهم هذه المقالة الشنعاء القبيحة القصعاء، ومن ارتكبها منهم ألحقناه بمن تقدم في التكفير ومأواه جهنم وبئس المصير»(٢).

الرد عليهم:

أكثر القرطبي من الرد على الشيعة في كثير مما ذهبوا إليه من الأباطيل، وذلك في مواضع متفرقة من المفهم، فرد عليهم في تجويز الكبائر على الأنبياء(٣)، وفي موقفهم من الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين -(٤)، وفي موقفهم من الخلافة، وقولهم بالنص على علي - رضي الله عنه -(٥). إلى غير ذلك من المسائل الأخرى(٦).

٥ - القدرية:

وهم القائلون بأن العبد يخلق فعل نفسه، وأن أفعال العباد مقدورة لهم على جهة الاستقلال، وكان متقدموهم ينكرون علم الله بالأشياء قبل وجودها، وهم الذين كفرهم السلف أخذ معبد الجهني(٧) هذا عن نصراني

(١) المفهم (٦/ ٢٣٨).
(٢) المفهم (٦/ ٢٧٣).
(٣) انظر: المفهم (٢/ ٩٢، ١٨٥) (٣/ ٥٦٤) (٦/ ٢١٧، ٣٠٣).
(٤) انظر: المفهم (٢/ ٣٢٧) (٦/ ٢٥٢).
(٥) انظر: المفهم (٦/ ٢٤٨، ٢٧٣) وانظر: المازري في هذه المسألة المعلم (٣/ ١٣٦).
(٦) انظر: المفهم (٥/ ١٣٦، ٢٤٤) (٧/ ٣٢٧، ٣٣٣).
(٧) معبد الجهني البصري أول من تكلم بالقدر في أواخر عهد الصحابة رضي الله عنهم وأنكر عليهم ابن عمر رضي الله عنهما توفي معبد سنة (٨٠هـ). تهذيب التهذيب (٤/ ١١٦)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٥).

أسلم ثم تنصر، وأخذ غيلان الدمشقي[١] عن معبد، وقد يطلق القدرية على المعتزلة لنفيهم القدر في معاصي العباد[٢].

وقد رد عليهم القرطبي فيما ذهبوا إليه في القدر حين قال: «حملت القدرية هدى الله على البيان بناءً على مذهبهم الفاسد في القدر»[٣]، وقال في موضع آخر: «والأحاديث في هذا الباب كثيرة صحيحة يفيد مجموعها العلم القطعي واليقين الحقيقي الاضطراري بإبطال مذاهب القدرية لكنهم كابروا في ذلك كله، وردوه وتأولوا ذلك تأويلاً فاسدًا»[٤].

وأما المازري فقد جاء ذكر القدرية في المعلم في موضعين، رد في واحد منها على القدرية في قولهم بخلق العباد لأفعالهم[٥]، وفي الموضع الآخر بيَّن الخلاف في تكفير القدرية[٦].

٦ ـ المرجئة :

وهم الذين يقولون: الإيمان قول بلا عمل، فيقولون لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، والجهمية والكرامية من فرق المرجئة[٧]. وقد ردَّ القرطبي والمازري هذا المذهب الباطل كما تبين ذلك في مبحث حكم مرتكب الكبيرة[٨].

٧ ـ الأشاعرة :

هم المنتسبون إلى أبي الحسن الأشعري في مذهبه الثاني، ولا يخفى

---

(١) غيلان بن مسلم الدمشقي أبومروان من البلغاء وهو ثاني من تكلم بالقدر ودعا إليه قتل في خلافة هشام بن عبد الملك. العقد الفريد ابن عبد ربه الأندلسي (٢/ ٢٠٥) الأعلام (٥/ ١٢٤).

(٢) انظر: السنة لعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل (١/ ٣٨٤) ومابعدها والملل والنحل للشهرستاني (١/ ٤٥).

(٣) المفهم (٢/ ٥٠٧).

(٤) المفهم (٦/ ٦٦١).

(٥) المعلم (٣/ ١٧١).

(٦) المعلم (١/ ١٨٧).

(٧) انظر: القدرية والمرجئة للدكتور ناصر العقل ص(٧٧) وما بعدها.

(٨) ص (١٢٦).

أنه قد رجع عن مذهبه الثاني إلى مذهب أهل السنة والجماعة في آخر حياته، ولكن الأشاعرة تابعوه على ما كان عليه قبل رجوعه إلى مذهب السلف، وعامة الأشاعرة يثبتون سبع صفات فقط، ويخالفون أهل السنة في كثير من مسائل العقيدة(١).

والقرطبي والمازري على مذهب الأشاعرة في كثير من مسائل العقيدة، وإن كان القرطبي لم يلتزم بذلك، بل يخالف الأشاعرة في بعض المسائل(٢).

وقد جاء ذكر الأشاعرة باسمهم الصريح في موضع واحد من المفهم(٣)، وفي خمسة مواضع من المعلم(٤). وهم يطلقون أهل السنة أو أهل السنة والجماعة ويقصدون بذلك الأشاعرة، وهذا يتبين من خلال الأقوال التي ينسبونها لأهل السنة إذ كثير منها لا يقول به أهل السنة بل هو قول الأشاعرة، فقد ذكر القرطبي رأي الأشاعرة في بعض المسائل وقال: «هذا قول أهل السنة»(٥).

وقد يذكر بعض أقوال أهل السنة وينسبها إليهم وهو يقصد الأشاعرة إذ يوافقون أهل السنة في هذه المسائل(٦).

وأما المازري فقد ذكر أهل السنة وقصد بهم الأشاعرة وذلك في سبعة مواضع من المعلم(٧).

---

(١) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة للدكتور عبد الرحمن المحمود ومنهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله الخالد بن عبد اللطيف.

(٢) ويتضح هذا من خلال التفصيل في مباحث الرسالة.

(٣) المفهم (٢/ ٥٧).

(٤) المعلم (١/ ١٨٤، ١٩٤) (٣/ ٩٤، ١٦٥، ١٧٦).

(٥) المفهم (١/ ١٩٦، ٢١٢، ٢٩٦) (٦/ ٢١٢).

(٦) المفهم (١/ ٢٠٠، ٣٢١، ٣٧٣، ٤١٣) (٣/ ٥٦٢) (٥/ ١٤٢، ٥٦٥، ٦٣٥) (٦/ ٤٠، ٩٠، ٢٣٨، ٢٤٤، ٣٨٧، ٦٠٨) (٧/ ١٨٨، ٢٦٧، ٢٩٢، ٣٣٥).

(٧) (١/ ٢١٧) (٣/ ٣٥، ٩٣، ١١٦، ١٣٧، ١٧٠، ١٩٧).

وقد جاء ذكر بعض الفرق كالجهمية[١]، والباطنية[٢]، والكرامية[٣]، والراوندية[٤]، والقلندرية[٥].

---

(١) هي إحدى الفرق المنحرفة التي نسبت للجهم من صفوان الذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال وزعم أنَّ الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط وأنَّ الكفر هو الجهل به ونفي أسماء الله تعالى وصفاته إلى غير ذلك من مخالفته لمذهب السلف. الملل والنحل(١/ ٨٦). الفرق بين الفرق للبغدادي ص(٢١١). انظر: المفهم (٧/ ٢٦٧).

(٢) من الفرق الضالة التي تدَّعي أنَّ للنصوص ظاهرًا وباطنًا ويعتقدون أنَّ الله لايوصف بالوجود ولا العدم ولا هو معلوم ولا مجهول إلى غير ذلك من العقائد الباطلة ولهم ألقاب كثيرة كالقرامطة والنصيرية والإسماعيلية. الفرق بين الفرق ص(٢٨١). وقد أدرج الحديث عنها والرد عليها مع الشيعة.

(٣) أتباع عبد الله بن كرام افترقوا لعدة فرق من أبرز عقائدهم قولهم إنَّ الإيمان مجرد القول باللسان. مقالات الإسلاميين (١/ ٢٢٤). الفرق بين الفرق ص(٢١٥). وانظر: المفهم (١/ ٢٦٧).

(٤) فرقة من فرق الروافض الحلولية الذين قالوا بتناسخ روح الإله في الأئمة. الفرق بين الفرق ص(٢٧٢) وانظر: المفهم (٦/ ٢٤٨) والمعلم (٣/ ١٣٧).

(٥) المفهم (٧/ ١٦٦). وهذه الطائفة من طوائف الصوفية وتسمى الملامية أو الملامتية واليونسية والحيدرية، نشأت بعد الستمائة بقليل بدمشق. انظر: أخبارهم في خطط المقريزي (٢/ ٤٣٢) وانظر: فتوى شيخ الإسلام فيهم في الفتاوى (٣٥/ ١٣).

الفصل الرابع
توحيد الأسماء والصفات

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: **منهجهما في أسماء الله تعالى**

المبحث الثاني: **منهجهما في صفات الله**

المبحث الثالث: **منهجهما في رؤية الله تعالى**

تمهيد

توحيد الأسماء والصفات هو إفراد الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، التي وردت في الكتاب والسنة، وذلك بإثبات ما أثبته سبحانه لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من غير تحريفٍ(١)، ولا تعطيلٍ(٢)، ومن غير تكييف(٣)، ولا تمثيل(٤)، ولا تشبيه(٥). فنؤمن بأن الله تعالى متصفٌ بجميع صفات الكمال، ومنزه سبحانه عن جميع صفات النقص.

قال الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب رحمه الله: «توحيد الأسماء والصفات: هو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير، رؤوف رحيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، سبحان الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى»(٦).

والأدلة على هذا التوحيد كثيرة من الكتاب والسنة، بل لا تخلو سورة

---

(١) التحريف في الإصطلاح هو: تغيير النص لفظًا أو معنى، فالتحريف اللفظي مثل: نصب لفظ الجلال في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ ليكون التكليم من موسى، والتحريف المعنوي مثل: تحريف معنى اليدين المضافتين إلى الله تعالى إلى القوة والنعمة ونحو ذلك.

(٢) التعطيل في الاصطلاح: هو إنكار ما يجب إثباته لله تعالى من الأسماء والصفات.

(٣) التكييف هو: حكاية كيفية الصفة وأنها على هيئة كذا وكذا أو السؤال عنها بكيف.

(٤) التمثيل: هو إثبات المثيل والنظير للشيء.

(٥) التشبيه: هو إثبات المشابه للشيء والفرق بين التشبيه والتمثيل أنَّ التشبيه يقتضي المشابهة والمساواة في أكثر الصفات والتمثيل يقتضي المماثلة والمساواة من كل وجه.

وهذه التعريفات استقيتها من شرح العقيدة الواسطية للهراس ص (٦٦- ٦٩) وفتح رب البرية بتلخيص الحموية لابن عثيمين ص (٥٤، ٥٥) والتحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية لفالح ال مهدي (٢/ ٦، ٧).

(٦) تيسير العزيز الحميد ص(٣٤).

من سور القرآن من ذكر أسماء الله وصفاته. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾[3].

وكان ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول: «**اللهم ربّ السموات، ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل الإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[4]. وغيره من الأحاديث الكثيرة التي جاءت بإثبات أسمائه سبحانه وصفاته، ولذا فأهل السنة والجماعة يؤمنون بهذه الأسماء والصفات كما جاءت، وكما يليق بالله سبحانه وتعالى.

ويُعدّ هذا المبحث من أهم مباحث العقيدة وأخطرها، إذ كثر الخلط والانحراف عن المنهج السوي فيه من قبل بعض الفرق الإسلامية، حيث

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢٣، ٢٤.

(٣) سورة الحديد، الآية: ١، ٦.

(٤) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب الدعاء عند النوم ح (٢٧١٣)، (١٧/ ٣٩).

نشأ عن الضلال فيه معتقداتٌ باطلةٌ، وتصوراتٌ خاطئةٌ في الذات الإلهية، ولهذا اعتنى علماء السنة والجماعة بهذا التوحيد وصنَّفوا فيه المصنفات، وأفردوه بكثير من المؤلفات. ومنهجهم في هذا هو المنهج الأقوم الذي جاء في الكتاب والسنة، وأجمع عليه سلف الأمة.

قال شيخ الإسلام ـ مبينًا اعتقاد السلف في هذا الباب ـ: «الأصل في هذا الباب أن يُوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله: نفيًا وإثباتًا، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه. وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل. وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد[1] لا في أسمائه ولا في آياته، فإن الله تعالى ذمَّ الذين يلحدون في أسمائه وآياته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ الآية[3]. فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقين: إثباتًا بلا تشبيه، وتنزيهًا بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[4] فمعنى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ردٌّ للتشبيه والتمثيل، وقوله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ ردٌّ للإلحاد والتعطيل»[5].

---

(١) الإلحاد في اللغة: الميل والعدول عن الشيء. والإلحاد في أسماء الله تعالى وآياته هو العدول والميل بها عن حقائقها ومعانيها الصحيحة إلى معانٍ باطلة. انظر: شرح العقيدة الواسطية للهراس ص(٧٠).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٠

(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٥) الفتاوى (٣/٣).

المبحث الأول

منهجهما في أسماء الله تعالى

وفيه تسعة مطالب:

المطلب الأول: **الاسم والمسمى**

المطلب الثاني: **عدد أسماء الله**

المطلب الثالث: **معنى إحصائها**

المطلب الرابع: **طريق إثباتها**

المطلب الخامس: **أقسامها**

المطلب السادس: **اسم الله الأعظم**

المطلب السابع: **شرح بعض الأسماء**

المطلب الثامن: **الأسماء المزدوجة**

المطلب التاسع: **ما ليس من أسماء الله**

إن شرف العلم تابعٌ لشرف معلومه، ولا أجلّ ولا أعظم من الله تعالى، ولذا فمعرفة أسمائه سبحانه، والإيمان بها، وفهم معانيها من أجلِّ العلوم، وأفضل الطاعات، ولا طريق لذلك إلاَّ بالكتاب والسنة، والاقتداء بسلف الأمة. فقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن لله أسماء سمى بها نفسه، وأن هذه الأسماء كلها حسنى، كماقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أسماء الله تبارك وتعالى دالةٌ على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها، لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال»[(٢)].

وقد تكلَّم القرطبي والمازري في أسماء الله تعالى، وما يتعلق بها، ويتضح هذا من خلال التفصيل في المباحث التالية:

المطلب الأول: الاسم والمسمى:

الكلام في هذه المسألة من الأمور المُحْدَثة، التي لم يتحدث فيها الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولا التابعون، إنما حدثت بعدهم، ولذا أنكر بعض العلماء الحديث فيها، ومنعوا منه، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «إذا سمعت الرجل يقول: الاسم غير المسمى، أو الاسم المسمى، فاشهد عليه أنه من أهل الكلام ولا دين له»[(٣)].

وقال محمد بن جعفر البغدادي[(٤)]: «سمعت إبراهيم الحربي[(٥)] ـ ولم يكن في وقته مثله ـ يقول ـ وقد سُئِلَ عن الاسم والمسمى ـ: لي مذ أجالس أهل العلم سبعون سنة، ما سمعت أحدًا منهم يتكلم في الاسم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٨).

(٣) طبقات الشافعية للسبكي (٢/ ١٧٤).

(٤) هو محمد بن جعفر بن محمد الربعي البغدادي ابن الإمام حدث عنه النسائي في سننه توفي سنة(٣٠٠هـ). سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٦٨). تهذيب التهذيب (٣/ ٥٣١).

(٥) إبراهيم بن إسحاق الحربي البغدادي الإمام الحافظ أحد أعلام القرن الثالث الهجري صنَّف «غريب الحديث» وغيره توفي سنة(٢٨٥هـ). تاريخ بغداد للبغدادي(٦/ ٢٧). صفة الصفوة (٢/ ٤٠٤).

والمسمى»[١].

وقال الطبري: «وأمَّا القول في الاسم أهو المسمى أم غير المسمى، فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيتبع، ولا قول من إمام فيستمع، فالخوض فيه شين، والصمت عنه زين، وحسب امرئ من العلم به، والقول فيه أن ينتهي إلى قول الله عز وجل ثناؤه الصادق، وهو قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[٣]»[٤].

لكن لما تحدث أهل البدع في هذه المسألة، وخاضوا فيها، وجانبوا فيها الصَّواب، كان لابد لأهل الحق من الحديث فيها بالصواب كغيرها من المسائل التي تحدث فيها أهل السنة، وقد سكت عنها من قبلهم؛ لأنهم ابتلوا بالحديث فيها ردًّا على أهل البدع، قال الإمام الدارمي: «قد كان من مضى من السلف يكرهون الخوض في هذا وما أشبهه، وقد كانوا رزقوا العافية منهم، وابتلينا بهم عند دروس الإسلام، وذهاب العلماء، فلم نجد بدًّا من أن نرد عليهم ما أتوا به من الباطل بالحق»[٥].

وأول الأقوال في هذه المسألة قولة الجهمية والمعتزلة الذين قالوا: إن الاسم غير المسمى؛ لأن الاسم مخلوق والمسمى غير مخلوق، وهذا بناءً على قولهم في أن أسماء الله وصفاته مخلوقة، وقد تابعهم على قولهم هذا ابن حزم والغزالي[٦].

وقد أجمع أهل السنة، ومن وافقهم في رد هذا القول، ولكنهم اختلفوا في هذه المسألة على أقوال:

---

(١) سيرأعلام النبلاء (١٣/ ٣٥٩).
(٢) الإسراء، الآية: ١١٠.
(٣) الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٤) صريح السنة ص(٢٦).
(٥) الرد على الجهمية للدارمي ص(٢٣).
(٦) انظر: الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٥/ ١٩). والمقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للغزالي (٢٨).

الأول: من قال: الاسم هو المسمى وقد استدلوا بأدلة منها: قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾[١]، قالوا: المسبَّح هو المسمى، وهو الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾[٢] والمراد المسميات[٣].

وقد روى شيخ الإسلام عن الشافعي قوله: «إذا سمعت الرجل يقول: الاسم غير المسمى فاشهد عليه بالزندقة»[٤].

وقد قال بهذا بعض علماء السنة، ومنهم: البغوي واللالكائي وغيرهما[٥].

الثاني: من قال: إن الأسماء ثلاثة أقسام:

أ ـ تارة يكون هو المسمى كاسم الموجود.

ب ـ وتارة يكون الاسم غير المسمى كاسم الخالق.

جـ ـ وتارة لا يكون هو ولا غيره كاسم العليم والقدير.

وهذا هو المشهور عن أبي الحسن الأشعري[٦].

وقد ردَّ شيخ الإسلام هذا القول، وبيَّن مجانبته للصَّواب[٧].

الثالث: من قال: الاسم للمسمى إذ هو دليل وعلم عليه، قال شارح الطحاوية: «فالاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى، فإذا قلت: قال الله كذا، أو سمع الله لمن حمده، ونحو ذلك، فهذا المراد به المسمى نفسه، وإذا قلت: الله اسم عربي، والرحمن اسم عربي، والرحمن من أسماء الله تعالى، ونحو ذلك، فالاسم هٰهُنَا هو المراد

---

(١) الأعلى، الآية: ١.

(٢) يوسف، الآية: ٤٠.

(٣) انظر: الفتاوى لابن تيمية (٦/ ١٩٠).

(٤) الفتاوى (٦/ ١٨٧). وانظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٠).

(٥) قال ابن تيمية: ولم يعرف عن أحد من السلف أنه قال: الاسم هو المسمى بل هذا قاله كثير من المنتسبين للسنة بعد الأئمة وأنكره أكثر أهل السنة عليهم. الفتاوى (٦/ ١٨٧).

(٦) الفتاوى (٦/ ١٨٨) وانظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ١٠٤٣).

(٧) الفتاوى (٦/ ٢٠١).

للمسمى، ولا يقال «غيره»، لما في لفظ «الغير» من الإجمال، فإن أُريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى، فحق، وإن أريد أن الله تعالى كان ولا اسم له، حتى خلق لنفسه أسماء، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله»(١).

وقد ذكر شيخ الإسلام أن الاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور في القلب، ولذا أمر الله تعالى بذكره تارة، وبذكر اسمه تارة كما أمر بتسبيحه تارة، وبتسبيح اسمه تارة، حيث قال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾(٥)»(٦).

وهذا القول هو اختيار أكثر أهل السنة والذي ارتضاه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، حيث قال ابن القيم: «هذا المذهب مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون: أسماؤه تعالى غيره، وهي مخلوقة، ولمذهب من رد عليهم ممن يقول اسمه نفس ذاته لا غيره، وبالتفصيل تزول الشبه ويتبين الصواب»(٧).

وهذا القول هو الموافق لظاهر كلام القرطبي، حيث ردَّ على الذين قالوا: الاسم هو المسمى حقيقة، حيث قال: «الاسم في العرف العام: هو الكلمة الدالة على معنى فرد، وبهذا الاعتبار لا فرق بين الاسم والفعل والحرف، إذ كل واحد منها يصدق عليه ذلك الحد، فلا فعل ولا حرف في العرف العام، وإنما ذلك اصطلاح النحويين والمنطقيين، وليس ذلك من غرضنا، وإذا فهمت هذا فهمت غلط من قال: إن الاسم هو المسمى حقيقة، كما قالت طائفة من جُهَّال الحشوية، فإنهم صرحوا بذلك،

---

(١) شرح الطحاوية (١/ ١٠٢).
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤١.
(٣) سورة المزمل، الآية: ٨.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٤٢.
(٥) سورة الأعلى، الآية: ١.
(٦) انظر: الفتاوى (٦/ ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٠).
(٧) بدائع الفوائد (١/ ٢٣).

واعتقدوه حتى ألزموا على ذلك أن من قال: سمٌّ: مات، ومن قال: نار: احترق، وهؤلاء أخس من أن يشتغل بمخاطبتهم[١]، وأمَّا من قال من النحويين ومن المتكلمين: الاسم هو المسمى، فحاشاهم أن يريدوا هذه الحماقة، وإنما أرادوا: أنه هو من حيث أنه لا يدل إلاَّ عليه، ولا يفيد إلاَّ هو، فإن كان ذلك الاسم من الأسماء الدالة على ذات المسمى دل عليه من غير مزيد أمر أخر، وإن كان من الأسماء الدالة على معنى زائد: دلَّ على تلك الذات منسوبة إلى ذلك الزائد خاصة دون غيره، وبيان ذلك: أنك إذا قلت: زيد ـ مثلاً ـ فهو يدل على ذاتٍ مُشخَّصه في الوجود من غير زيادة ولا نقصان، فلو قلت ـ مثلاً ـ: العالم دل هذا على تلك الذات منسوبة إلى العلم. . . ومن هنا صحَّ عقلاً أن تكثر الأسماء المختلفة على ذات واحدة، ولا توجب تعددًا فيها ولا تكثيرًا[٢]، وقد غمض فهم هذا مع وضوحه على بعض أئمة المتكلمين، وفر منه هربًا من لزوم تعدد في ذات الإله. . . قد يقال: الاسم هو المسمى ويعني به: أن هذه الكلمة التي هي الاسم قد يطلق ويراد به المسمى كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾[٣] أي سبح ربك، فأريد بالاسم المسمى، وهذا بحث لفظي لا ينبغي أن ينكر ولا جرم قال به في هذه الآية وفيما يشبهها جماعة من علماء اللسان وغيرهم، وإذا تقرر هذا فافهم أن أسماء الحق سبحانه، وإن تعددت فلا تعدد في ذاته تعالى»[٤].

---

(١) قال ابن تيمية: وهؤلاء الذين قالو: إنَّ الإسم هو المسمى لم يريدوا بذلك أنَّ اللفظ المؤلف من الحروف هو نفس الشخص المسمى به فإنَّ هذا لايقوله عاقل ولهذا يقال: لو كان الإسم هو المسمى لكان من قال: نار احترق لسانه ومن الناس من يظن أنَّ هذا مرادهم ويشنع عليهم وهذا غلط عليهم بل هؤلاء يقولون: اللفظ هو التسمية والإسم ليس هو اللفظ بل هو المراد باللفظ فإنك إذا قلت: يازيد يا عمر فليس مرادك دعاء اللفظ بل مرادك دعاء المسمى باللفظ وذكرت الإسم فصار المراد بالاسم هو المسمى. الفتاوى (٦/ ١٨٨).

(٢) وهذا منه رحمه الله رد على الجهمية الذين يزعمون أنَّ إثبات الأسماء يوجب تعددًا في الذات.

(٣) سورة الأعلى، الآية: ١.

(٤) المفهم (٧/ ١٤) وقد نقل الحافظ ابن حجر هذا القول بطوله في فتح الباري(١١/ ٢٢٥).

وبيَّن في موضع آخر أن الاسم غير المسمى، وذلك عند قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ للرسول ﷺ: «**والله يارسول الله ما أهجر إلّا اسمك**»(١)، حيث قال: «هذا يدل على أن الاسم غير المسمى، وهي مسألة اختلف فيها أهل اللسان والمتكلمون»(٢).

وأما أن الاسم هو المسمى فعند قوله ﷺ: «**اللهم باسمك أحيا وباسمك أموت**»(٣) قال: «فالاسم هنا: هو المسمى كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾(٤) أي سبح ربك، هذا قول الشارحين»(٥).

وقال أيضًا عند رقية جبريل للرسول ﷺ بقوله: «**باسم الله أرقيك**»(٦): «الاسم هنا يراد به المسمى، فكأنه قال: الله يبريك، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾(٧) أي سبح ربك، ولفظ الاسم في أصله عبارة عن الكلمة الدالة على المسمى، والمسمى هو مدلولها غير أنه قد يتوسع فيوضع الاسم موضع المسمى مسامحة فتدبر هذا فإنه موضع كثر فيه الغلط وتاه فيه كثير من الجهال وسقط»(٨).

والتفصيل هو الصواب؛ لأن إنكار قول من قال: الاسم هو المسمى: لما في قوله من الاحتمال الباطل، وذلك بجعل الأسماء هي نفسها المسميات، فإذا قال الإنسان: نار أحرقت لسانه، إذ لو اقتصروا على أن الاسم مراد به المسمى لكان ذلك هو الحق. وكذلك من قال: الاسم غير

---

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب غيرة النساء ووجدهن (ح ٥٢٢٨) (٩/ ٢٣٧). ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عائشة ـ رضي الله عنها ـ ح(٢٤٣٩) (١٥/ ٢١٢).

(٢) المفهم (٦/ ٣٢٣).

(٣) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم ح(٢٧١١) (١٧/ ٣٨).

(٤) سورة الأعلى، الآية: ١.

(٥) المفهم (٧/ ٤٠).

(٦) رواه مسلم في كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقي ح(٢١٨٦) (١٤/ ٤٢٠).

(٧) سورة الأعلى، الآية: ١.

(٨) المفهم (٥/ ٥٦٤).

المسمى فيكون اسم الشيء مباينًا له، وهذا باطل، فالخالق سبحانه أسماؤه من كلامه، وليس كلامه بائنًا عنه»(١).

المطلب الثاني: عدد أسماء الله تعالى:

قال ﷺ: «**إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، من حَفِظَهَا دخل الجنة، واللهُ وتر يحب الوتر**»(٢).

وقد اختلف العلماء في هذا العدد المذكور، هل المراد به الحصر، بحيث إن أسماء الله لا تزيد على هذا العدد أم إنها أكثر من ذلك، لكن اختصت هذه بأن من أحصاها دخل الجنة؟

ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا العدد لا يُفيد الحصر، إذ أسماؤه تعالى لا تحد بعدد قلة سبحانه أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها أحد كما قال ﷺ: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»(٣). قال ابن كثير: «الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين»(٤)، وقال ابن القيم: «الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد، فإن لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده، فلا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل»(٥)، وقال النووي: «اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى... فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء»(٦).

والقرطبي وافق جمهور العلماء فيما ذهبوا إليه من عدم حصر أسماء

---

(١) انظر: الفتاوى لابن تيمية(٦/ ٢٠٧) وبدائع الفوائد لابن القيم (١/ ٢٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب إنَّ لله مائة اسم إلاَّ واحدة ح(٧٣٩٢) (١٣/ ٣٨٩). ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب في أسماء الله تعالى: ح(٢٦٧٧) (١٧/ ٧).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده(١/ ٣٩١) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٨٣) حديث (١٩٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٨).

(٥) بدائع الفوائد (١/ ١٧٤).

(٦) شرح النووي لصحيح مسلم (١٧/ ٨).

الله تعالى بهذا العدد ولا بغيره، حيث قال عند شرحه للحديث السابق: «ليس المقصود حصر الأسماء فيما ذكر وهذا كقول القائل: لزيد مائة دينار أعدَّها للصدقة، لا يفهم من هذا: أنه ليس له مال غير المائة دينار، وإنما يُفهم أن هذه المائة هي التي أعدها للصدقة لا غيرها، وقد دلَّ على أن لله أسماء أُخر ما قدمناه من قوله ﷺ: «**اللهم إني أسألك بكل اسم سميت به نفسك، أو استأثرت به في علم الغيب عنك**»[١]، وقوله: «**فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلاَّ أن يلهمنيها الله**»[٢]»[٣].

قال ابن القيم: «وتلك المحامد تفي بأسمائه وصفاته»[٤].

وقال ابن تيمية: «والصواب الذي عليه جمهور العلماء أن قول النبي ﷺ ـ في الحديث السابق ـ معناه أن من أحصى التسعة والتسعين من أسمائه دخل الجنة، وليس مراده أنه ليس له إلاَّ تسعة وتسعون اسمًا»[٥].

المطلب الثالث: معنى الإحصاء المذكور:

لا شك أن العلم بأسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإحصاءها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماء الله كما ينبغي للمخلوق، فقد أحصى جميع العلوم إذ إحصاء أسمائه سبحانه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي مقتضاها ومرتبطة بها[٦].

ولذا اختلفت عبارات العلماء في تحديد معنى الإحصاء الوارد في الحديث، والذي جعل الرسول ﷺ جزاءه الجنة، وقد قال القرطبي في بيانه لمعنى الإحصاء الوارد في الحديث: «الإحصاء في الكلام على ثلاث مراتب، أولها: العدد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٢٨﴾[٧]

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٢٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب «رؤية ممن حملنا مع نوح»ح(٤٧١٢) (٨/ ٢٤٧). ومسلم في كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة ح(١٩٤) (٣/ ٦٦).

(٣) المفهم (٧/ ١٦).

(٤) بدائع الفوائد (١/ ١٧٦).

(٥) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٣٢).

(٦) أسماء الله الحسنى لعبدالله بن صالح الغصن ص(١١٥).

(٧) سورة الجن، الآية: ٢٨.

والثانية: بمعنى الفهم، ومنه يقال: رجل ذو حصاة أي: ذو لب وفهم، ومنه سمي العقل حصاة، قال كعب بن سعد الغنوي[(١)]:

وأن لسان المرءِ ما لم تكُن له   حصاةٌ على عوراتِهِ لدليلُ[(٢)]

والثَّالثة: بمعنى الإطاقة على العمل والقوة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحۡصُوهُ﴾[(٣)] أي: لن تطيقوا العمل بذلك، والمرجو من كرم الله تعالى أن من حصل له إحصاء هذه الأسماء على إحدى هذه المراتب مع صحة النية أن يدخله الله الجنة، لكن المرتبة الأولى: هي مرتبة أصحاب اليمين، والثانية: للسابقين، والثالثة: للصديقين، ونعني بإطاقتها حسن المراعاة لها، والمحافظة على حدودها، والاتصاف بقدر الممكن منها، كما أشار إليه الطوسي[(٤)] في المقصد الأسنى»[(٥)].

والحق أن الإحصاء شامل لثلاثة أمور، كما ذكر ذلك ابن القيم ـ رحمه الله ـ وهي:

١ـ إحصاء ألفاظها وعدها.

٢ـ فهم معانيها ومدلولها.

٣ـ دعاؤه بها[(٦)].

قال ابن بطَّال[(٧)]: «الإحصاء يقع بالقول ويقع بالعمل، فالذي بالعمل أن لله أسماء يختص بها كالأحد والقدير فيجب الإقرار بها، والخضوع عندها، وله أسماء يستحب الاقتداء بها في معانيها، كالكريم والعفو

(١) كعب بن سعد بن عمرو الغنوي شاعر جاهلي أشهر شعره بائيته في رثاء أخ له قتل في حرب ذي قار. الأعلام(٥/ ٢٢٧). كشف الظنون (١/ ٨٠٨).

(٢) البيت لطرفة بن العبد البكري الشاعر الجاهلي أحد شعراء المعلقات وليس كما ذكر القرطبي. انظر ديوان طرفة بن العبد ص(٨١).

(٣) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

(٤) هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي صاحب «إحياء علوم الدين».

(٥) المفهم (٧/ ١٧).

(٦) بدائع الفوائد(١/ ١٧١).

(٧) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي المعروف بابن اللَّجام الإمام الحافظ المحدث له شرح لصحيح البخاري توفي سنة(٤٤٩هـ). سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٧). الديباج المذهب ص(٢٩٨).

فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها ليؤدي حق العمل بها، فبهذا يحصل الإحصاء العملي، وأما الإحصاء القولي فيحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها، ولو شارك المؤمن غيره في العد والحفظ فإن المؤمن يمتاز عنه بالإيمان والعمل بها»(١).

المطلب الرابع: طريق إثباتها:

تبين أن أسماء الله تعالى غير محصورة، وهذا هو رأي جمهور العلماء، وهو الرأي الذي نصره القرطبي.

وقد تتبع العلماء أسماء الله تعالى في الكتاب والسنة، محاولة لجمعها ومعرفتها، قال القرطبي: وقد بحث الناس عن هذه الأسماء في الكتاب والسنة فجمعوها في كتبهم كالخطابي والقشيري، وغيرهما، فمن أرادها وجدها(٢).

وقد اختلف العلماء في هذه الأسماء، هل هي توقيفية بحيث لا يسمى الله تعالى إلاّ بما ورد في الكتاب والسنة، أو من الممكن أن يشتق لله تعالى من أفعاله أسماء، أو يسمى بأسماء مستحسنة، وإن لم ترد في الكتاب أو السنة؟

الحق هو ما عليه جمهور العلماء من أن أسماء الله توقيفية،فلا يسمى سبحانه إلاّ بما جاء في الكتاب والسنة، وقد خالف في ذلك المعتزلة، ورأوا أن العقل إذا دلّ على جواز تسمية الله باسم فيجب أن نسميه به، حتى لو لم يرد بذلك نصٌّ صحيح، وقد بالغ في إثبات هذا أبوعلي الجبائي(٣)، حتى سمى الله بأسماء ينزه الحق سبحانه وتعالى عنها»(٤)(٥).

---

(١) فتح الباري لابن حجر(١٣/ ٣٩٠).

(٢) المفهم (٧/ ١٧).

(٣) أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام المعروف بالجبائي أحد أئمة المعتزلة أخذ عنه الأشعري ثم تركه وصارت بينها مناظرات توفي سنة(٣٠٣هـ). سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٨٣). طبقات المفسرين للسيوطي (٢/ ١٠٢).

(٤) انظر مقالات الإسلاميين (٢/ ٢٠٨) والفرق بين الفرق ص(٣٣٧).

(٥) ذكر بعض من ترجم لأبي الحسن الأشعري أنَّ من أسباب تركه الاعتزال مناظرته لشيخه أبي علي الجبائي في بعض المسائل ومنها هذه المسألة فقد كان أبو الحسن الأشعري =

ولا شك أن ما ذهب إليه المعتزلة ليس عليه دليل من كتاب ولا سنة، ولا عمل سلف الأمة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[٢].

قال الخطابي ـ رحمه الله ـ: «ومن علم هذا الباب أعني: الأسماء والصفات، ومما يدخل في أحكامه، ويتعلق به من شرائط، أنه لا يتجاوز فيها التوقيف»[٣].

وذلك لأنها من أمور الغيب التي يجب الوقوف فيها على ما جاء في الكتاب والسنة، فلامجال للعقل فيها؛ لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه الله من الأسماء لقوله ﷺ: «**لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على**

= يرى أنَّ أسماء الله توقيفية بخلاف شيخه الجبائي فمرة دخل رجل على الجبائي فقال له: هل يجوز أن يسمى الله تعالى عاقلاً؟ قال الجبائي: لا لأنَّ العقل مشتق من العقال، وهو المانع والمنع في حق الله محال، فامتنع الإطلاق، فقال أبو الحسن الأشعري: فعلى قياسك لا يسمى الله سبحانه حكيمًا لأنَّ هذا الإسم مشتق من حكمة اللجام وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج ويشهد لذلك قول حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ:

فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء

وقول الآخر:

أبني حنيفة حكِّموا سفاءكم ... إني أخاف عليكم أن أغضبا

أي: نمنع بالقوافي من هجانا وامنعوا سفاءكم.

فإذا كان اللفظ مشتقًّا من المنع، والمنع على الله محال لزمك أن تمنع إطلاق (حكيم) على الله سبحانه.

فقال الجبائي: فلم منعت أنت أن يسمى الله عاقلاً وأجزت أن يسمى حكيمًا؟ قال الأشعري: لأن طريقي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي دون القياس اللغوي فأطلقت حكيمًا لأنَّ الشرع أطلقه ومنعت عاقلاً لأنَّ الشرع منعه ولو أطلقه الشرع لأطلقته. طبقات الشافعية للسبكي (٣/ ٣٥٧).

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

(٣) شأن الدعاء للخطابي ص(١١١).

نفسك»[١].

والتسمية من الثناء، فدل على أن العقل لا مجال له في باب الأسماء إلاَّ التصديق والوقوف عند النصوص.

واحتج الغزالي بالاتفاق على أنه لا يجوز لنا أن نسمي رسول الله ﷺ باسم لم يسمه به أبوه، ولا سمى به نفسه، وكذا كل كبير من الخلق قال: «فإذا امتنع ذلك في حق المخلوق فامتناعه في حق الله أولى»[٢].

والقرطبي تكلم في هذه المسألة في موضعين من المفهم بيَّن فيهما موضع الخلاف في ذلك، ولم يرجح حيث قال: «العلماء اختلفوا في أسماء الله تعالى هل الأصل فيها التوقيف، فلا يسمى إلاَّ بما سمى به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله، أو بجمع الأمة عليه؟ أو الأصل جواز تسميته بكل اسم حسن إلاَّ أن يمنع منه مانع شرعي؟.

الأول: لأبي الحسن، والثاني: للقاضي أبي بكر[٣]، ومثار الخلاف: هل الألف واللام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[٤] للجنس أو للعهد؟... ثم هل يكتفي في كون الكلمة اسمًا من أسماء الله تعالى بوجودها في كلام الشارع من غير تكرار، ولا كثرة، أم لابد منهما؟ فيه رأيان»[٥].

وبيَّن في الموضع الآخر أنه لابد من التوقيف عليها أو استعمالها استعمال الأسماء من الكثرة والتكرار، حيث قال: «أسماء الله تعالى لابد فيها من التوقيف عليها، أو استعمالها استعمال الأسماء من الكثرة والتكرار، فيخبر به، وينادى به، كما اتفق في سائر أسماء الله تعالى كالغفور والشكور والعليم والحليم، وغير ذلك من أسمائه، فإنك تجدها في الشريعة وفي لسان أهلها تارة يخبر بها، وأخرى يخبر عنها، وأخرى يدعى وينادى

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة باب مايقال في الركوع والسجود ح(٤٨٦) (٤/ ٤٥٠).
(٢) المقصد الأسني للغزالي ص(١٧٤).
(٣) الباقلاني.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٥) المفهم (٦/ ٥٧٦)

بها[١].

وما ذكره ـ رحمه الله ـ في هذا الكلام فيه إيهام، إذ الأسماء التي جاء بها للتمثيل كلها، وردت في كتاب الله، وليته ضرب لنا مثلاً لما استعمل استعمال الأسماء من الكثرة والتكرار، ولم يرد في كتاب ولا سنة ليتبين لنا مراده جزمًا بلا تخمين. والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أنه خلط بين الأسماء وبين مسألة الإخبار عنه. فالأسماء يجب التوقيف فيها، فلا يسمى إلاَّ بنص من كتاب أو سنة، وأما مسألة الإخبار عنه فقد توسع العلماء في ذلك فأجازوا الإخبار عنه تعالى بغير أسمائه التي ورد فيها النَّص، فأجازوا إطلاق اسم: «الموجود» و«الشيء» و«الذات» وغيرها على الله تعالى، من باب الإخبار، وإن لم ترد في الكتاب أو السنة، لكنه لا يخبر عنه باسم سيء.

قال ابن تيمية: «وأما الإخبار عنه فلا يكون باسم سيىء، لكن قد يكون باسم حسن، أو باسم ليس بسيىء، وإن لم يحكم بحسنه مثل اسم: شيء وذات وموجود»[٢].

وقال ابن القيم: «ما يدخل في باب الإخبار عنه أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى»[٣].

وربما جعل القرطبي من أسمائه ما هو من صفاته، التي يخبر عنه بها، ويدعى بها، مثل: أرحم الراحمين، ورافع السماء، ومنزل الغيث، ومنجي المؤمنين، ومهلك الظالمين، ونحوها، وهذا كثير في السنة.

وإذا قيل:كل ما لا يقبل الدعاء به فليس من أسمائه لا يعني أنه لا يجوز أن ندعوه بصفاته وأفعاله، ولكن وإن دعوناه بها فلا تكون من أسمائه[٤].

---

(١) المفهم (٥/ ٥٤٨).
(٢) الفتاوى (٦/ ١٤٢، ١٤٣).
(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٦٩).
(٤) انظر: أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة للدكتور عمر الأشقر ص(٥٩).

والمازري أثبت القول الصحيح وهو التوقيف على ما جاء في الكتاب والسنة، حيث قال: «الباري سبحانه لا يسمى إلاَّ بما سمى به نفسه، أو سمَّاه به رسوله ﷺ، أو اجتمعت الأمة عليه، قال أبوالحسن الأشعري أو على معناه: «وما لم يرد فيه إذن في إطلاقه ولا ورد فيه منع ولم يستحل وصف الباري تعالى به ففيه اختلاف هل يبقى على حكم العقل لا يوصف بتحليل ولا تحريم أو يمنع منه لقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[١] فأثبت كون أسمائه حسنى ولا حسن إلاَّ ما ورد الشرع به»[٢].

المطلب الخامس: أقسامها:

قال القرطبي: «أسماء الله تعالى من جهة دلالتها أربعة أضرب:

فمنها: ما يدل على الذات مجردة، كاسم «الله تعالى» على قول من يقول: إنه علم غير مشتق وهو الخليل وغيره؛ لأنه يدل على الوجود الحق الموصوف بصفات الجلال والكمال دلالة مطلقة غير مقيدة بقيد ولأنه أشهر أسمائه، ومنها: ما يدل على صفات الباري تعالى الثابتة له كالعالم[٣]، والقادر، والسميع، والبصير. ومنها: ما يدل على إضافة أمر ما إليه[٤] كالخالق والرازق. ومنها: ما يدل على سلب شيء عنه[٥]، كالقدوس، والسلام. وهذه الأقسام الأربعة لازمة منحصرة دائرة بين النفي والإثبات، فاختبرها تجدها كذلك»[٦].

وقد ذكر ابن القيم هذا التقسيم في بدائع الفوائد[٧].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٢) المعلم (٣/ ١٦٧).

(٣) وهي وإن دلت على إضافة أمر إليه كالخلق والرزق، إلاَّ أنها صفات ثابتة لله تعالى أزلاً وأبدًا. قال الطحاوي: ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري. شرح الطحاوية (١/ ١٠٩).

(٤) العالم لم تأت وصفًا لله تعالى إلاَّ مضافة كقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٧٣] وأما بالأفراد فالعليم.

(٥) أي التنزيه والتقديس بنفي صفات النقص عنه وهذا النفي يدل على إثبات صفات الكمال له ويتضح هذا في اسم القدوس والسلام.

(٦) المفهم (٧/ ١٥)..

(٧) بدائع الفوائد (١/ ١٦٦).

المطلب السادس : اسم الله الأعظم :

اختلف العلماء في اسم الله الأعظم، فذهب البعض إلى نفي ذلك بمعنى أنه ليس لله اسمٌ أعظم، له مزايا وخصائص تميزه عن سائر الأسماء، وإلى هذا ذهب الطبري والأشعري، والباقلاني، وغيرهم.

وذهب الجمهور إلى إثبات الاسم الأعظم لله تعالى لورود النص الصريح بذلك عن الرسول ﷺ[١].

وهذا الذي ذهب إليه القرطبي تبعًا لجمهور العلماء، ثم اختلف الجمهور في تحديد اسم الله الأعظم. ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح أربعة عشر قولاً[٢]. فذهب كثير من العلماء إلى أنه: لفظ الجلالة «الله» وذهب آخرون إلى أنه: «الحي القيوم»، وقيل: «ذو الجلال والإكرام»، ورجَّح الدُّكتور عبدالله الدميجي في كتابه «اسم الله الأعظم» أن تحديده على وجه القطع أمر متعذر[٣].

والقرطبي ـ رحمه الله ـ لم يصرِّح برأيه في هذه المسألة، إنما اكتفى بقوله وهو يتحدث عن سورتي البقرة وآل عمران وتسميتهما بالزهراوين: «ويقع لي أنهما سميتا بذلك لأنهما اشتركتا في تضمن اسم الله الأعظم، كما ذكر أبوداود من حديث أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ قال: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين** ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾[٤] **والتي في سورة آل عمران:** ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾[٥]»[٦] والله

---

(١) وقد خصه بعض العلماء بباب مستقل مثل: ابن ماجه حيث عقد بابًا باسم: اسم الله الأعظم وذلك في كتاب الدعاء من سننه وابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الدعاء(٦/ ٤٧). والبغوي في شرح السنة في كتاب الدعوات باب ماقيل في الاسم الأعظم (٣/ ٣٠٩) وغيرهم.

(٢) فتح الباري (١١/ ٢٢٧).

(٣) اسم الله الأعظم ص(١٦١) وانظر هذه الأقوال وغيرها على وجه التفصيل في هذا المرجع.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٢.

(٦) رواه أبو داود في كتاب الصلاة باب الدعاء، والترمذي في أبواب الدعوات باب(٦٥) =

أعلم»[١].

المطلب السابع : شرح بعض أسماء الله تعالى :

تعرض القرطبي لبعض أسماء الله تعالى بالشرح والتَّوضيح في مواضع متعددة من «المفهم»، وأمَّا المازري فتعرض للقليل منها كعادته في الاختصار، وقد رتبتها هنا على حروف المعجم دون النظر لترتيب ورودها في المفهم، وهي كما يلي:

الأحد:

قال القرطبي حول هذا الاسم: «يدل على أحدية الذات المقدسة الموصوفة بجميع صفات الكمال المعظمة، وبيانه: أن الأحد والواحد وإن رجعا إلى أصل واحد لغة، فقد افترقا استعمالاً وعرفًا، وذلك: أن الهمزة من أحد منقلبة عن الواو من: وحد كما قال النابغة[٢]:

كـأنَّ رَحْلـي وقـد زَالَ النَّهـارُ بنـا   يوم الجليلِ على مُسْتأْنسٍ وَحِدِ[٣]

فهما من الوحدة، وهي راجعة إلى نفي التعدد والكثرة، غير أن استعمال العرب فيهما مختلف: فإن الواحد عندهم أصل العدد من غير تعرض لنفي ما عداه، والأحد يثبت مدلوله ويتعرض لنفي ما سواه، ولهذا أكثر ما استعملته العرب في النفي، فقالوا: ما فيها أحد ولم يكن له كفوًا أحد، ولم يقولوا هنا: واحد، فإن أرادوا الإثبات قالوا: رأيت واحدًا من الناس، ولم يقولوا هنا: أحدًا، وعلى هذا فالأحد في أسمائه تعالى مشعر بوجوده الخاص به، الذي لا يشاركه فيه غيره، وهو المعبر عنه بواجب الوجود، وربما عبَّر عنه بعض المتكلمين بأنه أخص وصفه»[٤].

= وقال حديث حسن صحيح وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٢٩) برقم(٩٨٠).

(١) المفهم (٢/ ٤٣٠).

(٢) هو زياد بن معاوية الذبياني الشهير بالنابغة الذبياني من أشهر شعراء الجاهلية كان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم في سوق عكاظ، كان نديمًا للنعمان بن المنذر ملك الحيرة وأكثر شعره في مدحه. الأعلام (٣/ ٥٤).

(٣) قاله في مدح النعمان بن المنذر ملك الحيرة واعتذاره إليه: انظر: ديوان النابغة الذبياني ص (٧٩).

(٤) المفهم (٢/ ٤٤١).

الأول والآخر :

قال القرطبي حول هذين الاسمين: «اختلفت عبارات العلماء في هذا وأرشق عباراتهم قول من قال: الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، وقيل: الأول بالابتداء، والآخر بالإفناء، وقيل: الأول: القديم، والآخر: الباقي»(١).

الباطن:

قال القرطبي: «اختلفت عبارات العلماء حوله فقيل: الباطن: بلا احتجاب، وقيل: الباطن عن الإدراكات، وقيل: الباطن الخفي اللطيف الرفيق بالخلق»(٢).

الجبّار:

ذكر القرطبي هذا الاسم فقال: «الجبار: العظيم الشأن، الممتنع على من يرومه، ومنه نخلة جبارة، إذا فاقت الأيدي طولاً، يقال منه: جبَّار بين الجبرية والجبروت، ولم يأت فعَّال من أفعلت إلاَّ جبَّار من أجبرت ودراك وسآر والجبروت أيضًا للمبالغة بزيادة التاء... وقيل: معنى الجبار: أي: المصلح من قولهم: جبرت العظم، وذلك أنه تعالى يجبر القلوب المنكسرة من أجله ويرحم عباده ويسد خلاتهم»(٣).

الجميل :

ذكر القرطبي هذا الاسم عند شرحه لقوله ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**»(٤). حيث قال: «الجمال لغة هو الحسن... وهذا الحديث يدل على أن الجميل من أسماء الله تعالى، وقال بذلك جماعة من أهل العلم، إلاَّ أنهم اختلفوافي معناه فقيل: معناه معنى الجليل، قاله القشيري، وقيل: معناه ذو النور والبهجة، أي: مالكهما، قاله الخطَّابي، وقيل: جميل الأفعال بكم والنظر إليكم، فهو يحب التجمل منكم في قلة إظهار الحاجة

---

(١) انظر: المفهم (٧/ ٤٢).
(٢) المفهم (٧/ ٤٢).
(٣) المفهم (١/ ٤٤٣).
(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه ح(٩١) (٢/ ٤٤٨).

إلى غيره، قاله الصيرفي، وقال: الجميل: المنزه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال الآمر بالتجمل له بنظافة الثياب والأبدان والنزاهة عن الرذائل والطغيان»[(١)].

وقال المازري عن هذا الاسم عند شرحه للحديث السابق: «أُطلق في هذا الحديث تسمية الباري تعالى جميلاً ويحتمل أن يكون سماه بذلك لانتفاء النقص عنه؛ لأن الجميل منا من حسنت صورته، ومضمون حسن الصورة انتفاء النقائص والشين عنها، ويحتمل أن «جميل» هٰهُنَا بمعنى مجمل أي محسن»[(٢)].

الحق:

عند شرح القرطبي لقوله ﷺ في دعائه لربه: «**أنت الحق ووعدك الحق**...»[(٣)]، قال: «أي واجب الوجود وأصله: من حق الشيء إذا ثبت ووجب ومنه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾[(٤)] ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾[(٥)] أي ثبت ووجب، وهذا الوصف لله تعالى بالحقيقة والخصوصية لا ينبغي لغيره إذ وجوده لنفسه فلم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم، وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم ويجوز عليه لحاق العدم، ووجوده من موجده لا من نفسه، وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد[(٦)]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل[(٧)] ... ...

---

(١) المفهم (١/ ٢٨٨).
(٢) المعلم (١/ ٢٠٣).
(٣) رواه البخاري في كتاب التهجد باب التهجد بالليل ح(١١٢٠) (٣/ ٥) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ح(٧٦٩) (٥/ ٢٩٠).
(٤) سورة الزمر، الآية: ١٩.
(٥) سورة السجدة، الآية: ١٣.
(٦) لبيد بن ربيعة بن عامر العامري من الشعراء المخضرمين قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه توفي سنة(٤١هـ) وعمره كما قيل يزيد على (١٥٠ سنة) فهو من المعمَّرين. أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير(٤/ ٤٨٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر(٣/ ٣٩٢).
(٧) تتمة البيت: وكل نعيم لا محالة زائل. وقد أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة باب أيام الجاهلية ح(٣٨٤١) (٧/ ١٨٣).

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾[(١)]»[(٢)].

الحكيم:

قال القرطبي: «الحكيم: المحكم للأمور أو الكثير الحكمة»[(٣)].

الخبير:

قال القرطبي: «الخبير: العليم بخبرة الأمور، أي: بواطنها وما يختبر منها»[(٤)].

الرب:

قال القرطبي عن هذا الاسم عند قوله ﷺ: «**أنت رب السموات والأرض ومن فيهن...**»[(٥)]: «أي مصلحهما ومصلح من فيهما، مأخوذ من الربّة، وهي: نبتٌ تصلحُ عليه المواشي، يقال: ربَّ يربُّ ربًّا، فهو رابٌّ، وربٌّ، وربَّىٰ يربِّي تربية: فهو: مُربٍّ، قال النَّابغة:

* وربَّ عليه اللهُ أحسَنَ صُنْعَهُ[(٦)] *

وقال آخر:

يَرُبُّ الذي يأتي من الخير إنه إذا فعل المعروف زاد وتمَّما[(٧)]

والربُّ أيضًا: السَّيد. فيكون معناه: أنه سيدُ من في السموات والأرض، والرب: المالك أي: هو مالكهما، ومالك من فيهما»[(٨)].

وقال في موضع آخر: «أصل «ربٌّ»: اسم فاعل من ربَّ الشيء: إذا

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٢) المفهم (٢/ ٣٩٨).
(٣) المفهم (١/ ٤٠٥).
(٤) المفهم (١/ ٤٠٤).
(٥) وهو قوله عليه السلام «**أنت الحق...**» سبق تخريجه ص(٣٣٣).
(٦) قاله النابغة عندما أخبر بمرض النعمان بن المنذر وهو كما في ديوانه:
ورب عليه الله أحسن فضله وكان على البرية ناصرا
انظر: ديوان النابغة ص (١١٩).
(٧) لم أقف عليه.
(٨) المفهم (٢/ ٣٩٧).

أصلحه وقام عليه ثم إنه يقال على السيد والمالك»[١].

الرفيق:

قال القرطبي عن هذا الاسم وذلك عند شرحه لقوله ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق**»[٢]: «الرفيق: هو كثير الرفق، وهو اللينُ، والتسهيل، وضده العنف، والتشديد، والتصعيب، وقد يجيء الرفق بمعنى الإرفاق، وهو: إعطاء ما يرتفق به قال أبوزيد: يقال: رفقت به وأرفقته بمعنى: نفعته، وكلاهما صحيح في حق الله تعالى إذ هو الميسر والمسهل لأسباب الخير والمنافع كلها، والمعطي لها، فلا تيسير إلاَّ بتيسيره، ولا منفعة إلاَّ بإعطائه وتقديره، وقد يجيء الرفق أيضًا بمعنى: التَّمهل في الأمر والتَّأني فيه يُقال منه: رفقت الدابة أرفقها رفقًا: إذا شددت عضدها بحبل لتبطىء في مشيها وعلى هذا فيكون الرفيق في حق الله تعالى بمعنى: الحليم فإنه لا يعجل بعقوبة العصاة، بل يمهل ليتوب من سبقت له السعادة، ويزداد إثمًا من سبقت له الشقاوة وهذا المعنى أليق بالحديث، فإنه السبب الذي أخرجه وذلك أن اليهود سلموا على النبي ﷺ فقالوا: السَّام عليك ففهمتهم عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: بل عليكم السَّامُ واللعنة، قال لها النبي ﷺ هذا الحديث»[٣].

وقال المازري: إن لم يرد في الشريعة بإطلاقه سوى هذا ففي قبوله خلاف[٤] ويحتمل أن يكون قوله «رفيق» يفيد صفة فعل وهو ما يخلقه سبحانه من الرفق لعباده»[٥].

السلام:

قال القرطبي: «السَّلام من أسمائه تعالى الحسنى، وهو السالم من

---

(١) المفهم (٧/ ٤٢).

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل الرفق ح(٢٥٩٣). (١٦/ ٣٨٣).

(٣) المفهم (٦/ ٥٧٦).

(٤) هذا بناء على قول الأشاعرة في قبول أخبار الآحاد.

(٥) انظر: المعلم (٣/ ١٦٧).

النقائص، وسمات الحدث(١)، وقيل: المسلم عباده، وقيل: المسلم عليهم في الجنة، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾(٢)»(٣).

وقال في موضع آخر: «السلام اسم من أسماء الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾(٤) ومعناه في حق الله تعالى: أنه المنزه عن النقائص والآفات التي تجوز على خلقه... المسلِّم لمن استجار به من جميع المخلوقات»(٥).

السِّيد:

لم يجزم القرطبي بأن هذا من أسماء الله وذلك عند شرحه لقوله ﷺ: «**لا يقل العبد: «ربي» وليقل: «سيدي»**»(٦). حيث قال: «إنما فرَّق بينهما لأن الرب من أسماء الله المستعملة بالاتفاق، واختلف في السيد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا؟ فإذا قلنا: ليس من أسمائه فالفرق واضح، إذ لا التباس ولا إشكال يلزم من إطلاقه، كما يلزم من إطلاق الرَّبِّ، وإذا قلنا: إنه من أسمائه فليس في الشهرة والاستعمال كلفظ «الرب» فيحصل الفرق بذلك وأما من حيث اللغة... فالسيد من السؤدد، وهو التقدم يقال: ساد قومه: إذا تقدمهم»(٧).

الصمد:

ذكر القرطبي هذا الاسم مع اسم الله تعالى «الأحد» وذلك عند قوله

---

(١) هذه حجة المبتدعة في نفي صفات الله الفعلية كالنزول إلى السماء الدنيا والمجيء بزعم أن ذلك من صفات وسمات المحدثات.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٧٣.
(٣) المفهم (٢/ ٣٤).
(٤) سورة الحشر، الآية: ٢٣.
(٥) المفهم (٥/ ٤٨٥).
(٦) سبق تخريجه ص (٢٨٢).
(٧) المفهم (٥/ ٥٥٤) وقد جاء في اسم السيد قوله ﷺ «**السيد الله تبارك وتعالى**» رواه أبو داود في كتاب الأدب باب كراهية التمادح، وأحمد في المسند(٤/ ٢٤) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري ص(٩٧). برقم(١٥٥).

ﷺ: «**قل هو الله أحد، تعدل ثلث القرآن**»(١) قال القرطبي: «اشتملت على اسمين من أسمائه تعالى يتضمنان جميع أوصاف كماله تعالى لم يوجدا في غيرها من جميع السور وهما: «الأحد» و«الصمد»... أما الصمد: فهو المتضمن لجميع أوصاف الكمال فإن الصمد هو الذي انتهى سؤدده بحيث يُصْمَدُ إليه في الحوائج كلها أي: يقصد ولا يصح ذلك تحقيقًا إلاَّ ممن حاز جميع خصال الكمال حقيقة وذلك لا يكمل إلاَّ الله تعالى فهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فقد ظهر أن لهذين الاسمين من شمول الدلالة على الله تعالى وصفاته، ما ليس لغيرهما من الأسماء، وأنهما ليسا موجودين في شيء من سور القرآن، فظهرت خصوصية هذه السورة بأنها تعدل ثلث القرآن(٢).

الطيب:

قال ﷺ: «**إن الله طيِّبٌ لا يقبلُ إلاَّ طيِّبًا**»(٣). قال القرطبي: «إن الله طيِّب أي: منزه عن النقائص والخبائث فيكون بمعنى القدوس، وقيل: طيب الثناء ومستلذ الأسماء عند العارفين بها، وعلى هذا: فطيب: من أسمائه الحسنى، ومعدودٌ في جملتها المأخوذة من السنة كالجميل والنظيف(٤) على قول من رواه ورآه(٥).

الظاهر:

قال القرطبي: «اختلفت عبارات العلماء فيه فقيل: الظاهر بلا اقتراب

---

(١) سبق تخريجه ص (١٠٨).

(٢) المفهم (٢/ ٤٤١).

(٣) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ح(١٠١٥) (٧/ ١٠٤).

(٤) الصحيح أنه لم يرد فيه حديث صحيح إنما جاء في حديث ضعيف قوله: «**إنَّ الله طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة...**». رواه الترمذي في كتاب الأداب، باب ماجاء في النظافة وقال: حديث غريب وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص(٢٣٤) برقم (١٦١٦).

(٥) المفهم (٣/ ٥٨).

وقيل: الظاهر بالآيات، وقيل: الظاهر: الغالب»[١].

العزيز:

قال القرطبي متحدثًا عن مصدر هذا الاسم وهو «العزة»: «العزة: القوة والغلبة ومنه: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾[٢] أي غلبني ويقال أيضًا: عزَّ الشيء إذا قل، فلا يكاد يوجد مثله يعزُّ عزًّا وعزازة، وعزَّ يعزّ عِزة إذا صار قويًّا بعد ضعف وذلةٍ. فعزة الله تعالى قهره للجبابرة وقوته الباهرة»[٣].

العلي:

قال القرطبي: «العلي: ذو العلو وهو الرفعة المعنوية في حقه تعالى لا المكانية[٤]»[٥].

وقال في موضع آخر: «العلي: أي العلي شأنه»[٦].

القدوس:

قال القرطبي: «القدوس من القدس، وهي الطهارة، والقدس: السطل الذي يستقىٰ به، ومنه: البيت المقدَّس أي: المطهر»[٧].

القيُّوم أو القيَّام:

قال القرطبي: «قيَّام على المبالغة من«قام بالشيء» إذا هيأ له ما يحتاج إليه ويقال: «قيُّوم» و«قيَّام» و«قيِّم» وقرأ عمر «الله لا إله إلاَّ هو الحي القيَّام»[٨] وعلقمة[٩]: القيم. وقال قتادة: هو القائم بتدبير خلقه. وقال الحسن:

---

(١) انظر المفهم (٧/ ٤٢).
(٢) سورة ص، الآية: ٢٣.
(٣) المفهم (١/ ٤٤٣).
(٤) هذا على مذهبه في نفي علوالله تعالى وسيأتي تفصيله.
(٥) المفهم (١/ ٤٠٥).
(٦) المفهم (٥/ ٦٣٩).
(٧) المفهم (٢/ ٩١).
(٨) سورة البقرة،الآية: ٢٥٥ وهي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.
(٩) علقمة بن قيس بن عبدالله النخعي الإمام الحافظ فقيه العراق من كبار التابعين ومن أخص أصحاب ابن مسعود وأشدهم له ملازمة توفي سنة(٦٢ هـ). حلية الأولياء (٢/ ٩٨). تذكرة الحفاظ للذهبي (١/ ٤٨).

القائم على كل نفس بما كسبت. وقال ابن جبير: الدائم الوجود. وقال ابن عباس: الذي لا يحول ولا يزول»(١).

الكبير:

قال القرطبي عن هذا الاسم: الكبير: الكبير سلطانه»(٢).

اللطيف:

قال القرطبي: «اللطيف: الكثير اللطف وهو في حق الله تعالى: رفقه بعباده وإيصاله لهم ما يصلحهم بحيث لا يشعرون كما قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾(٣) وأصله: من اللطف في العمل وهو الرفق فيه وضده العنف والاسم منه: اللطف بتحريك الطاء يقال: جاءتنا لطفة من فلان أي هدية»(٤).

اللّـه:

قال القرطبي وهو يتحدث عن أقسام أسماء الله تعالى من جهة دلالتها: «فمنها ما يدل على الذات مجردة كاسم الله تعالى على قول من يقول: إنه علم غير مشتق(٥) وهو الخليل وغيره؛ لأنه يدل على الوجود الحق الموصوف بصفات الجلال والكمال دلالة مطلقة غير مقيدة بقيد؛ ولأنه أشهر أسمائه حتى تعرف كل أسمائه به فيقال: الرحمن: اسم الله ولا يقال الله اسم الرحمن؛ ولأن العرب عاملته معاملة الأسماء الأعلام في النداء، فجمعوا بينه وبين ياء النداء، ولو كان مشتقًّا لكانت لامه زائدة، وحينئذ لا يجمع بينه وبينها في النداء، كما لا تقول العرب: يا لحارث،

---

(١) المفهم (٢/ ٣٩٧).

(٢) المفهم (٥/ ٦٣٩).

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٤) المفهم (١/ ٤٠٤).

(٥) الخلاف في لفظ الجلالة هل هو مشتق أو غير مشتق؟ خلاف مشهور وقد رجح ابن القيم ـ رحمه الله ـ أنه مشتق ومعنى كونه مشتقًا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلٰهية كسائر أسماء الله الحسنى كالعليم والقدير والغفور وغيرها، فإنها مشتقة من مصادرها. انظر بدائع الفوائد لابن القيم (١/ ١٨، ١٩) وتفسير القرطبي (١/ ٧٢)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٨، ١٩). وتيسير العزيز الحميد ص (٢٨).

ولا يا لعباس، ولاستيفاء المباحث علم الاشتقاق»[١].

المقدّم والمؤخّر:

قال القرطبي عن هذين الاسمين عند شرحه لقوله ﷺ: «**أنت المقدم وأنت المؤخر**»[٢]: «أي: المقدم لمن شئت بالتوبة والولاية والطاعة، والمؤخر لمن شئت بضد ذلك، والأولى: أنه تعالى مقدِّم كل مقدَّم في الدنيا والآخرة، ومؤخِّر كل مؤخَّر في الدنيا والآخرة»[٣].

وقال في موضع آخر عن هذين الاسمين: «أي: تقدِّم من تشاء فتجعلهم أنبياء وأولياء وعلماء وفضلاء وتؤخِّر من شئت فتجعله فرعون وأباجهل، أو تملِّك الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وعلى الجملة فكل تقديم وتأخير منه»[٤].

المحيي والمميت:

قال ﷺ: «**اللهم باسمك أحيا وباسمك أموت**»[٥]. قال القرطبي: «المحيي المميت من أسمائه تعالى، ومعنى ذلك: أن الله تعالى إنما سمى نفسه بأسمائه الحسنى؛ لأن معانيها ثابتة في حقه، وواجبة له، فكل ما ظهر في الوجود من الآثار إنما هي صادرة عن تلك المقتضيات، فكل إحياء في الدنيا والآخرة: إنما هو صادر عن قدرته على الإحياء، وكذلك القول في الإماتة، وفي الرحمة والملك وغير ذلك من المعاني التي تدل عليها أسماؤه، فكأنه قال: باسمك المحيي أحيا وباسمك المميت أموت، وكذلك القول في سائر الأسماء الدالة على المعاني»[٦].

---

(١) المفهم (٧/ ١٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء للمشركين ح(٦٣٩٨) (١١/ ٢٠٠) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار، باب التعوذ من شر ماعمل ومن شر مالم يعمل ح(٢٧١٩) (١٧/ ٤٣).

(٣) المفهم (٧/ ٤٨).

(٤) المفهم (٢/ ٤٠٣).

(٥) سبق تخريجه ص(٣٢١).

(٦) المفهم (٧/ ٤٠).

الملك:

قال القرطبي: «"الملك": من له المُلْكُ و"المالك": من له المِلْك والمِلكُ أمدحُ، والمالك أخصُّ وكلاهما واجبٌ لله تعالى»[١].

نور السموات والأرض:

قال ﷺ: «**اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض**»[٢] قال القرطبي: «أي: مُنوِّرُها في قول الحسن دليله قراءة علي - رضي الله عنه -: «الله نَوَّر السَّموات»[٣] بفتح النون والواو مشددة، قال ابن عباس: هادي أهلهما. ومجاهد: مُدبِّرهما. وقيل: هو المنزه في السموات والأرض من كل عيب من قول العرب: امرأة نوارة، أي: مبرأة من كل ريبة، وقيل: هو اسم مدح يقال: فلان نورُ البلد وشمس الزمان، كما قال النابغة:

فإنك شمسٌ والملوك كواكبُ ... إذا طَلَعتْ لم يبدُ منهن كوكبُ[٤]

وقال آخر:

إذا سار عبدالله في مرو ليلةً ... فقد سار فيها نورها وجمالها[٥]

وقال أبوالعالية[٦]: «مزيِّن السموات بالشمس والقمر والنجوم، ومزيِّن الأرض بالأنبياء والأولياء والعلماء»[٧].

---

(١) المفهم (٥/ ٤٥٥).

(٢) وهوأول الحديث الذي قال فيه عليه السلام «**أنت الحق**..» سبق تخريجه ص (٣٣٣).

(٣) سورة النور، الآية: ٣٥ والآية هي: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.

(٤) قاله النابغة الذبياني في مدحه للنعمان بن المنذر ملك الحيرة واعتذاره إليه. انظر: ديوان النابغة الذبياني ص (٥٤).

(٥) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة عبدالله بن المبارك وقال: قال عمار بن الحسن يمدح ابن المبارك:

إذا سار عبدالله من مرو ليلة ... فقد سار منها نورها وجمالها

إذا ذكر الأحبار في كل بلدة ... فهم أنجم فيها وأنت هلالها

سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٩١).

(٦) أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي البصري الإمام الحافظ المقريء المفسر أحد أئمة التابعين وأعلامهم من أعلم الناس بعد الصحابة بالقرآن توفي سنة (٩٠هـ) وقيل (٩٣هـ).

تهذيب التهذيب (١/ ٦١٠). معرفة القراء الكبار(١/ ٦٠).

(٧) المفهم (٢/ ٣٩٦).

وقال في موضع آخر: «فأما اسم الله تعالى «النور» فمعناه: أنه هاد من ظلمات الجهالات كما أن النور المحسوس هاد في محسوس الظلمات، وقيل معناه: أنه منوِّر السموات والأرض وخالق الأنوار فيهما»(١).

الوتر:

قال ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من حفظها دخل الجنة، والله وتر يحب الوتر**»(٢).

قال القرطبي: «الوتر: الفرد، والشفع: الزوج، وأن معنى وحدانية الله تعالى: أنه واحد في ذاته، فلا انقسام له، وواحد في إلهيته فلا نظير له، وواحد في مُلكه ومِلكه فلا شريك له... إن الله تعالى في ذاته وكماله وأفعاله واحد، ويحب التوحيد أن يوحَّد ويعتقد انفراده دون خلقه(٣).

المطلب الثامن: الأسماء المزدوجة:

عامة أسماء الله تعالى يطلق مفردًا ومقترنًا بغيره، كالقدير والسميع والبصير وغيرها. ومنها ما لا يطلق على الله مفردًا بل مقرونًا بمقابله، كالمانع والضار، والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي، والنافع، والعفو، فهو المعطي المانع الضار النافع المنتقم العفو المعز المذل؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله؛ لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية، وتدبير الخلق والتصرف فيهم، عطاءً ومنعًا ونفعًا وضرًّا، وعفوًا، وانتقامًا، وأما أن يثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت تجري مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجيء مفردة، ولم تطلق عليه إلاَّ مقترنة(٤).

(١) المفهم (١/٤٠٨).
(٢) سبق تخريجه ص(٣٢٢).
(٣) المفهم (٧/١٧).
(٤) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٧٧).

وقد أشار القرطبي إلى هذا فقال عند ذكر اسميه تعالى المقدم والمؤخر: «وهذان الاسمان من أسماء الله تعالى المزدوجة كالأول والآخر، والمبدىء والمعيد والقابض، والباسط، والخافض، والرافع، والضار، والنافع، فهذه الأسماء لا تقال إلاَّ مزدوجة كما جاءت في الكتاب والسنة هكذا، قال بعض العلماء، ولم يجز أن يقال: يا خافض حتى يضم إليه: يا رافع[(١)]»[(٢)].

المطلب التاسع : ما ليس من أسماء الله :

جاء في بعض الأحاديث بعض الألفاظ الموهمة أنها من أسماء الله، حتى ذهب البعض إلى جعلها من أسمائه تعالى، كالدهر ورمضان، والصاحب، والخليفة.

فقد جاء عن رسول الله ﷺ في الدهر قوله: «**قال الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر، فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أُقلِّبُ ليله ونهاره**»[(٣)]. قال القرطبي: «قيدها بعض الناس «الدَّهَر» بالنصب على أن تكون ظرفًا يعمل فيه «أُقَلِّبُ» فكأنه قال: أنا طول الدهر، أقلب الليل والنهار، ويكون «أُقَلِّبُ» هو الخبر، والذي حمله على ذلك خوف أن يقال: إن الدهر من أسماء الله تعالى، وهذا عدول عما صح إلى ما لم يصح مخافة ما لا يصح، فإن الرواية الصحيحة عند أهل التحقيق بالضم ولم يرو الفتح من يعتمد عليه، ولا يلزم من ثبوت الضم أن يكون الدهر من أسماء الله تعالى. . . فلا يكون الدهر اسمًا من أسمائه تعالى»[(٤)].

وأما رمضان، فقد ورد فيه حديث لا يصح وهو قوله: «**لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى**»[(٥)].

---

(١) المفهم (٧/ ٤٨).

(٢) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى للدكتور محمد خليفة التميمي (٤١١).

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة الجاثية (٤٥). ح(٤٨٢٦) (٨/ ٤٣٧)، ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر ح(٢٢٤٦) (١٥/ ٥).

(٤) المفهم (٥/ ٥٤٨).

(٥) رواه البيهقي في السنن الكبرى في كتاب الصيام، باب ما روي من كراهية قول القائل جاء رمضان وذهب رمضان (٤/ ٢٠١). وقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات =

وقد رده القرطبي فقال: وليس بصحيح فإنه من حديث: أبي معشر نجيح وهو ضعيف، و«رمضان»: مأخوذ من رمض الصائم يرمض: إذا حر جوفه من شدة العطش والرمضاء: شدة الحر[١].

وقال في موضع آخر: «لم يوجد في شيء من أسماء الله تعالى رمضان، والمعنى الذي أشتق منه رمضان محال على الله تعالى»[٢]. قال ﷺ: «**اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل**»[٣]. قال القرطبي: «لا يسمى الله تعالى بالصاحب ولا بالخليفة لعدم الإذن وعدم تكرارهما في الشريعة»[٤].

وكذلك الشافي قال القرطبي بعد ذكره لقوله ﷺ: «**اشف أنت الشافي**»[٥]: «الشافي اسم فاعل، والألف واللام فيه بمعنى «الذي» وليس باسم علم لله إذ لم يكثر ذلك ولم يتكرر على ما قدمناه»[٦].

وما ذهب إليه القرطبي هنا في نفي هذه الألفاظ أن تلحق بأسماء الله تعالى الحسنى هو الصحيح الذي عليه جماهير العلماء ماعدا اسم الشافي إذ ذهب إلى إلحاقه بأسماء الله تعالى عدد من العلماء لوروده في الحديث الصحيح[٧].

= (٢/ ١٨٧) والسيوطي في اللآليء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (٢/ ٩٧).

(١) المفهم (٣/ ١٣٦).

(٢) المفهم (١/ ١٥٤).

(٣) رواه مسلم في كتاب الحج باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ح(١٣٤٢) (٩/ ١١٨).

(٤) المفهم (٣/ ٤٥٤).

(٥) رواه البخاري في كتاب الطب باب مسح الراقي الوجع بيده اليمنى ح(٥٧٥٠) (١٠/ ٢٢١). ومسلم في كتاب السلام ، باب استحباب رقية المريض ح(٢١٩١) (١٤/ ٤٣٠).

(٦) المفهم (٥/ ٥٧٧).

(٧) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى للدكتور محمد بن خليفة التميمي ص (١٧٩، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩١)، وأسماء الله الحسنى لعبدالله بن صالح الغصن ص (٣٤٦، ٣٥٢).